مختصر

منهاج القاصدين

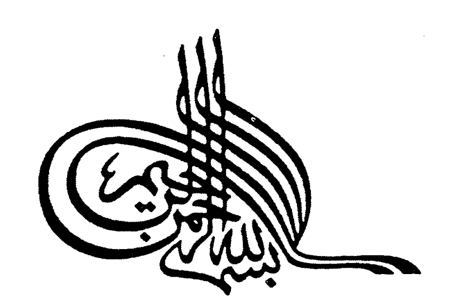
تأليف

الإمام أحمد بن عبد الرحمن قدامة المقدسي

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

صلاح محمد عويضة

دار ابن رجب



مختصر
منهاج القاصدين

الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)

الناشر
دار ابن رجب للنشر والتوزيع
فارسكور - هاتف: ٠٥٧ / ٤٤١٥٥٠
المنصورة هاتف: ٠٥٠ / ٢١٢٠٦٨

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم الزاهد العابد الأوحد العلامة ، نجم الدين أبو العباس أحمد ، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلا ، عز الدين أبى عبد الله محمد ، ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة شيخ الإسلام مفتى الأنام ، سيد العلماء والحكام ، شمس الدين ، أبى محمد عبد الرحمن ، ابن الشيخ الإمام العالم العامل العارف الزاهد الورع شيخ الإسلام ، أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة ، المقدسى الحنبلى ـ رضى الله عنه ـ :

الحمد لله الذى عم برحمته جميع العباد ، وخص أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد ، ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال ، ففازوا ببلوغ المراد .

أحمده حمد معترف بجزيل الإرفاد وأعوذ به من وبيل الطرد والإبعاد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أدخرها ليوم المعاد .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، موضح طريق الهدى والسداد ، قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد ، صلى الله ـ تعالى ـ عليه وعلى آله الأكرمين الأجواد ، صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد .

وبعد : فإني كنت وقفت مرة على كتاب : « منهاج القاصدين » للشيخ الإمام العالم الأوحد ، جمال الدين بن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ـ فرأيته من أجلّ الكتب وأنفعها ، وأكثرها فوائد ، فحصل عندى بموقع ، ورغبت فى تحصيله ومطالعته ، فلما رأيته ثانياً ، وجدته فوق ما كان فى نفسى ، لكن رأيته كتاباً مبسوطاً فأحببت أن أعلق منه هذا المختصر الذى قد احتوى على أكثر مقاصده ، وأجلّ مهماته وفوائده سوى ما ذكر فى أوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع ، فإنها مشهورة فى كتب الفقه المستفيضة بين الناس إذ كان المقصود من الكتاب غير ذلك ، ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذكر ألفاظه بعينها ، بل ذكرت بعضها بالمعنى قصداً

للاختصار ، وربما ذكرت فيه حديثاً أو شيئاً يسيراً من غيره إن كان مناسباً له ، والله تعالى أعلم .

وأسال الله الكريم أن ينفعنا به ، ومن قرأه ، أو سمعه ، أونظر فيه ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يختم لنا بخير ويوفقنا لما يرضاه من القول والعمل والنية ، وأن يسامحنا فى تقصيرنا وتفريطنا ، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقه فإنه حسبنا ونعم الوكيل .

قال المصنف [ابن الجوزى]- رحمة الله عليه - بعد فراغه من هذه الخطبة :

أما بعد : فإنى رأيتك أيها المريد الصادق ، والعازم الجازم ، قد وطنت نفسك على التخلى عن فضول الدنيا الشاغلة ، وعزمت على الانقطاع إلى الآخرة ، علماً منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط ، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط ، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت ، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت ، فنظرت أى أنيس من الكتب تستصحبه فى خلوتك وتستنطقه فى حال صمتك ، فإذا أنت تؤثر كتاب « إحياء علوم الدين »وتزعم انفراده فى جنسه ، ونفاسته فى نفسه .

فاعلم أن فى كتاب « الإحياء »آفات لا يعلمها إلا العلماء وأقلها الأحاديث الباطلةالموضوعة والموقوفة ، وقد جعلها مرفوعة ، وإنما نقلها كما اقتراها لا أنه افتراها ، ولا ينبغى التعبد بحديث موضوع ، والاغترار بلفظ مصنوع .

وكيف أرتضى لك أن تصلى صلوات الأيام ولياليها ، و ليس فيها كلمة قالها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذى جمعه وندب إلى العمل به ما لا حاصل له من الكلام فى الفناء والبقاء ، والأمر بشدة الجوع ، والخروج إلى السياحة فى غير حاجة ، والدخول فى الفلاة بغير زاد ، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره فى كتابى المسمى « تلبيس إبليس »

وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفاسده ، ولا يخل بفوائده ، أعتمد فيه من النقول الأصح والأشهر ، ومن المعنى الأثبت والأجود ، وأحذف ما يصلح حذفه ، وأزيد ما يصلح أن يزاد .

ثم قال بعد ذلك [ابن الجوزى] : وإذ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق الحق من النفس ، والأخذ على يدها ، فليكن وكيلك عليها العلم ، وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تسل ، واحذر سبيل أحد رجلين :

عالم عرف الجدال فى الفقه واقتنع برئاسته ، أو نال القضاء فسعى فى حفظ منزلته ، أو زخرف الوعظ فضيق أعين شبكته .

أو زاهد يتقلب برأيه الفاسد فى جهالته ، ويتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته ، ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته .

فهذان عادلان من منهاج الصواب ، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب ، خادعان للمبتدئين بلامع السراب ، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذى هو جادة الاستقامة وطريق السلامة .

وسأدرج لك فى هذا الكتاب إن شاء الله من أخبارهم ما يدل على آثارهم .

وكتابنا هذا يحتاج إليه المنتهى ، كما يفتقر إليه المبتدى ، لأن فيه أسرار العبادات ، والتحذير من آفات المعاملات ، وقد جعله المصنف أربعة أرباع :

الأول : ربع العبادات .

والثانى : ربع العادات .

والثالث : ربع المهلكات .

والرابع : ربع المنجيات .

وكلّ واحدة من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على كتب ، وأبواب ، وفصول ، فمن أقسام الربع الأولى .

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١]

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

وبعد :

فإن هذا الكتاب قد جمع بين دفتيه مالا يستغنى عنه المسلم من الأحكام والفوائد والآداب وفضائل الأخلاق المستمدة من الكتاب والسنة ومن كلام العلماء المتقدمين ، فمن أُريد به الخير وُفِّق لقراءة هذا الكتاب والعمل بما فيه .

وقد يسر الله ـ تعالى ـ لى خدمة هذا الكتاب بتحقيق نصوصه وتصويب ما اعتراه من تصحيف أو تحريف ، كما قمت بتخريج الآيات والأحاديث الشريفة ، وصدرت التخريج بالحكم على الحديث بالصحة أو الحسن أو الضعف ، وقد أسهم

معى فى هذا التخريج بنصيب الشيخ أبو عبد الرحمن عوض الجزار فجزاه الله ـ تعالى ـ خيراً ، وأسأل الله أن يوفقنى دائماً إلى خدمة هذا العلم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حققه

صلاح محمد محمد عويضة

الربع الأول من الكتاب

ربع العبادات

كتاب
العلم وفضله وما يتعلق به

كتاب العلم وفضله وما تعلق به

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[الزمر : ٩]

وقال تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾[المجادلة : ١١]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨]

وفى « الصحيحين » من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » [١].

وعن أبى أمامه رضى الله عنه قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما : عابد والآخر : عالم ، فقال رسول الله ﷺ: « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته ، وأهل السموات والأرض ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير »رواه الترمذى [٢]وقال حديث حسن صحيح .

وفى حديث آخر : « فضل العالم على العابد كفضل ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ،

---

(١) البخارى فى العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين : حديث [٧١]. ومسلم فى الزكاة ، باب النهى عن المسألة : حديث [١٠٣٧] والترمذى فى : العلم : باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين : حديث [٢٦٤٥] ، وابن ماجه فى : المقدمة : باب فضل العلماء : حديث [٢٢٠ ، ٢٢١] ، والدارمى فى المقدمة : باب الاقتداء بالعلماء : حديث [٢٢٦] ، و أحمد فى « مسنده » ١ / ٣٠٦ و ٢ / ٢٣٤ .

(٢) [صحيح]الترمذى فى : العلم ، باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة : حديث [٢٦٨٥]. وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٤٢١٣] .

وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » [١] .

وعن صفوان بن عسال رضى الله عنه ، أن النبىﷺ قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » رواه الإمام أحمد ، وابن ماجة [٢] .

قال الخطابى : فى معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بسط الأجنحة .

الثانى : أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم .

الثالث : أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » رواه مسلم [٣] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام ، كان بينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة » [٤] وفيه أخبار كثيرة .

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه فى « الصحيحين » عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، أن رسول الله قال لعلى رضى الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » [٥] .

---

(١) [حسن] أبو داود رقم (٣٦٤١) فى العلم الترمذى فى : العلم ، باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة : حديث [٢٦٨٢] . وابن ماجه فى : المقدمة ، باب فضل العلماء : حديث [٢٢٣] وأحمد فى المسند (٥ / ١٩٦) وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٤٢١٢] .

(٢) [صحيح] رواه أحمد فى المسند (٤ / ٢٤٠) ، والترمذى (٣٥٣٥) فى الدعوات وابن ماجة (٢٢٦) فى المقدمة ، باب فضل العلماء ، وابن حبان (٧٩موارد) وهو فى صحيح الجامع (١٩٥٦) .

(٣) مسلم فى : الذكر والدعاء : باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن : حديث[٢٦٩٩] .

(٤) الدارمى عن الحسن مرسلاً فى : المقدمة٣٢ـ باب فى فضل العلم والعالم : حديث [٣٥٤] . وأورده العجلونى فى «كشف الخفاء »٢/ ٣١٨ : حديث [٢٤٥٠] عن الحسن مرسلاًأيضاً والهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٢٣) وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن الجعد وهو متروك

(٥) البخارى فى : الجهاد والسير : باب دعاء النبى الناس إلي الإسلام : حديث [٢٩٤٢] . ومسلم فى : كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي : حديث [٢٤٠٦] وأبو داود رقم [٣٦٦١] .

وقال ابن عباس : « إن الذى يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى الحوت فى البحر »وروى نحو ذلك فى حديث مرفوع إلى النبى ﷺ (١).

فإن قيلُ : ما وجه استغفار الحوت للمعلم ؟

فالجوابُ : أن نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت ، فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل ويحرم ، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء حتى إلى المذبوح والحوت ، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاء لحسن صنيعهم .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به فعَلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »أخرجاَه فى « الصحيحين » (٢).

فانظر رحمك الله إلى هذا الحديث ، ما أوقعه على الخلق ، فإن الفقهاء أولى الفهم ، كمثل البقاع التى قبلت الماء فأنبتت الكلأ ، لأنهم علموا وفهموا ، وفرَّعوا وعلَّموا ، وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم ، أنهم كمثل الأجادب التى حفظت الماء فانتفع بما عندهم ، أما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا ، فهم العوام الجهلة .

وقال الحسن رحمه الله :لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم .

وقال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه :تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ،

(١) وقد سبق تخريجه .

(٢) البخارى فى :العلم فضل من عَلم وعلّم : حديث [٧٩]. ومسلم فى : الفضائل : باب بيان مثل ما بعث النبى من الهدى والعلم : حدَيث [٢٢٨٢]، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ٣٩٩ .

وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة .

وقال كعب رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن تعلم يا موسى الخير وعلمه للناس ، فإنى منور لمعلم الخير ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا بمكانهم .

فصل طلب العلم فريضة

قد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[1] رواه أحمد فى « العلل » .

قال المصنف رحمه الله تعالى : اختلف الناس فى ذلك .

فقال الفقهاء : هو علم الفقه ، إذ به يعرف الحلال والحرام .

وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها .

وقالت الصوفية : هو علم الإخلاص وآفات النفوس .

وقال المتكلمون : هو علم الكلام . . . . . إلى غير ذلك من الأقوال التى ليس فيها قول مرضى ، والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه .

والمعاملة التى كلفها على ثلاثة أقسام : اعتقاد ، وفعل ، وترك .

فإذا بلغ الصبى ، فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل فرض الوقت ، ثم يجب عليه النظر والاستدلال .

---

(١)[حسن] ابن ماجه فى ، المقدمة ، باب فى فضل العلماء : حديث [٢٢٤] ، والطبرانى فى «الكبير» رقم [١٠٤٣٩] ، والعلل المتناهية رقم [٥٧] ، والخطيب فى «تاريخ بغداد» ١٠ / ٣٧٥ ، وحسنه المزى والسيوطى ، والألبانى فى «صحيح الجامع » رقم [٣٩١٣] .

فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة ، فإذ عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم ، فإن كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة ، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك .

وأما **التروك** : فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال ، إذاً لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه ، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، فإن كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير ، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك .

وأما **الاعتقادات** : فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة ، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك، وإن كان فى بلد قد كثرت فيه البدع ، وجب عليه أن يتلقن الحق ، كما لو كان تاجراً فى بلد شاع فيه الربا ، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه .

وينبغى أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار .

فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذى هو فرض عين : ما يتعين وجوبه على الشخص .

فأما فرض الكفاية : فهو كل علم لا يستغنى فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان على الصحة ، والحساب فإنه ضرورى فى قسمة المواريث والوصايا وغيرها .

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرِجَ [1] أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين .

ولا يُتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفاية ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية ، كالفلاحة والحياكة ، بل الحجامة فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليهم ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد

(١) أى أثموا .

إلى استعماله .

وأما التعمق فى دقائق الحساب ، ودقائق الطلب وغير ذلك ، فهذا يعد فضلة ، لأنه يستغنى عنه .

وقد يكون بعض العلوم مباحاً . كالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار .

وقد يكون بعضها مذموماً ، كعلم السحر ، والطلسمات ، والتلبيسات .

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة ، وتنقسم إلى أصول ، وفروع ، ومقدمات ومتممات .

فالأصول : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة .

والفروع : ما فهم من هذه الأصول من معان تنبهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره ، كما فهم من قوله : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » [1] أنه لا يقضى جائعاً .

والمقدمات : هى التى تجرى مجرى الآلات ، كعلم النحو واللغة ، فإنهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسولهص .

والمتممات : كعلم القراءات ، ومخارج الحروف ، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم ، فهذه هى العلوم الشرعية ، وكلها محمودة .

---

(١) البخارى فى : الأحكام ، باب هل يقضي الحاكم أو يفتى وهو غضبان؟حديث [٧١٥٨]. ومسلم فى : الأقضية : ،باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان: حديث [١٧١٧] وأبو داود فى : الأقضية : باب القاضى يقضى وهو غضبان : حديث [٣٥٨٩] والترمذى فى : الأحكام : باب ما جاء لا يقضى القاضى وهو غضبان : حديث [١٣٣٤] ، والنسائى فى : آداب القضاة : باب النهى عن أن يقضى فى قضاء بقضائين : حديث [١] ، وابن ماجه فى : الأحكام : باب لا يحكم الحاكم وهو غضبان : حديث [٢٣١٦] ، وأحمد فى « مسنده »٥ / ٣٦ـ٣٨ و ٤٦ ، ٥٢ .

فصل فى علم المعاملة

فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب ، الخوف ، والرجاء ، والرضى الصدق ، والإخلاص ، وغير ذلك ، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم كسفيان « الثورى » وأبى حنيفة ومالك ، والشافعى ، وأحمد .

وإنما انحطت رتبة المسلمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات ، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه .

وأنت تجد الفقيه يتكلم فى الظهار ، واللعان ، والسبق ، والرمى ، ويفرع التفريعات التى تمضى الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها ، ولا يتكلم فى الإخلاص ، ولا يحذر من الرياء ، وهذا عليه فرض عين ، لأن فى إهماله هلاكه ، والأول فرض كفاية ، ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس فى الإخلاص والرياء لم يمكن له الجواب ، ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمى لقال : هذا فرض كفاية ، ولقد صدق ، ولكن خفى عليه أن الحساب فرض كفاية أيضاً ، فهلا تشاغل به ، وإنما تبهرج عليه النفس ، لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة ، لا بالحساب .

واعلم : أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت ، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح .

فمن ذلك :

اللفظ الأول : الفقه ، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص ، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها ، ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول منطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع ، إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب .

ولذلك قال الحسن (البصرى) رحمه الله : إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ،

الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لهم [١].

فكان إطلاقهم اسم الفقه على علم الآخرة أكثر ، لأنه لم يكن متناولاً للفتاوى ، ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول ، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة ، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة .

اللفظ الثانى : العلم ، فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته ، أى نعمه وأفعاله فى عباده ، فخصوه وسموا فى الغالب المناظر فى مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار .

اللفظ الثالث : التوحيد ، وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط ، فيثمر ذلك التوكل والرضى وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام فى الأصول ، وذلك من المنكرات عند السلف .

اللفظ الرابع : التذكير والذكر ، قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥]

وقال النبى ﷺ: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر » [٢] فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوى عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات .

ومن تشاغل فى وعظه بذكر قصص الأولين ، فليعلم أن أكثر ما يحكى فى ذلك لا يثبت ، كما ينقلون أن يوسف عليه السلام حل تكته ، وأنه رأى يعقوب عاضاً

---

(١) رواه الآجرى فى « أخلاق العلماء » ص [٥٠ ـ ٥١] .

(٢) [ضعيف]الترمذى في : الدعوات : باب حدثنا يوسف : حديث [٣٥٠٩و٣٥١٠]وأحمد فى «مسنده»٣/ , ١٥٠ وهو فى «ضعيف الجامع »رقم [٦٩٩] .

على يده ، وأن داود جهز أوريا حتى قُتل ، فمثل هذا يضر سماعه .

وأما الشطح والطامات : فمن أشد ما يؤذى العوام ، لأنها تشتمل على ذكر المحبة والوصال وألم الفراق ، عامة الحاضرين أجلاف ، بواطنهم محشوة بالشهوات وحب الصور ، فلا يحرك ذلك من قلوبهم إلا ما هو مستكن فى نفوسهم ، فيشتعل فيها نار الشهوة ، فيصيحون ، وكل ذلك فساد .

وربما احتوى الشطح على الدعاوى العريضة فى محبة الله تعالى ، وفى هذا ضرر عظيم ، وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى .

اللفظ الخامس : الحكمة ، والحكمة : العلم والعمل به .

قال ابن قتيبة رحمه الله : لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل . وقد صار هذا الاسم يطلق فى هذا الزمان على الطبيب والمنجم .

فصل «فى العلوم المحمودة»

واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين :

الأول : محمود إلى أقصى غاياته ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل ، وهو العلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته ، والتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وهو البحر الذى لا يدرك غوره وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم .

القسم الثانى : العلوم التى لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص ، وهى التى ذكرناها من فروض الكفايات ، فإن فى كل منها افتقاراً واستقصاء .

فكن أحد رجلين : إما مشغولاً بنفسك ، وإما لغيرك بعد الفراغ من نفسك .

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، واشتغل بإصلاح باطنك

وتطهيره من الصفات الذميمة ، كالحرص ، والحسد ، والرياء قبل إصلاح ظاهرك، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى فى ربع المهلكات .

فإن لم تتفرغ من ذلك تشتغل بفروض الكفايات ، فإن فى الخلق كثيراً يقومون بذلك ، فإن مهلك نفسه فى طلب صلاح غيره سفيه ، ومثله مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره .

فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ، وما أبعد ذلك ، فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج فى ذلك .

فابتدأ بكتاب الله عز وجل ، ثم بسنة رسولهﷺ، ثم بعلوم القرآن : من التفسير ، ومن ناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه إلى غير ذلك . . .

وكذلك فى السنة ، ثم اشتغل بالفروع ، وأصول الفقه وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت .

ولا تستغرق عمرك فى فن واحد منها طلباً للاستقصاء ، فإن العلم كثير ، والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها ، وكل شىء يطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب .

فصل « فى عالم لم ينفعه علمه»

واعلم : أن المناظرة الموضوعة لقصد المغالبة والمباهاة منبع الأخلاق المذمومة، ولا يسلم صاحبها من كبر ، لاحتقار القصرين عنه ، وعجب بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه ، ولا يسلم من الرياء ، لأن جمهور مقود المناظر اليوم علم الناس بغلبته ، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه ، فهو يذهب عمره فى العلوم التى تعين على المناظرة مما لا ينفع فى الآخرة ، كحسن اللفظ ، وحفظ النوادر .

وقد روى فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه » (١) .

(١) [ضعيف جداً] الطبرانى فى «الصغير» ١/ ١٨٣ ، وهو فى «ضعيف الجامع» رقم [٨٦٨] .

باب فى آداب المعلم والمتعلم
وآفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

أما المتعلم فينبغى له تقيم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات، إذ العلم عبادة القلب .

وينبغى له قطع العلائق الشاغلة ، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق .

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شىء ، فروى عن الإمام أحمد رحمه الله أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين .

وأهديت إلى أبى بكر الأنبارى جارية ، فلما دخلت عليه تفكر فى استخراج مسألة فعزبت عنه ، فقال أخرجوها إلى النخاس[١] ، فقالت : هل من ذنب ؟ قال : لا ، إلا أن قلبى اشتغل بك ، وما قدر مثلك أن يمنعنى علمى .

وعلى المتعلم أن يلقى زمامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبيب ، فيتواضع له ، ويبالغ فى خدمته .

وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يأخذ بركات زيد بن ثابت رضى الله عنه ويقول هكذ أمرنا أن نفعل بالعلماء .

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم فهو جاهل ، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها [٢] ، وليدع رأيه لرأى معلمه ، فإن خطأ المعلم أنفع

---

(١) هو بائع الدواب والرقيق.

(٢) [ضعيف جداً] رواه الترمذى رقم [٢٦٨٧] فى العلم ، وابن ماجة [٤١٦٩] وابن الجوزى فى العلل [١١٤] وفى اسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى ضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم الرازى والترمذى وقال النسائى : منكر الحديث ، وقال يحيى بن معين : ليس حديثه بشىء وهو فى ضعيف الجامع [٤٣٠٢] ، لكن عمل بمعناه كبار أهل العلم ، فعند البيهقى فى « المدخل » عن عكرمة بلفظ « خذ الحكمة ممن سمعت ، فإن الرجل يتكلم بالحكمة وليس بحكيم ، فيكون كالرمية خرجت من غير رامٍ » =

للمتعلم من صواب نفسه .

قال على رضى الله عنه : إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة ، وتخصه بالتحية ، وأن تجلس أمامه ، ولا تشير عنده بيدك ، ولا تغمزن بعينيك ، ولا تكثر عليه السؤال ، ولا تعنيه فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تراجعه إذا امتنع ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، ولا تقولن له : سمعت فلاناً يقول كذا ، ولا إن فلاناً يقول خلافك ، ولا تصفن عنده عالماً ، ولا تعرض من طول صحبته ، ولا ترفع نفسك عن خدمته ، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها ، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شىء (١) .

وينبغى أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس ، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه .

وينبغى له أن يأخذ من كل شىء أحسنه ، لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم ، ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم ، وهو العلم المتعلق بالآخرة ، الذى به يكتسب اليقين الذى حصله أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حتى شهد له رسول الله ﷺ فقال : « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشىء وقر فى صدره » (٢) فهذه وظائف المتعلم .

= وروى العسكرى عن مبارك بن فضالة قال : خطب الحجاج فقال : إن الله أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤنة الدنيا ، فليته كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، قال الحسن : « ضالة المؤمن عند فاسق فليأخذها » .

وقال يوسف بن أسباط : كنت مع سفيان الثورى وحازم بن خزيمة يخطب فقال : إن يوماً أسكر الكبار ، وأشاب الصغار ليوم عسير ، شره مستطير ، فقال سفيان : حكمة من جوف خرب . ثم أخرج سريحة ـ يعنى : ألواحاً ـ فكتبها « كشف الخفاء » ١ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

(١) رواه ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » ١ / ١٢٩ .

(٢)[موضوع] أورده القارى فى «الأسرار المرفوعة »رقم[٤٧٦] وقال ابن القيم فى « المنار المنيف » ﷺ ١١٥ : وهذا من كلام أبى بكر بن عياش .

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً :

من ذلك الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه ، ولا يطلب على إفاضة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين ، بل يرى الفضل لهم إذ هيأوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها ، فهم كالذى يعير الأرض لمن يزرع فيها .

فلا ينبغى أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى ، وكان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم .

ومنها أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً ، وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن ، لا على وجه التوبيخ ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة .

ومنها : أن ينظر فى فهم المتعلم ومقدار عقله ، فلا يلقى إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله .

فقد روى عن النبىﷺ أنه قال : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم »[1] .

وقال على رضى الله عنه : إن ههنا علماً لو أصبت له حملته .

وقال الشافعى رحمه الله[2] :

---

(١)[ضعيف جداً] أورده السخاوى فى «المقاصد الحسنة »ص [٩٣] ، وقال : «عزاه شيخنا ــ يعنى ابن حجر ــ لمسند الحسن بن سفيان من حديث ابن عباس ، وسنده ضعيف جداً .

وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قوله : « ما أنت بمحدث قوماً حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، وفى البخارى معلقا عن على : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله .

(٢) ديوان الإمام الشافعى ص ١٢٤ وانظر الحلية [٩ / ١٥٣]

أأنثر دّراً بين سارحة النعم ... أأنظم منثوراً لراعية الغنم

ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن المستوجبين فقد ظلم

ومنها : أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، ولا يكذب قوله فعله : قال الله تعالى : ﴿ أتأمرون النَّاس بالْبِرِّ وتنسوْنَ أنفُسكُمْ وأنتُمْ تتلُونَ الْكتَابَ ﴾[البقرة : ٤٤]

وقال على رضى الله عنه : قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك .

فصل فى آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

علماء السوء : هم ، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا ، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عزوجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة » (١) يعنى ريحها .

وفى حديث آخر أنه قال : « من تعلم العلم ليباهى به العلماء ، أو يمارى به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، فهو فى النار » رواه الترمذى (٢) وفى ذلك أحاديث كثيرة .

وقال بعض السلف : أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط .

واعلم : أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهى ، وليس عليه أن

---

(١) [صحيح] أبو داود فى : العلم : باب فى طلب العلم لغير الله : حديث [٣٦٦٤] ، وابن ماجه فى : المقدمة : باب الانتفاع بالعلم : حديث [٢٥٢] ، وأحمد فى «مسنده» ٢/ ٣٣٨ والحاكم ١ / ٨٥ ، وابن أبى شيبة ٨ / ٥٤٣ ، وهو فى «صحيح الجامع» رقم [٦١٥٩].

(٢) [صحيح] الترمذى في : العلم : باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا : حديث [٢٦٥٤]، وابن ماجة [٢٥٢] فى المقدمة ، والدارمى فى المقدمة : باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله : حديث [٣٧٤] مرسلاً ، وابن حبان [٨٩ موارد] ، وأحمد فى المسند [٢ / ٣٣٨] وهو فى «صحيح الجامع» رقم [٦١٥٨].

يكون زاهداً ولامعرضاً عن المباحات ، إلا أنه ينبغى له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع ، لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل ، فإن الناس يتفاوتون .

وروى أن سفيان الثورى رحمه الله كان حسن المطعم ، وكان يقول : إن الدابة إذا لم يحسن إليها فى العلف لم تعمل .

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم ، والطباع تتفاوت .

ومن صفات علماء الآخرة : أن يعلموا أن الدنيا حقيرة ، وأن الآخرة شريفة ، وأنهما كالضرتين ، فهم يؤثرون الآخرة ، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم ، ويكون ميلهم إلى العلم النافع فى الآخرة ، ويجتنبون العلوم التى يقل نفعها إيثاراً لما يعظم نفعه ، كما روى عن شقيق البلخى رحمه الله أنه قال لحاتم : قد صحبتنى مدة ، فماذا تعلمت ؟ قال : ثمانية مسائل :

أما الأولى : فإنى نظرت إلى الخلق ، فإذا كل شخص له محبوب ، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه ، فجعلت محبوبى حسناتى لتكون فى القبر معى .

وأما الثانية : فإنى نظرت إلى قول الله تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] فأجهدتها فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى

وأما الثالثة : فإنى رأيت كل من معه شىء له قيمة عنده يحفظه ، ثم نظرت فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] . كلما وقع معى شىء له قيمة ، وجهته إليه ليبقى لى عنده .

وأما الرابعة : فإنى رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف ، وليست بشىء فنظرت فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] فعملت فى التقوى لأكون عنده كريما .

و الخامسة : فإنى رأيت الناس يتحاسدون ، فنظرت فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ

قسمْنا بيْنهُم مَّعيشتَهُمْ ﴾ [الزخرف : ٣٢] فتركت الحسد .

والسادسة : رأيتهم يتعادون ، فنظرت فى قوله تعالى : ﴿ إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخذُوهُ ﴾ [فاطر : ٦] فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدوا .

والسابعة : رأيتهم يذلون أنفسهم فى طلب الرزق ، فنظرت فى قوله تعالى : ﴿ وما من دَابَّة في الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللَّه رزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] فاشتغلت بما له على وتركت ما لى عنده .

والثامنة : رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم ، فتوكلت على الله تعالى .

ومن صفات علماء الآخرة : أن يكونوا منقبضين عن السلاطين ، محترزين من مخالطتهم .

قال حذيفة رضى الله عنه : إياكم ومواقف الفتن ، قيل : وما هى ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه .

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء ، فاحذروا منه فإنه لص .

وقال بعض السلف : إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه .

ومن صفات علماء الآخرة : أن لا يتسرعوا إلى الفتوى ، وأن لا يفتوا إلا بما يتيقنون صحته .

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول .

وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى رحمه الله : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما أحد يسأل عن الحديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك . ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدّعون العلم اليوم ، يقدمون على

الجواب فى مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لجمع أهل بدر واستشارهم .

ومن صفاتهم : أن يكون أكثر بحثهم فى علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوساوس ، فإن صور الأعمال قريبة سهلة ، وإنما التعب فى تصفيتها .

وأصل الدين : التوقى من الشر ، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف .

ومن صفاتهم : البحث عن أسرار الأعمال الشرعية ، والملاحظة لحكمها ، فإن عجز عن الإطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع .

ومن صفاتهم : اتباع الصحابة وخيار التابعين ، وتوقى كل محدث .

كتاب الطهارة وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها

اعلم : أن الطهارة لها أربع مراتب :

الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات .

والثانية : تطهير الجوارح من الذنوب والآثام .

والثالثة : تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهذا هو الغاية القصوى .

فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب ، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى ، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف فى المبالغة فى الاستنجاء وغسل الثياب ، ظناً منه بحكم الوسوسة وقلة العلم أن الطهارة المطلوبة هى هذه فقط ، وجهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان فى تطهير القلوب ويتساهلون فى أمر الظاهر ، كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه توضأ من جرة نصرانية ، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزهم ويصلون على الأرض ، ويمشون حفاة ، ويقتصرون فى الاستجمار على الأحجار .

وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة نظافة ، فترى أكثر زمانهم يمضى فى تزيين الظواهر ، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر ، والعجب ، والجهل ، والرياء ، والنفاق . ولو رأوا مقتصراً فى الاستجمار على الحجر ، أو حافياً يمشى على الأرض ، أو يصلى عليها من غير حائل ، أو متوضئاً من آنية عجوز ، لأنكروا عليه أشد الإنكار ، ولقبوه بالقذر ، واستنكفوا من مؤاكلته .

فانظر كيف جعلوا البذاذة التى هى من الإيمان قذارة ، والرعونة نظافة ، وصيروا المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً . لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف فى الماء ، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين ، فليس ذلك

بمنكر ، بل هو فعل حسن . وليرجع فى معرفة الأجناس والأحداث إلى كتب الفقه ، فإن المقصود من هذا الكتاب الآداب .

وأما إزالة الفضلات فهى نوعان :

النوع الأول : أوساخ تزال ، كالذى يجتمع فى الرأس من الوسخ والدرن ، فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل والتدهين لإزالة الشعث ، وكذلك ما يجتمع فى الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته .

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القلح ، وكذلك وسخ البراجم والدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الغسل .

ولا بأس بدخول الحمام ، فإنه أبلغ فى الإزالة ، وقد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغير إليها ولمسه إياها ، وينبغى للداخل إليه أن يتذكر بحرارته حر النار ، فإن فكره المؤمن لا تزال تجول فى كل شىء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة ، لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه ، ألا ترى أنه لو دخل إلى دار ـ معمورة ـ بزاز ، ونجار ، وبناء ، وحائك ، رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها ، والحائك ينظر إلى نسج الثياب ، والنجار ينظر إلى سقف الدار ، والبناء ينظر إلى الحائط ، فكذلك المؤمن إن رأى ظلمة ذكر القبر ، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وإن رأى نعيماً تذكر نعيم الجنة ، وإن رأى عذاباً ذكر النار .

ويكره دخول الحمام قريباً من الغروب وبين العشاءين ، فإنه وقت انتشار الشياطين .

النوع الثانى من إزالة الفضلات : أجزاء تحذف ، مثل قص الشارب ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وقص الأظافر ، ويكره نتف الشيب ويستحب خضابه .

وباقى مراتب الطهارة يأتى فى ربع المهلكات والمنجيات إن شاء الله تعالى .

فصل فى فضائل الصلاة

وأما الصلاة فإنها عماد الدين وغرة الطاعات . وقد ورد فى فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة ، ومن أحسن آدابها الخشوع .

وقد روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة ، وذلك الدهر كله » (١) .

وله فى حديث أيضاً عن النبى ﷺ أنه قال : « من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » (٢) .

وكان عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما إذا قام فى الصلاة كأنه عود من الخشوع ، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط ، وصلى يوماً فى الحِجر فجاء حَجر قذافة فذهب ببعض ثوبه فما انفتل .

وقال ميمون بن مهران : ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً فى صلاة قط ، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها ، وإنه لفى المسجد يصلى فما التفت ، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا ، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا .

وكان على بن الحسن رضى الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه ، فقيل له : ماهذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فقال : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

واعلم : أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً ، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب ، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال ، ومع

---

(١) مسلم فى الطهارة ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه : حديث [٢٢٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٥ / ٢٦٠ .

(٢) البخارى فى : الوضوء ، باب الوضوء ثلاثاًثلاثاً : حديث [١٥٩] . ومسلم فى : الطهارة ، باب صفة الوضوء وكماله : حديث [٢٢٦] وأبو داود [١٠٦ ، ١٠٧] والنسائى [١ / ٦٤]

عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة ، لأن النطق إذا لم يعرب عما فى الضمير كان بمنزلة الهذيان ، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال ، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة ، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم ، ولم يكن القلب حاضراً لم يحصل المقصود ، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقى صورة لا اعتبار بها ، قال الله تعالى :

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه تعالى هو الوصف الذى استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة ، فلابد من حضور القلب فى الصلاة ، ولكن سامح الشارع فى غفلة تطرأ ، لأن حضور القلب فى أولها ينسب حكمه على باقيها .

والمعانى التى تتم بها حياة الصلاة كثيرة :

المعنى الأول : حضور القلب كما ذكرنا ، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له ، وسبب ذلك الهمة ، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة ، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة ، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا ، فمتى رأيت قلبك لا يحضر فى الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان ، فاجتهد فى تقويته .

والمعنى الثانى : التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب ، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى ، فينبغى صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها ، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها .

والمواد ، إما ظاهرة ، وهى ما يشغل السمع والبصر ، وإما باطنة وهى أشد ، كمن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا ، فإنه لا ينحصر فكره فى فن واحد ، ولم يغنه غض البصر ، لأن ما وقع فى القلب كاف فى الاشتغال به .

وعلاج ذلك إن كان من المواد الظاهرة ، بقطع ما يشغل السمع والبصر ، وهو القرب من القبلة ، والنظر إلى موضع سجوده ، والاحتراز فى الصلاة من المواضع المنقوشة ، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه ، فإن النبى ﷺ لما صلى فى إنبجانية لها أعلام نزعها وقال : « إنها ألهتنى آنفاً عن صلاتى » [1] .

وإن كان من المواد الباطنة ، فطريق علاجه أن يرد النفس قهراً إلى ما يقرأ فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويستعد لذلك قبل الدخول فى الصلاة ، بأن يقضى أشغاله ، ويجتهد فى تفريغ قلبه ، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة وخطر القيام بين يدى الله عزوجل وهول المطلع ، فإن لم تسكن الأفكار بذلك ، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه ، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق .

واعلم : أن العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوى ، والعلة إذا قويت جاذبت المصلى وجاذبها إلى أن تنقضى الصلاة فى المجاذبة ، ومثل ذلك كمثل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه وفى يده خشبة يطيرها بها ، فما يستقر فكره حتى تعود العصافير فيشتغل بها ، فقيل له : هذا شىء لا ينقطع ، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة ، فكذلك شجرة الشهوة إذا علت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كانجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقذار ، فذهب العمر النفيس فى دفع ما لايندفع ، وسبب هذه الشهوة التى توجب هذه الأفكار حب الدنيا .

قيل لعامر بن عبد قيس رحمه الله : هل تحدثك نفسك بشىء من أمور الدنيا فى الصلاة ؟ فقال : لأن تختلف الأسنَّة فىَّ أحب إلىَّ من أن أجد هذا .

واعلم : أن قطع حب الدنيا من القلب أمر صعب ، وزواله بالكلية عزيز ،

---

(١) البخارى فى : الصلاة ، باب إذا صلي في ثوب له أعلام : حديث [٣٧٣] . ومسلم فى : المساجد ، باب كراهة الصلاة فى ثوب له أعلام : حديث [٥٥٦/٦٢]، ومالك فى الموطأ [١ / ٩٧] وأبو داود [٩١٤ ، ٤٠٥٢] والنسائى [٢ / ٧٢] ، وأحمد فى « مسنده » ٦ / ١٩٩ .

فليقع الاجتهاد فى الممكن منه ، والله الموفق المعين .

المعنى الثالث : التعظيم لله والهيبة ، وذلك يتولد من شيئين : معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستبعدة ، فيتولد من المعرفتين : الاستكانة، والخشوع .

ومن ذلك الرجاء : فإنه زائد على الخوف ، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره .

والمصلى ينبغى أن يكون راجياً بصلاته الثواب ، كما يخاف من تقصيره العقاب .

وينبغى للمصلى أن يحضر قلبه عند كل شىء من الصلاة ، فإذا سمع نداء المؤذن فليتمثل النداء للقيامة ويشمر للإجابة ، ولينظر ماذا يجيب ، وبأى بدن يحضر وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق ، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التى لا يطلع عليها إلا الخالق ، وليس لها عنه ساتر ، وأنها يكفرها الندم ، والحياء ، والخوف .

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك ، فكما أنه لا يتوجه إلى جهه البيت إلا بالانصراف عن غيرها ، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه .

إذا كبرت أيها المصلى ، فلا يكذبنَّ قلبك لسانك ، لأنه إذا كان فى قلبك شىء أكبر من الله تعالى فقد كذبت ، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى .

فإذا استعذت ، فاعلم أن الاستعاذة هى لجوء إلى الله سبحانه ، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً ، وتفهَّم معنى ما تتلو ، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ واستحضر لطفه عند قولك : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وعظمته عند قولك : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وكذلك فى جميع ما تتلو .

وقد روينا عن زرارة بن أبى أوفى رضى الله عنه أنه قرأ فى صلاته :﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ [المدثر : ٨]. فخر ميتاً ، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف

واستشعر فى ركوعك التواضع ، وفى سجودك زيادة الذل ، لأنك وضعت النفس موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذى خُلقت منه وتفهم معنى الأذكار بالذوق .

واعلم : أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ ، وحصول الأنوار فيه التى بها تتلمح عظمة المعبود ، وتطلع على أسراره ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها ، فإنه لا يطلع على شىء من ذلك بل ينكر وجوده .

فصل فى آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة

وهى نحو من خمسة عشر :

أحدها : أن يستعد لها من يوم الخميس وفى ليلة الجمعة ، بالتنظيف ، وغسل الثياب ، وإعداد ما يصلح لها .

الثانى : الاغتسال فى يومها ، كما جاء فى الأحاديث فى « الصحيحين » وغيرهما[1] ، والأفضل فى الاغتسال أن يكون قبيل الرواح إليها .

---

(١) البخاري فى : الجمعة : باب الطيب للجمعة : حديث [٨٨٠]، ومسلم فى : الجمعة ، باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال : حديث [٨٤٦]، وأبو داود فى كتاب الطهارة، باب فى الغسل يوم الجمعة : حديث [٣٤٤] والترمذى فى أبواب الجمعة : باب ما جاء فى الاغتسال =

الثالث : التزين بتنظيف البدن ، وقص الأظافر ، والسواك ، وغير ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات ، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه .

الرابع : التبكير إليها ماشياً .

وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكون وخشوع ، وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه .

الخامس : أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يفرق بين اثنين إلا أن يرى فرجة فيتخطى إليها .

السادس : أن لا يمر بين يدي المصلي .

السابع : أن يطلب الصف الأول ، إلا أن يرى منكراً أو يسمعه فيكون له في التأخر عذراً .

الثامن : أن يقطع النفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام ، ويشتغل بإجابة المؤذن ، ثم بسماع الخطبة .

التاسع : أن يصلي السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين ، وإن شاء أربعاً ، وإن شاء ستاً .

العاشر : أن يقيم في المسجد حتى يصلي العصر ، وإن أقام إلى المغرب فهو أفضل .

الحادي عشر : أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر .

= يوم الجمعة : حديث [٤٩٢] ، والنسائي في : الجمعة : باب الأمر بالغسل يوم الجمعة : حديث [١٣٦٧] وباب ايجاب الغسل يوم الجمعة : حديث [١٣٦٨ و ١٣٦٩] ، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة : باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة : حديث [١٠٨٧ و ١٠٨٨ ، ١٠٨٩] ، والدارمي في : الصلاة : باب الغسل يوم الجمعة : حديث [١٥٣٦ : ١٥٤٠] وأحمد في «مسنده» ٣/ ٣٠ .

واختُلف فى هذه الساعة ، ففى أفراد مسلم حديث أبى موسى رضى الله عنه : أنها ما بين **أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة** (١) ، وفى حديث آخر : هى ما بين **فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضى الصلاة** (٢) ، وفى حديث جابر رضى الله عنه : **أنها آخر ساعة بعد العصر** (٣) ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : **التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس** (٤) .

وقال أبو بكر الأثرم رحمه الله : لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين : إما أن يكون بعضها أصح من بعض ، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل فى الأوقات كتنقل ليلة القدر فى ليالى العشر .

الثانى عشر : أن يكثر منّ الصلاة على النبى ﷺ فى هذا اليوم ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **من صلى علىَّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة** » (٥) .

وإن أحب زاد فى الصلاة عليه الدعاء له ، كقوله : « **اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، اللهم اجز نبينا عنا ما هو أهله** » .

وليضف إلى الصلاة الاستغفار ، فإنه مستحب فى ذلك اليوم .

---

(١) [**صحيح**] مسلم فى الجمعة ، باب فى الساعة التى فى يوم الجمعة : حديث [٨٥٣] . وأبو داود فى الصلاة ، باب الإجابة آية ساعة هى فى يوم الجمعة : حديث [١٠٤٩] .

(٢) [**ضعيف**] الترمذى فى : أبواب الصلاة ، باب فى الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة وقال : حديث حسن غريب ، وفى سنده كثير بن عبد الله قال الحافظ فى التقريب : ضعيف أفرط من نسبه إلى الكذب .

(٣) [**صحيح**] أبو داود فى الصلاة ، باب الإجابة أية ساعة هى فى يوم الجمعة : حديث [١٠٤٨] والنسائى [٣/ ٩٩] والحاكم [١/ ٢٧٩] وهو فى «صحيح الجامع» رقم [٨١٩٠] .

(٤) [**حسن**] الترمذى فى الجمعة ، باب ما جاء فى الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة : حديث [٤٨٩] ، وهو فى «صحيح الجامع» رقم [١٢٣٧] .

(٥) [**موضوع**] الخطيب فى «تاريخه» ١٣/ ٤٨٩ وهو فى «السلسلة الضعيفة» رقم [٢١٥] .

الثالث عشر : أن يقرأ سورة الكهف ، فقد جاء فى حديث من رواية عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بسورة ملأ عظَمُها ما بين السماء والأرض ، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك ، ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أى الليل شاء »قالوا : بلى يا رسول الله : قال : « سورة الكهف »(١) .

وروى فى حديث آخر : « أن من قرأها فى يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى الفتنة» (٢) ويستحب أن يكثر من قراءة القرآن فى يوم الجمعة ، وأن يختم فيه أو فى ليلة الجمعة إن قدر .

الرابع عشر : أن يتصدق فى يوم الجمعة بما أمكن ، ولتكن صدقته خارج المسجد .

ويستحب أن يصلى صلاة التسبيح فى يوم الجمعة .

الخامس عشر : يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة ، ويكف عن جميع أشغال الدنيا .

فصل فى ذكر النوافل

اعلم : أن ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة أقسام :

سنن ، ومستحبات ، وتطوعات .

ونعنى بالسنة : ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه ، كالرواتب عقيب الفرائض والوتر والضحى .

---

(١) [ضعيف جداً] أورده الشجرى فى «أماليه » ١/ ١٠٦وأورده الشوكانى فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣١١ ثم قال : وهو حديث طويل موضوع وهو فى «ضعيف الجامع »رقم [٢١٦٠].

(٢) أخرجه ابن مردويه والضياء فى المختارة كما فى الدر المنثور[٤ / ٢٠٩] .

ونعنى بالمستحب : ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه ، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه .

ونعنى بالتطوعات : ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر ، لكن العبد يتطوع بفعله .

وتسمى هذه الأقسام الثلاثة : نوافل ، لأن النفل هو زيادة ، وهذه زيادة على الفرائض .

واعلم : أن أفضل تطوعات البدن : الصلاة .

وأقسام النوافل وفضائلها مشهورة مذكورة فى كتب الفقه وغيرها ، لكن نذكر منها صلاة التسبيح ، لأنها قد تخفى صفتها على بعض الناس .

فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال للعباس : « يا عماه : ألا أعطيك ، ألا أعلمك» ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ :« تصلى أربع ركعات ، تقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً ، ثم تسجد فتقولها عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ، ثم تهوى ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم ، فذلك خمس وسبعون ، وتفعل ذلك فى أربع ركعات ، إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تفعل ، ففى كل جمعة مرة ، فإن لم تفعل ، ففى كل شهر مرة ، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة »[١] .

---

(١) [صحيح] أبو داود فى الصلاة ، باب صلاة التسابيح : حديث [١٢٩٧]، والترمذى فى : الوتر ، باب ما جاء فى صلاة التسبيح : حديث [٤٨٢]. وابن ماجة فى إقامة الصلاة ، باب ما جاء فى صلاة التسبيح : حديث [١٣٨٦]. وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٧٩٥٥] .

فصل فى أوقات النهى عن الصلاة

ولا يتطوع فى أوقات النهى بصلاة لا سبب لها كصلاة التسبيح ، لأن النهى مؤكد فيها عن الصلاة ، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه ، وأما ما له سبب ، كتحية المسجد ، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها ، فعلى روايتين .

واعلم : أن النهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار .

أحدها : ترك التشبه بعباد الشمس .

الثانى : التحذير من السجود لقرن الشيطان ، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان ، فإذا ارتفعت فارقها ، فإذا استوت قارنها ، فإذا زالت الشمس فارقها ، فإذا تضيفت للغروب قارنها ، فإذا غربت فارقها .

الثالث : أن سالكى طريق الآخرة مواظبون على العبادات ، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل ، فإذا وقع المنع زاد النشاط ، لأن النفس حريصة على ما منعت منه ، فمنع الإنسان من الصلاة فى أوقات النهى ، ولم يمنع من نوع آخر من التعبد كالقراءة والتسبيح لينتقل العابد من حال إلى حال ، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود ، والله أعلم .

كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بها

الزكاة : أحد مباني الإسلام ، وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصلاة ، فقال تعالى : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [البقرة : ٤٣] .

أما أنواع الزكاة ، وأقسامها ، وأسباب وجوبها ، فظاهر مشهور فى مظانه من كتب الفقه ، وإنما نذكر ها هنا بعض الشروط والآداب .

فمن الشروط أن يخرج المنصوص عليه ، ولا يخرج القيمة فى الصحيح ، فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تلمح سدَّ الخلة فقط ، وسد الخلة ليس هو كل المقصود بل بعضه ، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام :

القسم الأول : تعبد محض ، كرمى الجمار ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهرْ عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له المعنى ، لأن ما يعقل معناه عليه يساعد الطبع ويدعو إليه ، فلا يظهر خلوص العبودية به ، بخلاف ما ذكرنا .

والقسم الثانى : عكس ذلك ، وهو ما لا يقصد منه التعبد ، بل المقصود منه حض محض ، كقضاء دين الآدميين ، ورد المغضوب ونحو ذلك ، وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل ، بل كيفما وصل الحق إلى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع ، فهذان قسمان لا تركيب فيهما .

وأما القسم الثالث : فهو الراكب ، وهو أن يقصد منه الأمران جميعاً : امتحان المكلف ، وحظ العباد ، فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار ، وحظ رد الحقوق ، فلا ينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد ، ولعل الأدق هو الأهم ، والزكاة من هذا القبيل ، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة ، وحق التعبد مقصود الشرع فى اتباع التفاصيل ، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج ، والله أعلم .

فصل في دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم :أن على مريد الآخرة فى زكاته وظائف :

الوظيفة الأولى :أن يفهم المراد من الزكاة ، وهو ثلاثة أشياء : ابتلاء مدعى محبة الله تعالى بإخراج محبوبه ، والتنزه عن صفة البخل المهلك ، وشكر نعمة المال .

الوظيفة الثانية :الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة ، وفى الإظهار إذلال للفقير أيضاً ، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالى من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية ، وأعطى غيره سراً .

الوظيفة الثالثة :أن لا يفسدها بالمن والأذى ، وذلك أن الإنسان إذا رأى محسناً إلى الفقير ، منعماً بالإعطاء ، ربما حصل منه ذلك ، ولو حقق النظر لرأى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذى هو طهرة له .

وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال ، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة ، ولا ينبغى أن يحتقر الفقير لفقره ، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه .

الوظيفة الرابعة :أن يستصغر العطية ، فإن المستعظم للفعل معجب به وقد قيل : لا يتم المعروف إلا بثلاث : بتصغيره ، وتعجيله ، وستره .

الوظيفة الخامسة :أن ينتقى من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه ، أما الحل ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأما الأجود ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وينبغى أن يلاحظ فى ذلك أمرين :

أحدهما :حق الله سبحانه وتعالى بالتعظيم له ، فإنه أحق من اختير له ، ولو أن الإنسان قدم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأوغر صدره .

والثانى : حق نفسه ، فإن الذى يقدمه هو الذى يلقاه غداً فى القيامة ، فينبغى أن يختار الأجود لنفسه .

وأما أحبه إليه ، فلقوله تعالى : ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا اشتد حبه لشىء من ماله قرَّبه لله عزوجل .

وروى : أنه نزل الجحفة وهو شاك ، فقال : إنى لأشتهى حيتاناً ، فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتاً ، فأخذته امرأته فصنعته ثم قربته إليه ، فأتى مسكين ، فقال ابن عمر رضى الله عنه : خذه ، فقال له أهله : سبحان الله ، قد عنيتنا ومعنا زاد نعطيه فقال : إن عبد الله يحبه .

وروى : أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خيثم رحمة الله عليه فقال : أطعموه سكراً ، فقالوا : نطعمه خبزاً أنفع له فقال : ويحكم أطعموه سكراً ، فإن الربيع يحب السكر .

الوظيفة السادسة : أن يطلب لصدقته من تزكو به ، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية ، ولهم صفات :

الأولى : التقوى ، فليخص بصدقته المتقين ، فإنه يرد بها همهم إلى الله تعالى .

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتخير العباد وهم سجود ، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم ، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه ، فقيل له : ما يمنعك أن ترسل بها إليهم ؟ فيقول : أكره أن يتمعَّرَ وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولى أو لقينى .

الثانية : العلم ، فإن فى إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين ، وذلك تقوية للشرعية .

الثالثة : أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده ، ولا يلتفت إلى الأسباب إلا

بقدر ما ندب إليه من شكرها ، فأما الذى عادته المدح عند العطاء ، فإنه سيذم عند المنع .

الرابعة : أن يكون صائناً لفقره ، وساتراً لحاجته ، كاتماً للشكوى ، كما قال تعالى : ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ** ﴾ [البقرة : ٢٧٣]

وهؤلاء لا يحصلون فى شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم ، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته .

الخامسة : أن يكون ذا عائلة ، أو محبوساً لمرض أو دين ، فهذا من المحصرين ، والتصدق عليه إطلاق لحصره .

السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام ، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة .

وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر ، كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع .

فصل فى آداب القابض

لابد أن يكون أخذ الزكاة من الأصناف الثمانية ، وعليه فى ذلك وظائف .

الوظيفة الأولى : أن يفهم أن الله تعالى إنما أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه ما أهمه ، ويجعل همومه هماً واحداً فى طلب رضى الله عزوجل .

الوظيفة الثانية : أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب ، « **فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله** » كما ورد فى الحديث[(١)] .

ومن تمام الشكر أن لا يحتقر العطاء وإن قل ، ولا يذمه ، ويغطى ما فيه من

(١) [صحيح] : أبوداود فى الأدب ، باب فى شكر المعروف حديث [٤٨١١] والترمذى فى البر والصلة ، باب ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك حديث [١٩٥٥] وقال : حديث حسن صحيح ، وأحمد فى المسند [٢ / ٢٥٨ ، ٢٥٩] وهو فى صحيح الجامع [٦٥٤١] .

عيب وكما أن وظيفة المعْطى الاستصغار فوظيفة المعْطى الاستعظام ، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عزوجل ، فإن من لا يرى الواسطة واسطة ، فهو جاهل ، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا .

الوظيفة الثالثة : أن ينظر فيما يعطاه ، فإن لم يكن من حل لم يأخذه أصلا ، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة ، وإن كان من شبهة تورع عنه ، إلا أن يضيق عليه الأمر ، فمن كان أكثر كسبه حراماً فأخرج الزكاة ولم يعرف لما أخرجه مالك معين كانت الفتوى فيه أن يتصدق به ، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافى .

الوظيفة الرابعة : أن يتوقى مواقع الشبه فى قدر ما يأخذ ، فيأخذ القدر المباح له ، ولا يأخذ أكثر من حاجته . فإن كان غارماً لم يزد على مقدار الدّيْن ، أو غازياً لم يأخذ إلا مقدار ما يحتاج إليه ، وإن أخذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغنى عنه ، وكل ذلك موكول إلى اجتهاده ، والورع ترك ما يريب .

واختلف العلماء فى قدر المانع من الزكاة ، والصحيح فيه أن يكون له كفاية على الدوام ، إما من تجارة ، أو صناعة ، أو أجر عقار ، أو غير ذلك ، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها ، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه .

وليكن ما يأخذه بقدر سنته ولا يزيد على ذلك ، وإنما اعتبر بالسنة ، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء .

فصل فى صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهى كثيرة مشهورة :

منها : ما روى البخارى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « **أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟** » قالوا : يا رسول

الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : « فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » (١) .

وفى « الصحيحين » من رواية أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يُرْبيهَا لصاحبها كما يُربى أحدكم فلوه (٢) حتى تكون مثل الجبل » (٣) .

وفى حديث آخر : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب ، وتقى ميتة السوء » (٤) .

وفى حديث آخر : « تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار » (٥) .

وعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يخرج أحد شيئاً من الصدقة حتى يفك عنه لحى سبعين شيطاناً » (٦) .

وروى أن راهباً تعبد فى صومعة ستين سنة ، ثم نزل يوماً ومعه رغيف ،

---

(١) البخارى فى الرقاق ، باب ما قدم من ماله فهو له حديث [٦٤٤٢] ، وأحمد فى « مسنده » ١/ ٣٨٢ والنسائى [٦ / ٢٣٧].

(٢) فَلُوّه : هو المهر الصغير . وقيل : هو الفطيم من أولاد ذوات الحافر « النهاية فى غريب الحديث » ٣/ ٤٧٤ .

(٣) البخارى فى الزكاة ، باب الصدقة من كسب طيب : حديث [١٤١٠] ، ومسلم فى : الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب : حديث [١٠١٤] ، والترمذى فى : الزكاة : باب ما جاء فى فضل الصدقة : حديث [٦٦١] ، والنسائى فى الزكاة : باب الصدقة من غلول : حديث [٢] ، وابن ماجه فى : الزكاة : باب فى فضل الصدقة : حديث [١٨٤٢] ، والدارمى فى الزكاة : باب فى فضل الصدقة : حديث [١٦٧٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٣١ ، ومالك فى : الصدقة باب الترغيب فى الصدقة : حديث [١] .

(٤) [ضعيف] الترمذى فى : الزكاة ، باب ما جاء فى فضل الصدقة : حديث [٦٦٤] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٤٨٩].

(٥) [ضعيف] مجمع الزوائد ٣/ ١٠٦ ، وعزاه إلى الطبرانى فى « الأوسط » ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٤٣٩].

(٦) [صحيح] أحمد فى مسنده » ٥/ ٣٥٠ . والحاكم ١/ ٤١٧ و ابن خزيمة [١٤٥٧] ، والبيهقى ٤ / ١٨٧ ، وهو فى صحيح الجامع » رقم [٥٨١٤].

فعرضت له امرأة فتكشفت له ، فوقع عليها ، فأدركه الموت وهو على تلك الحال ، وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات ، فجيء بعمل ستين سنة ، فوضع فى كفة وخطيئته فى كفه ، فرجحت بعمله ، حتى جيء بالرغيف فوضع فى عمله ، فرجح بخطيئته .

وفى أفراد مسلم ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما نقصت صدقة من مال » (١) .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ :

« ما بقى منها ؟ » فقالت : ما بقى إلا كتفها ، فقال : « بقى كلها إلا كتفها » (٢) .

وأما آدابها ، فنحو ما تقدم فى الزكاة .

واختلفوا : أيما أفضل للفقير ، أن يأخذ من الزكاة ، أو من الصدقة ؟ فقال قوم : من الزكاة أفضل ، وقال آخرون : من الصدقة أفضل .

وأما أفضل الصدقة فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ ، أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » . أخرجاه فى « الصحيحين » (٣) .

---

(١) مسلم فى البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع : حديث [٢٥٨٨]، والترمذى فى : الزهد : باب ما جاء مثل الدنيا : حديث [٢٣٢٥] وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٢٣٥ و ٣٨٦ ، والطبرانى فى « الكبير » رقم [١٢١٥٠] ، و« الصغير» رقم [١٤٢] .

(٢)[صحيح] الترمذى فى : صفة القيامة : باب حدثنا محمود بن بشار : حديث [٢٤٧٠] .

(٣) البخارى فى الوصايا ، باب الصدقة عند الموت : حديث [٢٧٤٨]، ومسلم فى الزكاة ، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح : حديث [١٠٣٢] ، وأبو داود فى : الوصايا : باب ما جاء فى كراهية الإضرار بالوصية : حديث [٢٨٦٥] ، والنسائى فى : الزكاة : باب أى الصدقة أفضل : حديث [١] ، وابن ماجه فى : الوصايا : باب النهى عن الإمساك فى الحياة : حديث [٢٧٠٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٣١ و ٤١٥ .

كتاب الصوم وأسراره ومهماته وما يتعلق به

اعلم : أن فى الصوم خصيصة ليست فى غيره ، وهى إضافته إلى الله عزوجل حيث يقول سبحانه : « الصوم لى وأنا أجزى به »(١) وكفى بهذه الإضافة شرفاً كما شرف البيت بإضافته إليه فى قوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾[الحج : ٢٦] .

وإنما فضل الصوم لمعنيين :

أحدهما :أنه سر وعمل باطن ، ولا يراه الخلق ولا يدخله رياء .

الثانى :أنه قهر لعدو الله ، لأن وسيلة العدو الشهوات ، وإنما الشهوات بالأكل والشرب ، وما دامت أرض الشهوات مخصبة ، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى ، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك .

وفى الصوم أخبار كثيرة تدل على فضله وهى مشهورة .

فصل فى سنن الصوم

يستحب السحور ، وتأخيره ، وتعجيل الفطر ، وأن يفطر على التمر .

ويستحب الجود فى : رمضان ، وفعل المعروف ، وكثرة الصدقة . . . اقتداءً برسول الله ﷺ .

ويستحب دراسة القرآن ، والاعتكاف فى رمضان : لا سيما فى العشر الأواخر ، وزيادة الاجتهاد فيه .

---

(١) البخارى فى اللباس ، باب ما يذكر فى المسك : حديث [٥٩٢٧] . ومسلم فى الصيام، باب فضل الصيام : حديث [١٦١/ ١١٥١] ، والترمذى فى : الصوم : باب ما جاء فى فضل الصوم : حديث [٧٦٤] ، والنسائى فى : الصيام : باب فضل الصيام : حديث [١] ، وابن ماجه فى الصيام : باب ما جاء فى فضل الصيام : حديث [١٦٣٨] ، والدارمى فى : الصوم : باب فى فضل الصيام : حديث [١٧٧٠] ومالك فى : الصيام : باب جامع فى الصيام : حديث [٥٨] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٤٤٦ و ٢ / ٢٣٢ .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ إذا دخل العشر [يعنى الأخير] شد مئزره ، وأحيا الليل ، وأيقظ أهله [(١)] .

وذكر العلماء فى معنى شد المئزر وجهين :

أحدهما : أنه الإعراض عن النساء .

الثانى : أنه كناية عن الجد والتشمير فى العمل .

قالوا : وكان سبب اجتهاده فى العشر طلب ليلة القدر .

بيان أسرار الصوم وآدابه

وللصوم ثلاث مراتب : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص .

فأما صوم العموم فهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .

وأما صوم الخصوص فهو : كف النظر واللسان ، واليد ، والرجل ، والسمع ، والبصر ، وسائر الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص فهو : صوم القلب عن الهمم الدنيئة ، والأفكار المبعدة عن الله تعالى ، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية ، وهذا الصوم له شروح تأتى فى غير هذا الموضع .

فمن آداب صوم الخصوص : غض البصر ، وحفظ اللسان عما يؤذى من كلام

---

(١) البخارى فى فضل ليلة القدر ، باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان : حديث [٢٠٢٤]، ومسلم فى الاعتكاف ، باب الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان : حديث [١١٧٤] ، وأبو داود فى : الصلاة : باب تفريع أبواب شهر رمضان : حديث [١٣٧٦] ، والنسائى فى : قيام الليل : باب الاختلاف على عائشة فى إحياء الليل : حديث [١] ، وابن ماجه فى : الصيام ، باب فى فضل العشر الأواخر من شهر رمضان : حديث [١٧٦٨] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٤١، ٦٧ ، و٦٨ و ١٤٦ .

محرم أو مكروه ، أو ما لا يفيد ، وحراسة باقى الجوارح .

وفى الحديث من رواية البخارى ، أن النبى ﷺ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » [1] .

ومن آدابه : أن لا يمتلئ من الطعام فى الليل ، بل يأكل بمقدار ، فإنه « ما لأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » [2] ، ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه فى باقيه ، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر ، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور ، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل ، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع ، ويكون تاركاً للمشتهى .

فأما صوم التطوع ، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة ، فواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة ، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان ، وكصيام يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، وتسع ذى الحجة ، والمحرم .

وبعضها يتكرر فى كل شهر ، كأوله ، وأوسطه ، وآخره ، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن ، غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض .

وبعضها يتكرر فى كل أسبوع وهو يوم الاثنين ، ويوم الخميس .

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك يجمع ثلاثة معان :

أحدها : أن النفس تعطى يوم الفطر حظها ، وتستوفى فى يوم الصوم تعبدها ، وفى ذلك جمع بين ما لها وما عليها ، وهو العدل .

---

(١) البخارى فى الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم : حديث [١٩٠٣] ، وأبو داود فى : الصوم : باب الغيبة للصائم : حديث [٢٣٦٢] ، والترمذى فى : الصوم : ١٦ ـ باب ما جاء فى : التشديد فى الغيبة للصائم : حديث [٧٠٧] ، وابن ماجه فى : الصيام : باب ما جاء فى الغيبة والرفث للصائم : حديث [١٦٨٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٤٥٢ و ٥٠٥ .

(٢) الترمذى فى الزهد ، باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل حديث [٢٣٨٠] وابن ماجة فى الأطعمة ، باب الاقتصاد فى الأكل حديث رقم [٣٣٤٩] وابن حبان (١٣٨٤ موارد) والمستدرك [٤ / ٣٢٠] وأحمد فى المسند [٤ / ١٣٢] وهو فى صحيح الجامع [٥٦٧٤] .

والثانى : أن يوم الأكل يوم شكر ، ويوم الصوم يوم صبر ، والإيمان نصفان : شكر وصبر .

والثالث : أنه أشق على النفس فى المجاهدة ، لأنها كلما أنست بحالة نقلت عنها .

أما صوم الدهر : ففى أفراد مسلم من حديث أبى قتادة رضى الله عنه أن عمر رضى الله عنه سأل النبى ﷺ فقال : كيف بمن يصوم الدهر كله ؟ فقال : « لا صام ولا أفطر ـ أو ـ لم يفطر » [1] وهذا محمول على من سرد الصوم فى الأيام المنهى عن صيامها : فأما إذا أفطر يومى العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك .

فقد روى عن هشام بن عروة رحمه الله أن أباه كان يسرد الصوم ، وكانت عائشة رضى الله عنها تسرد .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ص أربعين عاماً .

واعلم : أن من رزق فطنة ، علم المقصود بالصوم ، فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو أفضل منه .

فقد كان ابن مسعود قليل الصوم ، وكان يقول : إذا صمت ضعفت عن الصلاة ، وأنا أختار الصلاة على الصوم .

وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن ، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة ، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلحه .

---

(١) مسلم في الصيام ، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر : حديث [١١٦٢]، وأبو داود فى الصوم ، باب فى صوم الدهر تطوعاً : حديث [٢٤٢٥]، والترمذى فى كتاب الصوم ،باب ما جاء فى صوم الدهر : حديث [٧٦٧]، والنسائى فى الصيام ، باب ذكر الاختلاف علي عطاء : حديث [٢١٥٢ـ٢١٥٧] وابن ماجه في : الصيام : باب ما جاءفى صيام الدهر : حديث [١٧٠٥ و ١٧٠٦] والدارمى فى : الصوم : باب النهى عن صيام الدهر : حديث [١٧٤٤]، وأحمد فى «مسنده»٤/ ٢٥ و ٥ / ٢٩٧ و ١١ / ٣

كتاب الحج
أسراره وفضائله وآدابه ونحو ذلك

ينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة ، ورد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، ويرد ما عنده من الودائع .

ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير ، على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد ، والرفق بالفقراء .

ويستصحب ما يصلحه كالسواك ، والمشط ، والمرآة ، والمكحلة .

ويتصدق بشيء قبل خروجه ، وإذا اكترى فليظهر للجمّال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير ، وقد قال رجل لابن المبارك : احمل لى هذه الرقعة إلى فلان . فقال : حتى أستأذن الجمَّال .

وينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن ضاق صدره صبّره .

وليؤمّر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقاً ، وأرفقهم بالأصحاب ، وإنما احتيج إلى التأمير لأن الآراء تختلف ، فلا ينتظم التدبير ، وعلى الأمير الرفق بالقوم ، والنظر فى مصالحهم ، وأن يجعل نفسه وقاية لهم .

وينبغي للمسافر تطييب الكلام ، وإطعام الطعام ، وإظهار محاسن الأخلاق ، فإن السفر يخرج خفايا الباطن ، ومن كان فى السفر الذى هو مظنة الضجر حسن الخلق ، كان فى الحضر أحسن خلقاً

وقد قيل : إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر فلا تشكُّوا فى صلاحه .

وينبغي له أن يودع رفقاءه وإخوانه المقيمين ، ويلتمس أدعيتهم ، ويجعل

خروجه بكرة يوم الخميس ، وليصلِّ في منزله ركعتين قبل الخروج منه ويستودع أهله وماله ، ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله ، وفي ركوبه ونزوله ، وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج ، وكذلك جميع المناسك من الإحرام ، والطواف ، والسعي ، والوقوف بعرفه ، وغير ذلك من أعمال الحج يأتي فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب ، وكل ذلك مستوفى في كتب الفقه وغيرها ، فليطلب هناك .

فصل في الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج

اعلم : أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتجرد والانفراد لخدمته ، وقد كان الرهبان ينفردون في الجبال طلباً للأنس بالله ، فجعل الحج رهبانية لهذه الأمة .

فمن الآداب المذكورة ، أن يكون خالياً في حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همه ، ليجتمع على طاعة الله تعالى ، وأن يكون أشعث أغبر ، رث الهيئة ، غير مستكثر من الزينة .

وينبغي أن يتجنب ركوب المحمل إلا من عذر ، كمن لا يستمسك على الزاملة (١) فإن النبي ﷺ **حج على راحلة وتحته رحل رث** (٢) .

وفي حديث جابر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « **إن الله عزوجل يباهي بالحاج الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادي ، أتوني شعثاً غبراً من كل فج عميق ، أشهدكم أني قد غفرت لهم** »(٣) .

---

(١) الزاملة : البعير الذي يحمل عليه الطعام المتاع من الزمل وهو الحمل : أي عتيق .

(٢) البخاري في الحج ، باب الحج على الرحل حديث : ١٥١٧ وابن ماجة في المناسك باب الحج على الرحل حديث ٢٨٩٠ وهو في صحيح الجامع [١٣٠٢] .

(٣) أحمد في «مسنده» ٢/ ٢٢٤و٣٠٥، وابن حبان (١٠٠٧ موارد) وهو في صحيح الجامع [١٨٦٧، ١٨٦٨] .

وقد شرَّف الله تعالى بيته وعظَّمه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حوله حرماً له تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه ، وجعل عرفة كالميدان على فنائه .

واعلم : أن فى كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر ، وعبرة للمعتبر .

فمن ذلك : أن يتذكر بتحصيل الزاد زاد الآخرة من الأعمال ، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه ، كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر ، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيراً ، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات ، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال .

ومن ذلك : أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه ، إذا لبس المحرم الإحرام لبس كفنه ، وأنه سيلقى ربه على زى مخالف لزى أهل الدنيا ، وإذا لبى فليستحضر بتلبية إجابة الله تعالى إذ قال :﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ** ﴾ [الحج : ٢٧] . وليرج القبول ، وليخش عدم الإجابة ، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغى أن يرجو الأمن من العقوبة ، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب ، غير أنه ينبغى الرجاء غالباً ، لأن الكرم عميم ، وحق الزائر مرعى ، وذمام المستجير لا يضيع .

ومن ذلك : إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته فى قلبه ، وشكر الله تعالى على تبليغه رتبة الرافدين ، وليستشعر عظمة الطواف به ، فإنه صلاة ، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله على طاعته ، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة ، وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لجأ المذنب إلى سيده وقرب المحب

وأنشد بعضهم فى ذلك :

ستور بيتك نيل الأمن منك وقد ... علقتها مستجيراً أيها البارى

وما أظنك لما أن علقت بها ... خوفاً من النار تدنينى من النارِ

وها أنا جار بيت أنت قلت لنا ... حجوا إليه وقد أوصيت بالجارِ

ومن ذلك : إذا سعى بين الصفا والمروة ، ينبغى أن يمثلهما بكفتى الميزان ، وتردده بينهما فى عرصات [١] القيامة ، أو تردد العبد إلى باب دار الملك ، إظهاراً لخلوص خدمته ، ورجاء الملاحظة بعين رحمته ، وطمعاً فى قضاء حاجته .

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق ، وارتفاع أصواتهم ، واختلاف لغاتهم موقف القيامة ، واجتماع الأمم فى ذلك الموطن ، واستشفاعهم .

فإذا رميت الجمار : فاقصد الانقياد للأمر ، وإظهار الرق والعبودية ، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس .

وأما المدينة : فإذا لاحت فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله لنبيه ﷺ ، وشرع إليها هجرته ، وجعل فيها بيته ، ثم مثل نفسك مواضع أقدام رسول الله ﷺ عند تردده فيها ، وتصور خشوعه وسكينته ، فإذا قصدت زيارة القبر ، فأحضر قلبك لتعظيمه ، والهيبة له ، ومثل صورته الكريمة فى خيالك ، واستحضر عظيم مرتبته فى قلبك ، ثم سلم عليه ، واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك ، كما ورد فى الحديث [٢] .

---

(١) عرصات : جمع «عَرصَة» ، وهى كل موضع واسع لا بناء فيه « النهاية » ٣/ ٢٠٨ .

(٢) لعله يشير إلى قوله ﷺ : « ما من أحد سلم علىَّ إلاَّ ردَّ الله علىَّ روحى حتى أردّ عليه السلام » .
[حسن] أبو داود فى : المناسك : باب زيارة القبور : حديث [٢٠٤١] ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٥٦٧٩] .

كتاب آداب القرآن الكريم وذكر فضله

أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله عزوجل ، وقد مدحه الله تعالى فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ **وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** ﴾[الأنعام : ٩٢] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾[الإسراء : ٩] .

وقوله : ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ** ﴾[فصلت : ٤٢] .

وفى أفراد البخارى ، من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** »(١) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « **إن لله عزوجل أهلين** من الناس ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته» رواه النسائى(٢) .

وفى حديث آخر ، أن النبى ﷺ قال : « **لا يعذب الله قلباً وعى القرآن** » (٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : « **يقال لصاحب القرآن** : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » صححه الترمذى (٤) .

---

(١) البخارى فى : فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه : حديث [٥٠٢٧] وأبو داود فى الصلاة : باب فى ثواب قراءة القرآن : حديث [١٤٥٢] ، والترمذى فى : فضائل القرآن : باب ما جاء فى تعليم القرآن : حديث [٢٩٠٧] ، وابن ماجه فى : المقدمة : باب فضل من تعلم القرآن وعلمه : حديث [٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣] ، الدارمى فى : فضائل القرآن : باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه : حديث [٣٣٣٧] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٥٨ ، ٦٩ .

(٢) [صحيح]النسائى فى «فضائل القرآن »ص [٨٣] حديث [٤٥٦] وابن ماجة [٢١٥] وأحمد فى المسند[٣/ ١٢٧] وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٢١٦٥ ، ٢٥٢٨].

(٣) أورده العجلونى فى «كشف الخفاء »٢/ ٥٠٣حديث [٣١٢٢]، وعزاه إلى «الديلمى »من حديث عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ .

(٤) [صحيح]الترمذى فى فضائل القرآن ، باب حدثنا أحمد بن منيع : حديث [٢٩١٤] ، وأبو داود رقم [١٤٦٤] وأحمد فى المسند [٢ / ١٩٢] وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٨١٢٢].

وعن بريدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنى لك اليوم من وراء كل تجارة ، فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويُكسى والداه حلتين لا تقوم لهما الدنيا ، فيقولان : ربِمَ كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال : اقرأ فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود ما كان يقرأ ، هذّا كان أو ترتيلا »(١) .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون وبنهاره إذ الناس مفطرون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون(٢) .

ولا ينبغى أن يكون جافياً ولا صخاباً ولا حديداً .

وقال الفضيل رحمه الله : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، ولا ينبغى أن يلغو مع من يلغو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلهو مع من يلهو ، تعظيماً لله تعالى .

ولا ينبغى أن يكون له إلى أحد حاجة ، بل ينبغى أن تكون حوائج الناس إليه(٣) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : رأيت رب العزة فى المنام ، فقلت : يا رب ، ما أقرب ما يتقرب به إليك المتقربون ؟ فقال : بكلامى يا أحمد ، فقلت : يا

---

(١)[صحيح] أحمد فى «مسنده »٥/ ٣٤٨ وقال محققه اسناده صحيح وابن ماجة مختصراً رقم [٣٧٨١] وقال البوصيرى : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٢) انظر « التبيان فى آداب حملة القرآن » ص [٧٣] .

(٣) انظر نفس المصدر ص [٧٤] .

رب ، بفهم أو بغير فهم ؟ فقال : بفهم وبغير فهم(١)

فصل فى آداب التلاوة

ينبغى لقارئ القرآن أن يكون على وضوء ، ومستعملاً للأدب ، مطرقاً غير متربع ولا متكئ ، ولا جالس على هيئة المتكبر .

وأفضل الأحوال : أن يقرأ فى الصلاة قائماً ، وأن يكون فى المسجد .

فأما مقدار القراءة ، فقد اختلفت فيها عادات السلف ، فمنهم من كان يختم كل يوم وليله ختمة ، ومنهم من كان يختم فى اليوم والليلة أكثر من ذلك ، ومنهم من كان يختم فى ثلاث ختمة ، ومنهم من كان يختم فى كل أسبوع ، ومنهم من كان يختم فى كل شهر ، اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم ، أو بتعليمه ، أو بنوع من التعبد غير القراءة ، أو بغيره من اكتساب الدنيا .

وأولى الأمر : ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة ، ولا يؤذيه فى بدنه ، ولا يفوته معه الترتيل والفهم .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، لأن أقرأ البقرة وآل عمران ، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إلىّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة (٢) ، ومن وجد خلسة فى وقت فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب ، فقد كان عثمان رضى الله عنه يقرأ القرآن فى ركعة يوتر بها ، وكان الشافعى رحمه الله يختم فى رمضان ستين ختمة .

وأما الدوام : فليكن على قدر الإمكان ، كما أشرنا إليه .

واستحب بعضهم إذا ختم بالنهار أن يختم فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، وإذا

---

(١) لا يصح هذا عن الإمام أحمد وقد رواه ابن الجوزى فى « مناقب الإمام أحمد » ص ٤٣٤ بإسناد فيه مجاهيل

(٢) انظر « التبيان فى آداب حملة القرآن » ص [١٢٨] .

والهذرمة : السرعة فى الكلام . « النهاية » ٥ / ٢٥٦ .

ختم بالليل أن يختم فى ركعتى المغرب أو بعدهما ليستقبل بالختمة أول الليل وأول النهار .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من ختم القرآن فله دعوة مستجابة .

وكان أنس رضى الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا [(١)] .

فصل فى تحسين الصوت

ويستحب تحسين القراءة ، وإذا لم يكن حسن الصوت حسَّنه ما استطاع ، فأما القراءة بالألحان ، فقد كرهها السلف .

ويستحب الإسرار بالقراءة . وقد جاء فى الحديث : « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية »[(٢)] إلا أنه ينبغى أن يسمع نفسه .

ولا بأس بالجهر فى بعض الأوقات لمقصود صحيح ، إما لتجويد الحفظ ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم ، أو ليوقظ الوسنان [(٣)] .

فأما حكم القراءة فى الصلاة ، ومقدار ما يقرأ فى صلاة الفرض ، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور فى كتب الفقه .

ومن كان عنده مصحف ينبغى له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً .

وينبغى لتالى القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه فى إيصال

---

(١) انظر « التبيان » ص [٢٣١] ، وعزاه إلى « ابن أبى داود » بإسنادين صحيحين .

(٢) أورده الغزالى فى «الإحياء »ص [٥٠٤]، وقال : وفى لفظ آخر : «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر به كالمسر بالصدقة » وهذا اللفظ رواه أبو داود فى قيام الليل ، باب رفع الصوت بالقراءة رقم [١٣٣٣] والترمذى فى فضائل القرآن رقم [٣٩١٩] والنسائى [٥ / ٨٠] وهو فى صحيح الجامع [٣١٠٥] .

(٣) الوسنان : النائم الذى ليس بمستغرق فى نومه . « النهاية » [٥ / ١٨٦] .

معانى كلامه إلى أفهامهم ، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه ، فإن التدبر هو المقصود من القراءة ، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية ، فليرددها ، فقد روى أبو ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قام ليلة بآيه يرددها ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ [المائدة : ١١٨] .

وقام تميم الدارى رضى الله عنه بآية وهى قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [الجاثية : ٢١] . وكذلك قام بها الربيع بن خُثيم رحمة الله عليه ليلة .

وينبغى للتالى أن يستوضح من كل آية ما يتعلق بها ، ويتفهم ذلك ، فإذا تلا قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ [الأنعام : ١] . فليعلم عظمته ويتلمح قدرته فى كل ما يراه .

وإذا تلا : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ** ﴾ [الواقعة : ٥٨] . فليتفكر فى نطفة متشابهة الأجزاء ، كيف تنقسم إلى لحم وعظم ، وعرق وعصب ، وأشكال مختلفة من رأس ، ويد ، ورجل ، ثم إلى ما ظهر فيهامن الصفات الشريفة كالسمع ، والبصر ، والعقل ، وغير ذلك ، فيتأمل هذه العجائب .

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر .

وليتخلَّ التالى من موانع الفهم ، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه ، فيكرره التالى ، فيصرف همته عن فهم المعنى .

ومن ذلك أن يكون التالى مصراً على ذنب ، أو متصفاً بكبر ، أو مبتلى بهوى مطاع ، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدأه ، فهو كالصدأ على المرآة ، يمنع من تجلى الحق ، فالقلب مثل المرآة ، والشهوات مثل الصدأ ، ومعانى القرآن مثل الصور التى تتراءى فى المرآة ، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة

وينبغي لتالى القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده ، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبَر ، فليتنبه لذلك ، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه .

فإن ذلك مثل العاصى إذا قرأ القرآن وكرره ، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أمر به فى الكتاب فهو مقتصر على دراسته ، ومخالف أوامره ، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت .

وينبغي أن يتبرأ من حوله وقوته ، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية ، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير ، كان ذلك سبب قربه .

كتاب الأذكار والدعوات وغيرها

اعلم : أنه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى ، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى ، ويدل على فضل الذكر قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة : ١٥٢] . وقوله : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩٠] . وقوله تعالى : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب : ٣٥]

وعن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله عزوجل يقول : أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه »(١) .

وفى أفراد مسلم عنه ﷺ أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده »(٢) وفى ذلك أحاديث كثيرة مذكورة فى فضائل الأعمال .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا على غير ذكر الله عزوجل ، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار ، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة »(٣) .

---

(١) [صحيح] أحمد فى« مسنده »٢/ ٥٤٠ ، والبخارى معلقا فى صحيحه وابن ماجة فى الأدب رقم [٣٧٩٢] وابن حبان فى صحيحه [٢٣١٦ موارد] والحاكم فى «المستدرك »١/ ٤٩٦ ، وهو فى«صحيح الجامع »رقم [١٩٠٦] .

(٢) مسلم فى الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن : حديث [٢٧٠٠] ، وأبو داود فى : الوتر : باب فى ثواب قراءة القرآن : حديث [١٤٥٥] ، والترمذى فى الدعوات : باب ما جاء فى القوم يجلسون فيذكرون الله : حديث [٣٣٧٨] ، وابن ماجه فى المقدمة : باب فضل العلماء : حديث [٢٢٥] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٢٥٢ .

(٣) [صحيح] أبو داودفى الأدب ، باب كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله : حديث [٤٨٥٥]، والترمذى فى : الدعوات : باب فى القوم يجلسون ولا يذكرون الله حديث [٣٣٨٠]وأحمد فى «مسند ه»٢/ ٣٨٩و٤٩٤ ، والحاكم فى «المستدرك »١/ ٤٩٢ .

وفى حديث آخر : « لا يجلس قوم مجلساً لا يذكرون الله عزوجل ولا يصلون على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » (١) .

وأما فضيلة الدعاء : فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس شىء أكرم على الله عزوجل من الدعاء » (٢) و« أشرف العبادة الدعاء » (٣) . و« من لا يسأل الله يغضب عليه » (٤) وفى حديث آخر : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل » (٥) .

وللدعاء آداب : من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ورمضان من الشهور ، والجمعة من الأسبوع ، والسحر من الليل .

ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة ، وعقب الصلوات ، وعند نزول الغيث ، وعند القتال فى سبيل الله ، وعند ختم القرآن ، وفى السجود ، وعند الإفطار وعند حضور القلب ووجله .

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات ، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه ، وحالة السجود حالة الذل .

ومن آداب الدعاء أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه (٦) ، وأن يخفض صوته حال الدعاء .

---

(١) [صحيح] أحمد فى مسنده »٢/ ٤٦٣ ، والحاكم فى« المستدرك »١/ ٤٩٢ .

(٢) [حسن] الترمذى فى الدعوات ، باب ما جاءفى فضل الدعاء : حديث [٣٣٧٠] ، وابن ماجة فى الدعاء ، باب فضل الدعاء : حديث [٣٨٢٩] ، وأحمد فى «مسنده »٢/ ٣٦٢ ، وابن حبان [٢٣٩٧موارد] وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٥٣٩٢] .

(٣) [ضعيف] البخارى فى الأدب المفرد »رقم [٧١٣] ، وهو فى« ضعيف الجامع »رقم [٨٧٥] .

(٤) [صحيح] أحمد فى مسنده »٢/ ٤٤٢ والترمذى فى الدعاء [٣٣٧٣] وابن ماجة [٣٨٢٧] فى الدعاء

(٥) [ضعيف] الترمذى فى الدعوات ، باب فى انتظار الفرج : حديث [٣٥٧١] ، وهو فى «ضعيف الجامع »رقم [٣٢٧٨] .

(٦) [ضعيف جداً] الترمذى فى الدعاء [٣٣٨٦] ، وأبو داود [١٤٨٥] وابن ماجة [١١٨١ ، ٣٨٦٦] وقال البوصيرى فى الزوائد : إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف صالح بن حسان وضعفه الألباني فى الإرواء [٤٣٣ ، ٤٣٤]

ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله عزوجل ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ولا يتكلف السجع فى الدعاء[(١)] .

ومن آدابه وهو الأدب الباطن ـ وهو الأصل فى الإجابة ـ التوبة ورد المظالم .

فصل فى الأوراد وفضلها وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات

اعلم : أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده ، والعلم بقصر العمر ، وجب ترك التقصير فى هذا العمر القصير ، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل ، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان : ٢٥ ، ٢٦] .

فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات فى ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام ، وقال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : ٦٢] . أى يخلف أحدهما الآخر ليتدارك فى أحدهما ما فات فى الآخر .

بيـان عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها

أوراد النهار سبعة ، وأوراد الليل ستة .

فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

الورد الأول من أوراد النهار : ما بين طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس ،

---

(١) ويشهد له حديث ابن عباس : « حدث الناس كل جمعة مرة . . . . . فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإنى عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك ـ يعنى لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب » .
البخارى فى الدعوات : باب ما يكره من السجع فى الدعاء : حديث [٦٣٣٧]

وهو وقت شريف ، وقد أقسم الله تعالى به فقال سبحانه :

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير : ١٨] .

فينبغي للمريد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله سبحانه وتعالى فيقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » . وروى ذلك عن النبى ﷺ من أفراد البخارى [١] .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهوعلى كل شىء قدير ، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » . وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : « أصبحنا وأصبح المُلك لله . . . . » إلى آخره [٢] ، ويقول : «بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » ثلاث مرات [٣] ، « رضيت بالله ربّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » [٤] .

---

(١) البخارى فى الدعوات ، باب ما يقول إذا نام : حديث [٦٣١٢] ، ومسلم فى : الذكر : باب ما يقول عند النوم : حديث [٢٧١١] ، وابن ماجه فى : الدعاء : باب ما يدعو به إذا انتبه من الليل : حديث [٣٨٨٠] ، والدارمى فى : الاستئذان : باب ما يقول إذا انتبه من نومه حديث [٢٦٨٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٤ / ٢٩٤ و ٣٠٢ و ٥ / ١٥٤ .

(٢) مسلم فى الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ماعمل : حديث[٢٧٢٣] ، وأبو داود فى الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح : حديث [٥٠٧١] ، والترمذى فى : الدعوات : باب ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى : حديث [٣٣٩٠] ، وأحمد فى «مسنده »١/ ٤٤٠ .

(٣)[صحيح] أبو داود فى : الأدب : باب ما يقول إذا أصبح : حديث [٥٠٨٨] ، الترمذى فى الدعوات ، باب ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى : حديث [٣٣٨٨] وابن ماجه فى الدعاء ، باب ما يدعوبه الرجل إذا أصبح وإذا أمسى : حديث [٣٨٦٩] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٦٦ .

(٤) [صحيح] ابن ماجه فى الدعاء ، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى : حديث [٣٨٧٠] ، وأحمد فى «مسنده» ٥/ ٣٦٧ .

فإذا صلى الفجر قال وهو ثان رجله قبل أن يتكلم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » عشر مرات [(١)] .

ويذكر سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [(٢)] .

ويقول : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » [(٣)] .

ويدعو : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » [(٤)] .

ويدعو بدعاء أبى الدرداء : « اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم » [(٥)] .

---

(١) [صحيح] الترمذى فى الدعوات ، باب حدثنا قتيبة : حديث [٣٤٧٣] .

(٢) البخارى فى الدعوات ، باب أفضل الاستغفار حديث [٦٣٠٦] ، وأحمد فى «مسنده» ٤/ ١٢٢ و١٢٥ .

(٣) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٣ / ٤٠٦ و٤٠٧ وهو عند النسائى فى الكبرى [٦ / ٤] والدارمى [٢ / ٣٧٨] وابن أبى شيبه [٩ / ١٧٧] فى الأدب وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠ / ١١٦] رجال أحمد والطبرانى رجال الصحيح .

(٤) مسلم فى الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل : حديث [٢٧٢٠] .

(٥) [ضعيف] أورده الغزالى فى «الإحياء» ص [٥٦٨] وأورده العراقى فى «المغنى» ص [٥٦٨] وعزاه إلى الطبرانى فى «الدعاء» وضعفه .

فهذه الأدعية لا يستغنى المريد عن حفظها .

وينبغى له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلى السنة فى منزله ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد ويقول : « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا ، فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (١) .

فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم فى « صحيحه » أن النبى ﷺ قال : «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى ﷺ ثم ليقل : « اللهم افتح لى أبواب رحمتك » وإذا خرج فليقل : « اللهم إنى أسألك من فضلك »(٢) ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية .

فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث فى مكانه إلى طلوع الشمس .

فقد روى أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « من صلى الفجر فى جماعة ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة »(٣) .

وليكن وظائف وقته أربعاً : الدعاء ، والذكر ، والقراءة ، والفكر . وليأت بما أمكنه ، وليتفكر فى قطع القواطع ، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدى وظائف يومه ، وليتفكر فى نعم الله تعالى ليتوفر شكره .

الورد الثانى : ما بين طلوع الشمس إلى الضحى ، وذلك بمضى ثلاث ساعات من النهار ، إذا فرض النهار اثنتى عشرة ساعة ، وهو الربع ، وهذا وقت شريف

---

(١) [ضعيف] ابن ماجة فى المساجد والجماعات ، باب المشى إلى الصلاة : حديث [٧٧٨] ، وأحمد فى «مسنده» ٣/ ٢١ وهو فى « الضعيفة » رقم [٢٤] .

(٢) مسلم فى صلاة المسافرين ، باب ما يقول إذا دخل المسجد : حديث [٧١٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٥/ ٤٢٥ , وأبو داود [٤٦٥] والنسائى [٢/ ٥٣]

(٣) [حسن] الترمذى فى الصلاة ، باب ذكر ما يستحب من الجلوس فى المسجد بعد صلاة الصبح : حديث [٥٨٦] وهو فى صحيح الجامع [٦٣٤٦] .

وفيه وظيفتان :

إحداهما : صلاة الضحى .

والثانية : ما يتعلق بالناس من عيادة مريض ، أو تشييع جنازة ، أو حضور مجلس علم ، أوقضاء حاجة مسلم . وإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر .

الورد الثالث : من وقت الضحى إلى الزوال ، والوظيفة فى هذا الوقت ، الأقسام الأربعة ، وزيادة أمرين :

أحدهما : الاشتغال بالكسب والمعاش ، وحضور السوق ، فإن كان تاجراً فيلتجر بصدق وأمانة ، وإن كان صاحب صنعة ، فليصنع بنصيحة وشفقة ، ولا ينس ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله ، وليقنع بالقليل .

والثانى : القيلولة ، فإنها مما تعين على قيام الليل ، كما يعين على صيام النهار ، فإن نام فليجتهد فى الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت .

واعلم : أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث ، وهو ثمان ساعات ، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه ، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله ، فإذا نام أكثر من ذلك فى الليل فلا وجه لنومه فى النهار ، بل من نقص منه استوفى ما نقص فى النهار .

الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها ، وينبغى له فى هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله ، ثم يقوم فيصلى الظهر وسنتها ، ثم يتطوع بعدها بأربع .

الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ، فيستحب له فى هذا الوقت الاشتغال بالذكر ، والصلاة ، وفنون الخير ، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة .

الورد السادس : إذا دخل العصر إلى أن تصفر الشمس ، وليس فى هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين ، ثم فرض العصر ، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التى سبق ذكرها فى الورد الأول ، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم .

الورد السابع : من اصفرار الشمس إلى أن تغرب ، وهو وقت شريف . قال الحسن البصرى رحمه الله : كانوا أشد تعظيماً للعشى من أول النهار ، فيستحب فى هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة .

وبالمغرب تنتهى أوراد النهار فينبغى أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه ، فقد انقضت من طريقه مرحلة ، وليعلم أن العمر أيام تنقضى جملتها بانقضاء آحادها .

قال الحسن : يا بن آدم ، إنما أنت أيام ، إذا مضى يومك مضى بعضك . وليتفكر هل ساوى يومه أمسه ، فإن رأى أنه قد توفر على الخير فى نهاره ، فليشكر الله سبحانه وتعالى على التوفيق ، فإن تكن الأخرى ، فليتب وليعزم على تلافى ما سبق من التفريط فى الليل ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه ، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير ، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضى يوم إلا عن صدقة ، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير .

ذكر أوراد الليل

الورد الأول : إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء ، فإذا غربت صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين ، فقد روى عن أنس رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [السجدة : ١٦] أن هذه الآية نزلت فى أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى بعد المغرب ست ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوء ، عدلن له بعبادة اثنتى عشرة سنة » رواه الترمذى [١] .

الورد الثانى : من غيبوبة الشفق الأحمر إلى وقت النوم ، يستحب أن يصلى بين الأذانين ما أمكنه ، وليكن فى قراءته : ﴿ الٓمٓ (١) تنزيل الكتاب ﴾ [السجدة : ١] و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ [تبارك : ١] . فقد كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأهما [٢] .

وفى حديث آخر ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم يصبه فاقة »[٣] .

الورد الثالث : الوتر قبل النوم ، إلا من كان عادته القيام بالليل ، فإن تأخيره فى حقه أفضل ، قالت عائشة رضى الله عنها : « من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ ، من أول الليل ، وأوسطه ، وآخره ، فانتهى وتره إلى السحر » متفق عليه [٤] ، ثم ليقل بعد الوتر : « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات [٥] .

الورد الرابع : النوم ، وإنما عددناه من الأوراد ، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسبت عبادة . وقد قال معاذ رضى الله عنه : إنى لأحتسب فى نومتى كما أحتسب فى قومتى .

(١) رقم [٤٣٥] فى أبواب الصلاة ، باب ما جاء فى فضل التطوع ، وابن ماجة رقم [١٣٧٤] فى إقامة الصلاة ، باب ما جاء فى التطوع فى البيت وفى سنده عمر بن عبد الله بن أبى خثعم قال الحافظ : ضعيف وهو فى ضعيف الجامع [٥٦٦١] .

(٢)[ضعيف] رواه الترمذى رقم [٢٨٩٢] فى فضائل القرآن ، باب ما جاء فى سورة الملك ، وفى إسناده الليث بن أبى سليم بن زنيم قال الحافظ فى التقريب : صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك .

(٣)[ضعيف] ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة »رقم [٦٧٤] ، وهو فى «ضعيف الجامع »رقم [٥٧٧٣] .

(٤) البخارى فى الوتر ، باب ساعات الوتر : حديث [٩٩٦] ، ومسلم فى صلاة المسافرين ، باب صلاة الليل : حديث [٧٤٥] وأبو داود [١٤٣٥] والترمذى [٤٥٦] والنسائى [٣/ ٢٣٠] .

(٥) [صحيح] أبو داود فى الصلاة ، باب الدعاء بعد الوتر : حديث [١٤٣٠] ، والنسائى فى قيام الليل ، باب ذكر اختلاف ألفاظ النافلين لخبر أبى كعب : حديث [١٦٨٩] ، وأحمد فى « مسنده»٣ / ٤٠٦ و ٤٠٧و٥ / ١٢٣

فمن أداب النوم : أن ينام على طهارة ، لما روت عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام يتوضأ وضوءه للصلاة (١) .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : إن الأرواح يعرج بها فى منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش ، فما كان طاهراً سجد عند العرش ، وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً عن العرش .

ومن آدابه : أن يتوب قبل نومه ، لأنه ينبغى لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه ، لأنه ربما مات فى نومه .

ومنها : أن يزيل كل غش فى قلبه لمسلم ، ولا ينوى ظلمه ، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ .

ومنها : أن لا يبيت من له شىء يوصى له إلا ووصيته مكتوبة عنده ، لأن فى « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه ، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » (٢) .

وينبغى له أيضاً أن لا يبالغ فى تمهيد الفراش متنعماً بذلك ، فإنه يزيد فى النوم ، فإن النبى ﷺ ثُنى له فراشه فقال : « منعتنى وطأته صلاتى الليلة » (٣) .

وينبغى أن لا ينام حتى يغلبه النوم ، فقد كان السلف لا ينامون إلا غلبة .

ومن آدابه : أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الأحاديث فى ذلك ، وأن ينام على جنبه الأيمن ، فمما جاء فى ذلك ما روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ، فإنه لا

(١) رواه مسلم رقم [٣٠٥] فى الحيض ، باب جواز نوم الجنب واستحباب الوضوء له .
(٢) البخارى فى الوصايا ، باب الوصايا ، حديث [٢٧٣٨] ومسلم فى العصية رقم [١٦٢٧] ومالك [٢ / ٧٦١] وأبو داود [٢٨٦٢] والترمذى [٩٧٤] والنسائى [٦ / ٢٣٨ ، ٢٣٩] وابن ماجة [٢٦٩٩] .
(٣) رواه أبو الشيخ فى اخلاقﷺ ١٣٧ وسنده ضعيف جداً .

يدرى ما حدث بعده »[١] .

- فإذا وضع جنبه فليقل : « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » أخرجاه فى « الصحيحين » [٢] .

وفى « الصحيحين » أيضاً ، من حديث عائشة ، أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ ، و ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ﴾ و ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات [٣] .

وفيهما من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت فى ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيراً »[٤] .

وعن على رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة : « إذا أخذتما

---

(١) البخارى فى الدعوات ، باب حدثنا أحمد بن يونس : حديث [٦٣٢٠]، وأبو داود فى الأدب ، باب ما يقال عند النوم : حديث [٥٠٥٠]. وأحمد في «مسنده» ٢/ ٤٣٢و٤٣٣ والترمذى [٣٤٠١] فى الدعوات وأبو داود [٥٠٥٠] فى النوم .

(٢) انظر تخريج الحديث السابق .

(٣) البخارى فى فضائل القرآن باب فضل المعوذات حديث [٥٠١٧] ومسلم رقم [٢١٩٢] فى السلام ، باب رقية المريض بالمعوذات ومالك في الموطأ [٢ / ٩٤٣] والترمذى فى الدعوات حديث [٣٤٠٢] وأبو داود فى الطب حديث [٣٩٠٢] .

(٤) البخارى فى الدعوات ، اب إذا بات طاهراً: حديث [٦٣١١]، ومسلم فى الذكر والدعاء ،باب ما يقول عند النوم : حديث [٢٧١٠].

مضجعكما أو أويتما إلى فراشكما ، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين ، واحمداه ثلاثاً وثلاثين وكبراه أربعاً وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم » متفق عليه(١) .

وحديث أبى هريرة فى حفظ زكاة رمضان مشهور ، وفيه أن شيطاناً قال له : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان . فأخبر رسول الله ﷺ فقال : « أما إنه قد صدقك وهو كذوب »(٢) .

وفى أفراد مسلم أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافى له ولا مؤوى » (٣) .

فإذا استيقظ للتهجد ، فليدع بدعاء رسول الله ﷺ : « اللهم ربنا لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت » وفى رواية : « وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » متفق عليه (٤) .

---

(١) البخارى فى النفقات ، باب عمل المرأة فى بيت زوجها : حديث [٥٣٦١]، ومسلم فى الذكر والدعاء : باب التسبيح أول النهار وعند النوم : حديث [٢٧٢٧] .

(٢) البخارى فى الوكالة ، باب إذا وكل رجلاً . . إلخ ، حديث [٢٣١١] .

(٣) [صحيح] مسلم فى كتاب الذكر والدعاء ، باب ما يقول عند النوم حديث [٢٧١٥]، وأبو داود رقم [٥٠٥٣] والترمذى فى الدعوات [٣٣٩٦] .

(٤)[متفق عليه] البخارى فى التوحيد ، باب قول الله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة » : حديث [٧٤٤٢]، ومسلم فى صلاة المسافرين ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه : حديث [٧٦٩] وأبو داود فى : الصلاة : باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء : حديث [٧٦٠] ، والنسائى فى : قيام الليل : باب ذكر ما يستفتح به القيام : حديث [٣] ، وابن ماجه فى : إقامة الصلاة : باب ما جاء فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل : حديث [١٣٥٥] ، والدارمى فى : الصلاة : باب الدعاء عند التهجد : حديث [١٤٨٦] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٩٥ و ١٠٢ .

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى ، وأول ما يجرى على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى ، فهاتان علامتان على الإيمان .

الورد الخامس من أوراد الليل : يدخل بمضى النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه ، وذلك وقت شريف . قال أبو ذر رضى الله عنه : سألت رسول الله ﷺ : أى صلاة الليل أفضل ؟ فقال : « نصف الليل أو جوف الليل ، وقليل فاعله »(١) .

وروى أن داود عليه السلام قال : يارب ، أية ساعة أقوم لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ، لا تقم أول الليل ولا آخره ، ولكن قم فى شطر الليل حتى تخلوا بى وأخلو بك ، وارفع إلىّ حوائجك .

فإذا قام إلى التهجد قرأ العشر آيات من آخر سورة (آل عمرن) كما روى فى «الصحيحين »(٢) أن النبى ﷺ فعل ذلك ، وليدع بما سبق من دعائه ﷺ عند قيامه من الليل ، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين ، لما روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا قام أحدكم يصلى بالليل ، فليبدأ بركعتين خفيفتين » رواه مسلم(٣) ، ثم يصلى مثنى مثنى ، وأكثر ما روى عن النبى ﷺ أنه كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر ، وأقلهن سبع .

الورد السادس من الليل : السدس الأخير وهو وقت السحر ، قال الله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] .

وفى الحديث : إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة(٤) .

(١)[ضعيف] رواه البغوى فى« شرح السنة »٣/ ٣٦-٣٧ وهو فى ضعيف الجامع [١٠٣٥] .

(٢) البخارى فى التفسير ، باب « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان » حديث [٤٥٧٢] ومسلم [٧٦٣ / ١٨٢] فى صلاة المسافرين ، باب الدعاء فى صلاة الليل ، ومالك فى الموطأ [١ / ١٢١] وأبو داود فى الطهارة [٥٨] والنسائى [٢ / ٣٠] .

(٣) رقم [٧٦٨] فى صلاة المسافرين ، باب الدعاء وفى صلاة الليل وقيامه وأبو داود فى : كتاب الصلاة : باب افتتاح صلاة الليل بركعتين : حديث [١٣٢٣] .

(٤) الكامل لابن ععدى [٦ / ٢٠٩٣] .

وجاء طاوس إلى رجل وقت السحر فقالوا : هو نائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحداً ينام وقت السحر .

فإذا فرغ المريد من صلاة السحر ، فليستغفر الله عزوجل . وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يفعل ذلك .

فصل فى اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم : أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال :

إما أن يكون عابداً ، أو عالماً ، أو متعلماً ، أو والياً ، أو محترفاً ، أو مستغرقاً بمحبة الله عزوجل مشغولاً به عن غيره .

الأول : **العابد** : وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد ، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد ، وقد تختلف وظائفه ، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة ، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة ، حتى يختم فى يوم ختمة ، أو ختمتين ، أو ثلاثاً ، وكان فيهم من يكثر التسبيح ، ومنهم من يكثر الصلاة ، ومنهم من يكثر الطواف بالبيت .

فإن قيل : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد ؟

فاعلم أن قراءة القرآن فى الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع ، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك ، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره ، فلينظر المريد ما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه ، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره .

قال أبو سليمان الدارانى : فإذا وجدت قلبك فى القيام فلا تركع ، وإذا وجدته فى الركوع فلا ترفع .

الثانى : **العالم** : الذى ينتفع الناس بعلمه فى فتوى ، أو تدريس ، أو تصنيف ، أو تذكير ، فترتيبه فى الأوراد يخالف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى المطالعة فى الكتب ، والتصنيف والإفادة ، فإن استغرق الأوقات فى ذلك ، فهو أفضل ما

يشتغل به بعد المتكوبات ، وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة الذى يرغب فى الآخرة ، ويعين على سلوك طريقها ، والأولى بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته ، لأن استغراق الأوقات فى العلم لا تصبر عليه النفس ، فينبغى أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا ، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى فى الإفادة والتعليم ، فإن لم يكن عنده من يتعلم ، وصرف ذلك الزمان إلى التفكير فى العلوم ، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات ، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة ، ولا يترك ذلك إلا فى وقت أكل ، أو طهارة ، أو مكتوبة ، أو قيلولة ، ومن العصر إلى اصفرار الشمس بسماع ما قرأ عليه من تفسير ، أو حديث ، أو علم نافع ، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح ، فيكون ورده الأول من عمل اللسان ، والثانى فى عمل القلب بالتفكير ، والثالث فى عمل العين واليد والمطالعة والنسخ ، والرابع بعد العصر فى عمل السمع لتتروح العين واليد ، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضرا بالعين .

وأما الليل : فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعى رحمه الله ، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء : الثلث الأول لكتابة العلم ، والثانى للصلاة ، والثالث للنوم ، فأما الصيف فربما لا يحتمل ذلك ، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار .

الثالث : حال المتعلم : فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل ، وحكم المتعلم حكم العالم فى ترتيب الأوراد ، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة ، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف ، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها .

الرابع : الوالى : مثل الإمام ، والقاضى ، أو المتولى للنظر فى أمور المسلمين ، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة ، لأنه عبادة يتعدى نفعها ، فينبغى أن يقتصر فى النهار على المكتوبات ، ثم يستفرغ باقى الزمان فى ذلك ، ويقنع بأوراد الليل .

الخامس : المحترف : وهو محتاج إلى الكسب له ولعياله ، فليس له أن يستغرق الزمان فى التعبد ، بل فى الكسب مع دوام الذكر ، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد .

السادس : المستغرق بمحبة الله سبحانه : فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى ، وهو يحركه إلى ما يريد من ورده .

وينبغى أن يداوم على الأوراد ، لقول النبى ﷺ : « **أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قلّ** »(١) وكان النبى ﷺ عمله ديمة(٢) .

باب فى قيام الليل وفضله والأسباب الميسرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾ [السجدة : ١٦] .

وقال النبى ﷺ : « **عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وهو قربة إلى ربكم ، ومغفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم** »(٣) وفى فضله أحاديث كثيرة .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة فى جوف الليل ، فقيل له : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خَلَوا بالرحمن فألبسهم من نوره .

---

(١) البخارى فى الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل : حديث [٦٤٦٤] ، ومسلم فى صفات المنافقين ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله : حديث [٧٦/ ٢٨١٦] ، والنسائى فى : قيام الليل : باب صلاة القاعد فى النافلة : حديث [٢] .

(٢) البخارى فى الصوم باب هل يخص شيئاً من الأيام ؟ حديث[١٩٨٧] ، ومسلم فى صلاة المسافرين ، باب فضيلة العمل الدائم : حديث [٧٨٣] وأحمد فى «مسنده» ٦ / ١٨٠ .

(٣)[حسن] الترمذى فى الدعوات ، باب فى دعاء النبى : حديث [٣٥٤٩] ، عن أبى أمامة ، وأخرجه الحاكم [١ / ٣٠٨] وصححه والبيهقى [٢/ ٥٠٢] وحسنه الألبانى فى الأرواء [٤٥٢] .

فصل فى الأسباب الميسرة لقيام الليل

اعلم : أن قيام الليل صعب إلا من وُفق للقيام بشروطه الميسرة له .

فمن الأسباب ظاهر ، ومنها باطن .

فأما الظاهر : فأن لا يكثر الأكل ، كان بعضهم يقول : يا معشر المريدين ، لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً ، فتناموا كثيراً ، فتخسروا كثيراً .

ومنها : أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة .

ومنها : أن لا يترك القيلولة بالنهار ، فإنها تعين على قيام الليل .

ومنها : أن يجتنب الأوزار .

قال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته .

وأما الميسرات الباطنة : فمنها سلامة القلب للمسلمين ، وخلوه من البدع ، وإعراضه عن فضول الدنيا .

ومنها : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل .

ومنها : أن يعرف فضل قيام الليل .

ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى ، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه ، أنه حاضره ومشاهده ، فتحمله المناجاة على طول القيام .

قال أبو سليمان رحمه الله : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا .

وفى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ قال : « إن فى الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه إياه ، وذلك كل ليلة »[(١)] .

(١) [صحيح]مسلم في صلاة المسافرين ، باب فى الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء : حديث [٧٥٧] وأحمد فى المسند [٣/ ٣١٣] .

وإحياء الليل مراتب :

إحداها : أن يحيى الليل كله ، روى ذلك عن جماعة من السلف .

الثانية : أن يقوم نصف الليل ، وهو مروى أيضاً عن جماعة من السلف ، وأحسن الطريق فى هذا أن ينام الثلث الأول من الليل ، والسدس الأخير منه .

المرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل ، فينبغى أن ينام النصف الأول ، والسدس الأخير ، وهو قيام داود عليه السلام .

ففى « الصحيحين » : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه »(١) ونوم آخر الليل حسن ، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة ، ويقلل صفرته .

المرتبة الرابعة : أن يقوم سدس الليل أو خمسه ، والأفضل من ذلك ما كان فى النصف الأخير ، وبعضهم يقول : أفضله السدس الأخير .

المرتبة الخامسة : أن يراعى التقدير ، فإن مراعاة ذلك صعب .

ثم فيما يفعله طريقان :

أحدهما : أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام ، فإذا انتبه قام ، فإذاغلبه النوم نام ، وهذا من أشد المكابدة ، وهو طريق جماعة من السلف .

وفى « الصحيحين » من حديث أنس رضى الله عنه : ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ مصلياً من الليل إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه(٢) . وكان عمر رضى الله عنه يصلى من الليل ما شاء الله ، حتى إذا كان من آخر الليل

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى التهجد ، باب من نام عند السحر : حديث [١١٣١]، ومسلم فى : الصيام ، باب النهى عن صوم الدهر : حديث [١٨٩/ ١١٥٩] ، وأبو داود فى الصوم [٢٤٤٨] والنسائى [١ / ٣٢١] فى قيام الليل وابن ماجة فى الصيام [١٧١٢] والدارمى [١٧٥٢] وأحمد فى المسند [٢ / ١٦٠ ، ٢٠٦] .

(٢)[صحيح] البخارى فى الصوم ، باب ما يذكر من صوم النبى وإفطاره : حديث [١٩٧٢]، ومسلم رقم [١٥٧١] فى الصيام ، باب صيام النبى ﷺ والنسائى [٣/ ٢١٣] واللفظ له .

أيقظ أهله ، فيقول : الصلاة الصلاة .

وقال الضحاك : أدركت أقواماً يستحيون من الله فى سواد هذا الليل من طول الضجعة .

الطريق الثانى : أن ينام أول الليل ، فإذا أخذ حظه من النوم وانتبه ، قام الباقى .

قال سفيان الثورى : إنما هى أول نومة ، فإذا انتبهت لم أقلها ـ يعنى : لم ينم

المرتبة السادسة : أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين ، فقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال : « صلوا من الليل ، صلوا أربعاً ، صلوا ركعتين . . » الحديث (١)

وفى « سنن أبى داود » قال : قال رسول الله ﷺ: « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين ، كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»(٢) وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل ، ويقول : صلوا ركعتين ، فإن الصلاة فى جوف الليل تحط الأوزار .

فهذه طرق قسمة الليل ، فليتخير المريد لنفسه ما يسهل عليه ، فإن صعب القيام عليه فى وسط الليل ، فلا ينبغى أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورد السَّحر ، ليكون قائماً فى الطرفين ، وهذه مرتبة سابعة .

فصل فيمن صعب عليه الطهارة فى الليل

فأما من صعبت عليه الطهارة فى الليل ، وثقلت عليه الصلاة ، فليجلس مستقبل القبلة ، وليذكر الله تعالى ، وليدع مهما قدر . فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع ، ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته ، فليأت به بعد صلاة الضحى . فقد ورد ذلك فى الحديث (٣) .

---

(١) [ضعيف]ابن أبي شيبة ٢/ ٢٧١ ، وهو فى « ضعيف الجامع »رقم [٣٤٨٨] .

(٢) [صحيح]أبو داود فى الصلاة ، باب الحث علي قيام الليل : حديث [١٤٥١]، وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٦٠٣٠].

(٣) [صحيح]مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل : حديث [٧٤٧].
وأبو داود في الصلاة ، باب من نام عن حزبه : حديث [١٣١٣] والترمذى فى الصلاة ، باب ما ذكر فيمن فاته حزبه من الليل حديث [٥٨١] ومالك فى الموطأ [١ / ٢٠٠] .

وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها ، ففى « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو : « لاتكن مثل فلان ، كان يقوم فترك قيام الليل » (١)

فصل فى بيان الليالى والأيام الفاضلة

أما الليالى المخصوصات بمزيد الفضل التى يستحب إحياؤها ، فخمس عشرة ليلة ولا ينبغى للمريد أن يغفل عنهن ، لأنه إذا غفل التاجر عن موسم الربح فمتى يربح ؟! فمن هذه الليالى سبع فى رمضان : الليلة السابعة عشر ، وهى التى كانت صبيحتها وقعة بدر ، والست الباقية هى أوتار العشر « الأخير » إذ فيهن تُطلب ليلة القدر ، وأما الثمانى الأخر : فأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف منه ، وليلة سبع وعشرين منه فإنها ليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة عرفة ، وليلتا العيدين .

وقد ورد صلوات لبعض هذه الليالى وليس فيها ما يثبت .

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يوماً : يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، ويوم سبع وعشرين من رجب (٢)، وهو أول يوم هبط فيه جبْريل على النبى ﷺ، ويوم سبع عشرة من رمضان ، كان فيه وقعة بدر ، ويوم النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ، ويوما العيدين ، والأيام المعلومات ، وهى عشر ذى الحجة ، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق .

ومن فواضل الأيام فى الأسبوع : يوم الاثنين ، والخميس ، وأيام البيض . وفيها فضل كبير مذكور فى فضائل الصوم .

آخر كتاب الأوراد ، وهو آخر ربع العبادات ، وبالله التوفيق .

---

(١) [متفق عليه]البخارى فى التهجد ، باب ما يكره من ترك قيام الليل : حديث[١١٥٢] . ومسلم فى الصيام ، باب النهى عن الصوم الدهر حديث [١٨٥/ ١١٥٩] والنسائى [٣ / ٢٥٣] وابن ماجه فى : إقامة الصلاة : باب ما جاء فى قيام الليل : حديث [١٣٣١] .

(٢) جزم الحافظ ابن حجر بكذب ذلك انظر تبيين العجب ص ٢٠

الربع الثانى من الكتاب

ربـــع الـعـادات

باب فى آداب الأكل والاجتماع عليه والضيافة

وآداب الأكل ، منها ما هو قبله ، ومنها ما هو مع الأكل ، ومنها ما هو بعد الأكل :

فمن القسم الأول : غسل اليدين قبل الأكل ، كما ورد فى الحديث(١) ، لأنها لا تخلو من درن ، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض ، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة ، وهوأدنى إلى التواضع ، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة ، فينصب رجله اليمنى ، ويعتمد على اليسرى ، وينوى بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل ، ولا يقصد به التنعم فقط ، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع . قال النبى ﷺ : « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** »(٢) .

ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع ، وأن يرفع يده قبل الشبع ، ومع فعل ذلك لم يكد يحتاج إلى طبيب ، ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق ، ولا يحتقر اليسير منه ، وأن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده .

القسم الثانى : فى الآداب حالة الأكل : وهو أن يبدأ باسم الله فى أوله ، ويحمد الله تعالى فى آخره .

---

(١) «الوضوء قبل الطعام وبعد الطعام بركة الطعام»
[ضعيف] الحاكم فى « مستدركه » ٤ / ١٠٦ .
وقوله : « الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفى الفقر ، وهو من سنن المرسلين أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ٥ / ٢٣ ـ ٢٤ وعزاه إلى الطبرانى فى « الأوسط » من طريق نهسل بن سعيد وهو متروك ، وحكم عليه الألبانى فى « ضعيف الجامع » رقم [٦١٦٠] بالوضع .

(٢) [صحيح] الترمذى فى الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل : حديث [٢٣٨٠]، وأحمد فى «مسنده» ٤/ ١٣٢ وابن ماجة [٣٣٤٩] فى الأطعمة والحاكم فى المستدرك [٤ / ٣٣٠] وابن حبان فى صحيحه [١٣٤٨ موارد] وهو فى صحيح الجامع (٥٦٧٤).

ومن ذلك أن يأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها ، وأن لا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى ، ولا يذم مأكولاً ، ومن ذلك أن يأكل مما يليه ، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة ، وليأكل بثلاث أصابع ، وإذا وقعت لقمة أخذها .

ومن ذلك أن لا ينفخ فى الطعام الحار ، ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق واحد ، ولا يجمعه فى كفه ، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه ، وكذا كل ماله عجم وثفل ، ولا يشرب الماء فى أثناء الطعام ، فإنه أجود فى باب الطب .

ومن آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه ، وينظر فيه قبل الشرب ، ويمص مصاً لا عباً فقد روى عن على رضى الله عنه : « مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً ، فإن الكباد من العب » [١] .

ولا يشرب قائماً ، ويتنفس فى شربه ثلاثاً .

ففى « الصحيحين » [٢] أن النبى ﷺ كان يتنفس فى الإناء ثلاثاً . والمعنى يتنفس فى شربه فى الإناء ، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس ، لا أن يكون التنفس فى الإناء .

القسم الثالث : من آداب الأكل : ما يستحب بعد الطعام ، وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه ، وأن يسلت [٣] القصعة ، وليحمد الله ، ففى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « أن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » [٤] ويغسل يديه من الغمر [٥] .

---

(١) [ضعيف] أورده فى كنز العمال » رقم [٤١٠٧٦] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٥٢٦١] .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى الأشربة ، باب الشرب بنفسين أو ثلاثة حديث [٥٦٣٠] ، ومسلم فى الأشربة ، باب كراهة التنفس فى نفس الإناء واستحباب التنفس ثلاثاً ، حديث [٢٠٢٨] والترمذى فى الأشربة [١٨٨٤] ، وأبو داود فى الأشربة [٣٧٢٧] وابن ماجة فى الأشربة [٣٤١٦] وأحمد فى المسند [٣ / ١١٩ ، ١٨٥ ، ٢١١]

(٣) يسلت القصعة : يتتبع ما بقى فيها من الطعام ، ويمسحها بالإصبع ونحوها . « النهاية » ٢/ ٣٨٧ .

(٤) [صحيح] مسلم فى الذكر والدعاء؛ باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب : حديث [٢٧٣٤] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ١٠٠ و١١٧ والترمذى فى الأطعمة [١٨١٦] .

(٥) الغَمَر : بالتحريك ، الدسم والزهومة من اللحم . « النهاية » ٣/ ٣٨٥ .

فصل فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الاكل

من ذلك أن لا يبتدئ فى الأكل إلا إذا كان معه من يستحق التقدم لكبر سن أو زيادة فضل ، إلا أن يكون هو المتبرع .

ومنها أن لا يسكتوا على الطعام ، بل يتكلمون بالمعروف ، ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها .

ومن ذلك أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه ، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له : كل ، بل ينبسط ولا يتصنع بالانقباض .

ومن ذلك لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا .

ومن ذلك أن لا يفعل ما يستقذره من غيره ، فلا ينفض يده فى القصعة ، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه ، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمى به ، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ، ولا يغمس اللقمة الدسمة فى الخل ، ولا الخل فى الدسمة ، فقد يكرهه غيره ، ولا يغمس بقية اللقمة التى أكل منها فى المرقة .

فصل فى تقديم الطعام إلي الإخوان

ويستحب تقديم الطعام إلى الإخوان ، روى ذلك عن على رضى الله عنه قال : لأن أجمع إخوانى على صاع من الطعام أحب إلى من أن أعتق رقبة .

وكان خيثمة رحمه الله يصنع الخبيص والطعام الطيب ، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول : كلوا ، فما صنعته إلا لكم .

ويقدم ما حضر من غير تكلف ، ولا يستأذنهم فى التقديم ، بل يقدم من غير استئذان ، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده .

ومن آداب الزائرأن لا يقترح طعاماً بعينه ، وإن خير بين طعامين اختار أيسرهما ، إلا أن يعلم أن مضيفه يسر باقتراحه ، ولا يقصر عن تحصيل ذلك ، فقد

نزل الشافعى رحمه الله على الزعفرانى ، وكان الزعفرانى يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ، ويسلمها إلى الجارية ، فأخذ الشافعى الرقعة وألحق فيها لوناً آخر ، فلما علم الزعفرانى اشتد فرحه .

فصل لا تدخل على قوم يأكلون

ولا ينبغى لأحد إذا علم أن قوماً يأكلون أن يدخل عليهم ، فإن صادفهم من غير قصد ، فسألوه الأكل ، نظر ، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه ، فلا يأكل ، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم ، جاز له أن يأكل .

ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالماً أنه إن أكل من طعامه سر بذلك ، جاز له أن يأكل .

فصل فى آداب الضيافة

ومن آداب الضيافة ، أن يقصد بدعوته الأتقاء دون الفساق ، وقال بعض السلف لا تأكل إلا طعام تقى ، ولا يأكل طعامك إلا تقى [(١)] .

وينبغى أن يقصد الفقراء دون الأغنياء .

وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافتهم ، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش وقطيعة الرحم . وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه ، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر ، بل استعمال السنة فى إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان ، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين ، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة ، أو إذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب .

---

(١) ويشهد له من المرفوع قوله ﷺ « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلاَّ تقى » وهو حديث [صحيح] أخرجه أبو داود فى الأدب ، باب من يؤمر أت يجالس حديث [٤٨٣٢] والترمذى فى الزهد ، باب ما جاء فى صحبة المؤمن حديث [٢٣٩٥] والدارمى فى : الأطعمة : باب من كره أن يطعم طعامه إلاَّ الأتقياء : حديث [٢٠٥٧] ، وابن حبان فى صحيحه [٢٠٤٩ موارد] وهو فى صحيح الجامع [٧٣٤١] .

وأما آداب الإجابة ، فإن كانت دعوة عرس ، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم فى اليوم الأول ، وإن كانت لغيره ، فهى جائزة ، ثم ينبغى أن لا يخص الغنى بالإجابة دون الفقير ، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً ، بل يحضر ، فإن كان تطوعاً وعلم أن فطره يسرُّ أخاه المسلم فليفطر .

فأما إن كان الطعام حراماً فليمتنع من الإجابة ، وكذلك إذا كان ثَمَّة فرش محرمة ، أو إناء محرم ، أو مزمار أو صورة ، وكذلك إذا كان الداعى ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو مفاخراً بدعوته .

وينبغى أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل ، بل ينوى به الاقتداء بالسنة وإكرام أخيه المؤمن ، وينوى صيانة نفسه عمن يسىء به الظن ، فربما ، قيل عنه إذا امتنع : هذا متكبر .

وينبغى أن يتواضع فى مجلسه إذا حضر ، ولا يتصدر ، وإن عين له صاحب الدار مكاناً لم يتعده ، ولا يكثر النظر إلى المكان الذى يخرج منه الطعام ، فإنه دليل على الشره .

فصل فى آداب إحضار الطعام

وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب :

الأول : تعجيله ، فذلك من إكرام الضيف .

الثانى : تقديم الفاكهة أولاً قبل غيرها ، وذلك أصلح فى باب الطب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ [الواقعة : ٢١ ، ٢٢] .

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم ، خصوصاً المشوى ، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريد [١] ، ثم الحلوى ، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد ، وتكملة الأمر صب الماء الفاتر على اليد عند الغسل .

(١) الثريد : ما يفت من الخبز ، ثم يبل بمرق . «المعجم الوجيز » . ص [٨٣] .

الثالث : أن يقدم جميع الألوان الحاضرة .

الرابع : أن لا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم .

الخامس : أن يقدم من الطعام قدر الكفاية ، فإن التقليل من الكفاية نقص فى المروءة .

وينبغى أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام .

فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغى أن يخرج معه إلى باب الدار ، فإنه سنة ، وذلك من إكرام الضيف [١] .

ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه ، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة .

وأما الضيف فينبغى أن يخرج طيب النفس وإن جرى فى حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع ، ولا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه ، ويراعى قلبه فى قدر الإقامة .

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ « إن من السنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار » .
[ضعيف] ابن ماجة فى : الأطعمة : باب الضيافة : حديث [٣٣٥٨] وهو فى «ضعيف الجامع» رقم [١٩٩٦] .

كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به

لايختلف العلماء فى أن النكاح مستحب ، ومندوب إليه ، كثير الفضائل ، وفيه فوائد :

منها : الولد ، لأن المقصود بقاء النسل ، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعى لذلك ، ليبقى جنس الإنسان .

وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته(١) .

وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح(٢) والشفاعة بموت الصغير(٣) .

ومن فوائد النكاح : التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة(٤) .

وفيه ترويح النفس ، وإيناسها بمخالطة الزوجة .

ومنها : تفريغ القلوب عن تدبير المنزل ، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب العيش ، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ « تناكحوا تكثروا ؛ فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » .
[ضعيف] عبد الرزاق رقم [١٠٣٩١] ، وضعفه الألبانى فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٤٨٤] .

(٢) وفى الحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوا له » .
مسلم فى : الوصية : حديث [١٤] ، وأبو داود فى : الوصايا : باب ما جاء فى الصدقة على الميت : حديث [٢٨٨٠] ، والترمذى فى : الأحكام : باب فى الوقف : حديث [١٣٧٦] ، والنسائى فى : الوصايا : باب فضل الصدقة على الميت : حديث [١] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٧٢ .

(٣) وفى الحديث : « ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلاَّ أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » .
البخارى فى : الجنائز : باب فضل من مات له ولد فاحتسب : حديث [١٢٤٨] .

(٤) وفى الحديث : « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه ، فليتق الله فى النصف الباقى » حسنه الألبانى فى « صحيح الجامع » رقم [٤٣٠] .

مع الوحدة ، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته ، ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة ، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقب .

ومن فوائدة أيضاً : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى صلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربية الأولاد[1] ، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، وفضل الرعاية عظيم ، ، وإنما يحترز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقها ، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله عزوجل .

وفى أفراد مسلم ، عن النبىﷺ أنه قال : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أفضلها الذى أنفقته على أهلك »[2] .

فصل فى آفات النكاح

وفى النكاح آفات :

أقواها : العجز عن طلب الحلال ، فإن ذلك يصعب ، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له .

الثانية : القصور عن القيام بحقوق النساء ، والصبر على أخلاقهن وأذاهن ،

---

(١) قال كعب عجرة : مرّ على النبىﷺ رجل ، فرأى أصحاب رسول الله ، ﷺ من جلده ، فقالوا : يا رسول الله ! لو كان هذا فى سبيل الله ! فقال : إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله»
[صحيح] الطبرانى فى « الكبير» ١٩ / ١٢٩ وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٤٢٨] .

(٢) [صحيح] مسلم فى الزكاة ، باب فضل النفقة على العيال والمملوك : حديث [٩٩٤]. وأحمد فى «مسنده » ٢/ ٤٧٣ ,
يشير إلى قوله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، . . . والرجل راع فى بيته ومسئول عن رعيته» البخارى فى : العتق : حديث [٢٥٥٨] ، وأبو داود فى : الخراج : حديث [٢٩٢٨] ، والترمذى فى الجهاد : حديث [١٧٠٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٥ و ٥٤ و ١١١ و ١٢١ .

وفى ذلك خطر ، لأن الرجل راع وهو مسئول عن رعيته .

الثالثة : أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله عزوجل ، فينقضى ليله ونهاره بالتمتع بذلك ، فلا يتفرغ القلب للفكر فى الآخرة والعمل لها .

فهذه مجامع الآفات ، والفوائد ، فالحكم على شخص واحد ، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور ، بل ينبغى للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال ، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد ، بأن كان له مال حلال وحسن خلق ، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل ، فلا شك أن النكاح أفضل ، وإن انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات ، فتركه أفضل ، وهذا فى حق من لم يحتج إلى النكاح ، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه .

فصل فى طيب العشرة

ويعتبر فى المرأة طيب العشرة أمور :

أحدها : الدين ، وهو الأصل ، لقول النبى ﷺ : « عليك بذات الدين »[1] فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها ، وأزرت به . وإن سلكت سبيل الغيرة لم يزل فى بلاء وتكدير عيش .

الثانى : حسن الخُلُق ، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها .

الثالث : حسن الخَلْق ، وهو المطلوب ، إذ به يحصل التحصن ، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة . وقد كان أقوام لا ينظرون فى الحسن ، ولا يقصدون التمتع ، كما روى أن الإمام أحمد رحمه الله اختار امرأة عوراء على أختها ، إلا أن هذا يندر ، والطباع على ضده .

(١) [صحيح] مسلم رقم [٧١٥] فى الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين والترمذى فى النكاح ، باب ما جاء أن المرأة تنكح على ثلاثة خصال حديث [١٠٨٦] .

الرابع : خفة المهر ، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين .

وقال عمر رضى الله عنه : لا تغالوا فى مهور النساء [(١)] .

وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة ، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل .

قال الثورى [(٢)] : إذا تزوج الرجل وقال : أى شىء للمرأة ؟ فاعلم أنه لص .

الخامس : البكارة ، لأن الشرع ندب إلى ذلك ، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب ، فيوجب ذلك الود ، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف ، وهو أيضاً أكمل لمودته لها ، لأن الطبع ينفر من التى مسها غيره .

السادس : أن تكون ولوداً .

السابع : النسب ، وهو أن تكون من بيت دين وصلاح .

الثامن : أن تكون أجنبية .

وكما ينبغى للرجل أن ينظر فى المرأة ينبغى للوالى أن ينظر فى دين الرجل وأخلاقه وأحواله ، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة ، ومتى زوجها من فاسق أو مبتدع ، فقد جنى عليها وعلى نفسه .

قال رجل للحسن : ممن أزوج ابنتى ؟ قال : ممن يتقى الله ، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها .

---

(١) [صحيح] ابن ماجة فى : النكاح : باب صداق النساء : حديث [١٨٨٧] ، والحاكم فى «مستدركه» ٢ / ١٧٦ .

(٢) هو « سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى » .

فصل في آداب المعاشرة
والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج ، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمراً :

الأول : الوليمة فإنها مستحبة .

الثانى : حسن الخلق مع الزوجات . واحتمال الأذى منهن لقصور عقولهن .

وفى الحديث الصحيح : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » (١) .

واعلم : أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها ، والحلم على طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ ، ففى « الصحيحين » ، من حديث عمر رضى الله عنه أن أزواج النبى ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . والحديث مشهور (٢) .

الثالث : أن يداعبها ويمازحها ، وقد سابق ﷺ عائشة رضى الله عنها ، وكان يداعب نساءه ﷺ ، وقال لجابر : « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » (٣) .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته : حديث [٣٣٣١] . ومسلم فى الرضاع ، باب الوصية بالنساء : حديث [٦٢/ ١٤٦٨] والترمذى فى الطلاق [١١٨٨] .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى النكاح ، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها حديث [٥١٩١] ومسلم فى الطلاق ، باب فى الإيلاء واعتزال النساء حديث [١٤٧٩] الترمذى فى تفسير القرآن [٣٣١٨] والنسائى [٤ / ١٣٧] .

(٣) [متفق عليه] البخارى فى الجهاد والسير ، باب استئذان الرجل الإمام حديث [٢٩٦٧] ومسلم فى النكاح ، باب استحباب نكاح البكر حديث [٧١٥] ، والترمذى فى النكاح : باب ما جاء فى تزويج الأبكار : حديث [١١٠٠] ، وابن ماجه فى : النكاح : باب تزويج الأبكار : حديث [١٨٦٠] والدارمى فى : النكاح : باب فى تزويج الأبكار : حديث [٢٢١٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٣ / ٣٠٨ و ٣١٤ .

الرابع : أن يكون ذلك بقدر ، ولا ينبسط فى الدعابة إلى أن تسقط هيبته بالكلية عند المرأة ، بل ينبغى أن يقصد طريق الاقتصاد .

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه عتب على بعض عماله ، فكلمته امرأة عمر رضى الله عنه فيه فقالت : يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه ؟ وقال : يا عدوة الله ، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يُلعب بك ثم تُتركين .

الخامس : الاعتدال فى الغيرة ، وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التى يخشى غوائلها ، ولا يبالغ فى إساءة الظن ، وقد نهى النبى ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً (١) .

السادس : الاعتدال فى النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير ، ولا ينبغى للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب ، فإن ذلك مما يوغر الصدر .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدرى به كيف معاشرة الحائض ، ويلقنها الاعتقاد الصحيح ، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت ، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة ، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر ، وإذا انقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا لا يكاد النساء يراعينه .

الثامن : إذا كانت له نسوة ينبغى أن يعدل بينهن ، والعدل فى المبيت والعطاء ، لا فى الحب والوطء ، فإنه ذلك لا يملكه ، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

التاسع : النشوز ، فإذا كان النشوز من المرأة ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكنه ينبغى أن يتدرج فى تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف ، فإن لم

---

(١)[متفق عليه] البخارى فى العمرة ، باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة حديث [١٨٠١] ومسلم ، وأبو داود فى الجهاد ، باب فى الطروق حديث [٢٧٧٦] والترمذى فى الرضاع باب ١٧ حديث [١١٧٢]، والدارمى فى : الاستئذان : باب فى النهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً : حديث [٢٦٣١] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ١٧٥ و ٣ / ٣٠٢ .

ينفع هجرها فى المضجع ، فولاها ظهره أو انفرد عنها بالفراش ، وهجرها فى الكلام فيما دون ثلاثة أيام ، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح ، وهو أن لا يدمى لها جسماً ولا يضرب لها وجهاً .

العاشر : فى آداب الجماع ، يستحب البداءة بالتسمية ، والانحراف عن القبلة ، وأن يتغطى هو وأهله بثوب ، وأن لا يكونا متجردين ، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل . ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة ، ثم إذا قضى وطره فليتمهل لتقضى وطرها ، فإن إنزالها ربما تأخر .

ومن الآداب : أن تأتزر الحائض بإزار من حقويها إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها ، ولا يجوز وطؤها فى الحيض ، ولا فى الدبر ، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ .

ومن الآداب : أن لا يحلق شعره ، ولا يقلم أظافره ، ولا يخرج دماً وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة .

الحادى عشر : فى آداب الولادة ، وهى ستة :

الأول : أن لايكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لا يدرى فى أيهما الخير .

الثانى : أن يؤذن فى أذن المولود حين يولد .

الثالث : أن يسميه اسماً حسناً .

وفى أفراد مسلم : « إن أحب أسمائكم إلى الله عزوجل عبد الله وعبد الرحمن » [1] ، ومن كان له اسم مكروه ، استحب تبديله ، فقد غير النبى ﷺ

---

(١)[صحيح] مسلم فى الأدب ، باب النهى عن التكنى بأبى القاسم : حديث [٢١٣٢] . والترمذى فى الأدب ، باب ما جاء ما يستحب من الأسماء : حديث [٢٨٣٣و٢٨٣٤] ، وأبو داود فى الأدب ، باب فى تغيير الأسماء حديث [٤٩٤٩] والترمذى فى : الأدب : باب ما جاء ما يستحب من الأسماء : حديث [٢٨٣٣] ، والنسائى فى : كتاب الخيل : باب ما يستحب من شية الخيل : حديث [١] وابن ماجة فى : الأدب حديث [٣٧٢٨] والدارمى فى : الاستئذان : حديث [٢٦٩٥]، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ٣٤٥ .

أسماء جماعة ، وقد كره من الأسـماء : أفلح ، ونافع ، ويسار ، ورباح ، وبركة ، لأنه يقال : أهو ثمة ؟ فيقال : لا[١] .

الرابع : العقيقة عن الذكر شاتان ، وعن الأنثى شاة .

الخامس : أن يحنكه بتمرة أو حلاوة .

السادس : الختان .

الثانى عشر : مما يتعلق بالزواج الطلاق ، وهو أبغض المباحات إلى الله[٢] عزوجل فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب ، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها ، فإذا أراد الطلاق فليراع فيه أربعة أشياء .

الأول : أن يطلقها فى طهر لم يصبها فيه ، لئلا تطول عليها العدة .

الثانى : أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم .

الثالث : أن يتلطف فى الأمر فى الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع ، فقد روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم ، فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق .

الرابع : أن لا يفشى سرها ، وفى الحديث الصحيح فى أفراد مسلم : « **إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ، ثم**

---

(١)[صحيح] مسلم فى الأدب ، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة حديث [٢١٣٨] وأبو داود فى الأدب ، باب فى تغيير الاسم القبيح حديث [٤٩٥٨ ، ٤٩٥٩ ، ٤٩٦٠] والترمذى فى : الأدب : باب ما يكره من الأسماء : حديث [٢٨٣٦] وابن ماجة فى : الأدب : باب ما يكره من الأسماء : حديث [٣٧٢٩ ، ٣٧٣٠] ، والدارمى فى : الاستئذان : باب ما يكره من الأسماء : حديث [٢٦٩٦] ، وأحمد فى «مسنده» ٥ / ١٠ و ٢١ .

(٢)[ضعيف] رواه أبو داود فى الطلاق ، باب فى كراهية الطلاق حديث [٢١٧٨] بلفظ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وابن ماجة فى النكاح رقم [٢٠١٨] وضعفه الألبانى فى الأرواء [٢٠٤٠]، وفى «ضعيف الجامع» رقم [٤٤] .

ينشر سرها »[(١)] .

وروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقيل له : ما الذى يريبك منها؟ فقال : العاقل لا يهتك سراً ، فلما طلقها قيل له : لم طلقتها ؟ قال : ما لى ولامرأة غيرى . فهذا كله فى بيان ما على الزوجة والزوج .

القسم الثانى : من آداب المعاشرة . . . ما على المرأة لزوجها .

عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها »[(٢)] .

وفى هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته ، وحقوقه عليها كثيرة ، وأهمها أمران :

أحدهما : الستر والصيانة .

الثانى : القناعة ، وعلى هذا كان النساء فى السلف ، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله : إياك وكسب الحرام ، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار

ومن الواجب عليها : أن لا تفرط فى ماله ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن كان بغير رضاه ، كان له الأجر وعليها الوزر .

وينبغى لوالدتها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة ، وينبغى للمرأة أن تكون قاعدة فى بيتها ، لازمة لمغزلها ، وقليلة الكلام لجيرانها ، كثيرة الانقباض فى حال غيبة زوجها ، تحفظه غائباً وحاضراً ، وتطلب مسرته فى جميع الأحوال ، ولا تخونه فى نفسها ولا فى ماله ، ولا توطئ فراشه من يكره ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه ، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها ، قائمة بخدمة الدار فى كل ما أمكنها ، ولتكن مقدمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقاربها .

---

(١) [صحيح] مسلم فى النكاح ، باب تحريم إفشاء سرّ المرأة : حديث [١٤٣٧] .

(٢) [صحيح] أبو داود فى النكاح ، باب ما جاء فى حق الزوج على المرأة حديث [٢١٤٠] وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٦٩ ، والترمذى فى الرضاع ، باب ما جاء فى حق الزوج على المرأة حديث [١١٥٩] وصححه الألبانى فى صحيح الجامع [٥٢٩٥] .

كتاب آداب الكسب والمعاش
وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم : أن الله سبحانه وتعالى بلطيف حكمته جعل الدنيا دار تسبب واكتساب، تارة للمعاش ، وتارة للمعاد ، ونحن نورد آداب التجارات ، والصناعات ، وضرورة الاكتساب وأسبابها ونشرحها .

فصل في فضل الكسب والحث عليه

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ [النبأ : ١١]، فذكره في معرض الامتنان وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠] فجعلها نعمة ، وطلب الشكر عليها ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[البقرة : ١٩٨]

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « طلب الحلال جهاد »(١) و « إن الله ليحب العبد المحترف »(٢) وفي أفراد البخاري أن النبي ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده »(٣) .

وفي حديث آخر : « أن زكريا عليه السلام كان نجاراً »(٤) .

---

(١) [ضعيف] ابن عدي ٦/ ٢٢٦٧ ، والقضاعي في مسنده (٨٢) وهو في «ضعيف » الجامع رقم [٣٦١٩] .

(٢) [ضعيف] رواه ابن عدي [١ / ٣٦٩] والطبراني في الكبرى [١٣٢٠٠] وفي سنده أشعث بن سعيد البصري قال الحافظ في التقريب : متروك ، وأورده في «كنز العمال » رقم [٩٢٣٩، ٩١٩١] . وهو في «ضعيف الجامع» رقم [١٧٠٤] .

(٣) [صحيح] البخاري في البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده : حديث [٢٠٧٢] .

(٤) [صحيح] مسلم الفضائل ، باب من فضائل زكرياء : حديث [٢٣٧٩]، وأحمد في «مسنده» ٢/ ٢٩٦و ٤٠٥و ٤٨٥ وابن ماجة في التجارات رقم [٢١٥٠] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان آدم عليه السلام حراثاً ، ونوح نجاراً ، وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زرّاعين ، وصالح تاجراً ، وداود زراداً ، وموسى وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاةً .

وأما الآثار فروى أن لقمان الحكيم قال لابنه : يابنى استعن بالكسب الحلال ، فإنه ما افتقر أحد قط أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به .

وقيل لأحمد بن حنبل : ما تقول فى رجل جلس فى بيته أو مسجده وقال : لا أعمل شيئاً حتى يأتينى رزقى ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبى ﷺ : « إن الله جعل رزقى تحت ظل رمحى »[١]، وقال حين ذكر الطير : «تغدوا خماصاً وتروح بطاناً »[٢] .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون فى البر والبحر ، ويعملون فى نخلهم والقدوة بهم .

وقال أبو سليمان الدارانى[٣]: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبَّد ، فإن قيل : قال أبو الدرداء : زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فاخترت العبادة ؟ فالجواب : أنَّا لا نقول : إن التجارة لا تراد لذاتها ، بل للاستغناء عن الناس ، وإغناء العائلة ، وإفاضة الفضل على الإخوان فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه ، والتفاخر ونحو ذلك ، فهو مذموم ، وليكن العقد الذى به الاكتساب جامعاً لأمور أربعة : الصحة ، والعدل ، والإحسان ، والشفقة على الدين .

---

(١) [صحيح]أحمد فى «مسنده »٢/ ٥٠و ٩٢ وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٢٨٣١].

(٢) [صحيح]الترمذى فى الزهد ، باب فى التوكل على الله : حديث [٢٣٤٤]وابن ماجة فى الزهد ، باب التوكل واليقين : حديث [٤١٦٤]. وأحمد فى «مسنده » ١/ ٣٠و٥٢ والحاكم [٤ / ٣١٨] عن عمر .

(٣) أبو سليمان الدارانى : عبد الرحمن بن عطية ، نسبة إلى «داران» قرية من قرى دمشق .

الأمر الأول : فى الصحة ، فإن كان العقد بيعاً ، فله ثلاثة أركان : العاقد والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الأول : أما العاقد ، فينبغى للتاجر أن لا يعامل المجنون ، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه ، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له ، وكذلك الصبى لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصى ، فيصير بمنزلة العبد المأذون له ، وعند الشافعى لاتصح عقود الصبى ، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة ، يصح بيعه وشراؤه ، وعند الشافعى لا تصح .

وأما الظلمة ومن أكثر ماله حرام ، فلا ينبغى أن يعامل إلا فى شىء يعرف أن عينه حلال .

الركن الثانى : المعقود عليه ، وهو المال المقصود نقله ، ولا يجوز بيع الكلب ، لأنه نجس العين . فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما ، سواء قلنا : إنهما طاهران أو نجسان ، ولا يجوز بيع الحشرات ، ولا بيع العود والمزمار ، والصور المصنوعة من الطين ونحوه ، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حساً ولا شرعاً، أما الحس فكالطير فى الهواء ، والعبد الآبق ونحوهما ، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير ، أو الولد دون الأم ، فهذا ممنوع تسليمه شرعاً .

الركن الثالث : اللفظ ، وهو الإيجاب والقبول ، فإن تقدم القبول للإيجاب لم يصح فى إحدى الروايتين ، ويصح فى الأخرى ، سواء كان بلفظ الماضى أو بلفظ الطلب ، فإن تبايعا بالمعاطاة ، فظاهر كلام أحمد صحة البيع .

وقال القاضى أبو يعلى [1] : لا يصح ذلك إلا فى الأشياء اليسيرة ، وهذا أصلح الأقوال ، أعنى أن تكون المعاطاة فى الأشياء المحقرة دون النفيسة ، لجريان العادات بذلك ، وينبغى من طريق الورع أن يشرك الإيجاب والقبول ليخرج عن

(١) القاضى أبو يعلى : الخليل بن عبد الله بن أحمد القزوينى له ترجمة فى : تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٢٣ ، والعبر ٣ / ٢١١ .

شبهة الخلاف ، وقد شدد الله تعالى فى أمر الربا ، و ينبغى أن يحذر من الوقوع فيه ، وهو قسمان : ربا الفضل ، وربا النسيئة ، فينبغى أن يعرف ذلك وما يجرى فيه الربا ، ويحتاج أيضاً أن يعرف شروط السَّلَم والإجارة والمضاربة ، والشركة ، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة .

فصل فى العدل واجتناب الظلم فى المعاملة

الأمر الثانى : وهو العدل ، واجتناب الظلم فى المعاملة ، ونعنى الظلم ما يتضرر به الغير ، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره وما يخص .

الأول : الاحتكار ، وهو منهى عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس .

وصفته : أن يستكثر من ابتياع الغلات فى الغلاء ، ويتربص بها زيادة الأسعار ، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها ، فليس محتكراً ، وكذلك إذا كان الشراء فى حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس ، وفى الجملة تكره التجارة فى القوت ، لأنه قوام الآدمى .

القسم الثانى : ما يخص ضرره ، نحو أن يثنى على السلعة بما ليس فيها ، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشترى . وقد قال النبى ﷺ : « من غشنا فليس منا »[1] .

واعلم : أن الغش حرام فى البيوع ، وفى الصناعات ، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبين ، فقال : لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه .

---

(١) [صحيح] مسلم فى الإيمان ، باب قول النبى «من غشنا فليس منا» : حديث [١٠١] ، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٤٩٨ وأبو داود فى الإجارة ، باب فى النهى عن الغش [٣٤٥٢] والترمذى فى البيوع ، باب ما جاء فى كراهية الغش فى البيوع حديث [١٣١٥] وابن ماجة فى التجارات ، باب النهى عن الغش [٢٢٢٤] والدارمى فى : البيوع : باب فى النهى عن الغش : حديث [٢٥٤١] وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٤٩٨ .

وينبغى للتاجر أن يحقق الوزن ، ولا يتخلص فى هذا حتى يرجح إذا أعطى ، وينتقص إذا أخذ ، ومتى خلط العلاف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف ، وكذلك القصاب إذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله .

وقد نهى عن النجش[(١)] ، وهو أن يزيد فى السلعة من لا يريد شراءها لَيغُرّ المشترى ونهى عن التصرية[(٢)] .

فصل فى الإحسان بالمعاملة

الأمر الثالث : فى الإحسان بالمعاملة ، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان ، فمن الإحسان المسامحة فى البيع ، وأن لا يغبنه فى الربح بما لا يتغابن فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته ، فينبغى أن يمتنع البائع من قبول ذلك ، فإن ذلك من الإحسان .

ومن ذلك أنه إذا أراد استيفاء الثمن أوالدين ، فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض ، وتارة بالإنظار ، وتارة بالتساهل ، وتارة فى جودة النقد .

ومن الإحسان : أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متضرر بالبيع ، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة ، وما لصاحبها من الأجر والثواب .

فصل فى شفقة التاجر على دينه

الأمر الرابع : فى شفقة الرجل على دينه فيما يخصه ويعم آخرته ، ولا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، بل يراعى دينه ، وإنما تتم شفقته على دينه

(١) [**متفق عليه**] البخارى فى البيوع ، باب النجش حديث [٢١٤٢] ، ومسلم فى البيوع ، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه حديث [١٥١٥] ومالك فى الموطأ [٢ / ٦٨٣] فى البيوع وابن ماجة [١٢٧٢] فى التجارات ، باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه ، والنسائى فى : البيوع : باب بيع الحاضر للبادى : حديث [٥] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٦٣ و ١٠٨ ، ١٥٦ .

(٢) التصرية : جمع اللبن فى ضرع الناقة أو البقرة أو الشاة ، وتركه أياماً ، فإذا حلبها المشترى استغزرها، وإنما نهى عنه لأنه خداع وغش . « النهاية » ٣/ ٢٧ .

بمراعاة ستة أشياء :

الأول : حسن النية فى التجارة ، فَلْيَنْوِ بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية العيال ، ليكون بذلك من جملة المجاهدين ، ولينوِ النصح للمسلمين .

الثانى : أن يقصد القيام فى صناعته أوتجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش ، إلا أن من الصناعة ما هو مهم ، ومنها ما يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة أو طلب التنعم ، فليشتغل بصناعة مهمة ، ليكون فى قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً ، وليتجنب صناعة الصياغة ، والنقش ، وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ما يزخرف به ، فإنه مكروه .

ومن **المعاصى** : خياطة الخياط القباء الديباج للرجل ، ويكره أن يكون جزاراً ، لأنه يوجب قساوة القلب ، أو حجاماً ، أو كناساً لما فيه مباشرة النجاسة ، وفى معناه الدباغ .

ولايجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، والعبادات ، وفروض الكفايات .

الثالث : أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وسوق الآخرة المساجد ، فينبغى أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته ، فيواظب على الأوراد ، وقد كان صالحو السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة ، ووسطه للتجارة ، وإذا سمع أذان الظهر والعصر ، ينبغى أن يترك المعاش اشتغالاً بأداء الفرض .

الرابع : أن يلازم ذكر الله تعالى فى السوق ، ويشتغل بالتسبيح والتهليل .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، فلا يكون أول من يدخل السوق ، ولا آخر من يخرج منها .

السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتوقى مواقع الشبه ومواضع الريب ، ولا يقف مع الفتاوى ، بل يستفتى قلبه فيما يحز فى القلب .

كتاب الحلال والحرام

اعلم : أن طلب الحلال فرض على كل مسلم ، وقد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال ، وقالوا : لم يبق منه إلا الماء الفرات ، والحشيش النبات ، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة ، فلما وقع لهم هذا ، وعلموا أنه لابد لهم من الأقوات توسعوا فى الشبهة والحرام ، وهذا من الجهل ، وقلة العلم ، فإن فى : «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : «الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات » [(١)] .

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها ، واستطار فى الدين شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة .

ونحن نوضح ذلك فى أقسام :

القسم الأول : فى فضيلة طلب الحلال ، وذم الحرام ، ودرجات الحلال والحرام .

قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾[المؤمنون : ٥١] والطيبات : الحلال ، فأمر بذلك قبل العمل ، وقال فى ذم الحرام : ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾[البقرة : ١٨٨] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » ، وذكرالحديث إلى قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ! ومطعمه حرام ، ومشربه

---

(١) [صحيح]البخارى فى الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه حديث :[٥٢]، ومسلم فى المساقاة ، باب أخذ الحلال : حديث [١٥٩٩] وأبو داود فى البيوع [٣٣٢٩] والنسائى [٧/ ٢٤١] والترمذى فى : البيوع : باب ما جاء فى ترك الشبهات : حديث [١٢٠٥] ، والدارمى فى : المقدمة : باب الفتيا وما فيه من الشدة : حديث [١٦٨] والبيوع : باب فى الحلال بين والحرام بين : حديث [٢٥٣١] ، وأحمد فى « مسنده » ٤ / ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١ .

حرام وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » رواه مسلم [(١)] .
روى فى ذلك غير حديث .

وروى أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن تُستجاب دعوته ، فقال له : « أطب طعمتك تُستجب دعوتك » [(٢)] .

وقد كان السلف ينظرون فى الحلال ويدققون فيه ، فأكل أبو بكر الصديق رضى الله عنه شيئاً من شبهة ثم قاءه .

فصل فى درجات الحلال والحرام

اعلم : أن الحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ، والحرام كله خبيث ولكن بعضه أخبث من بعض ، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ، ولكنه يقول : هذا حار فى الدرجة الأولى ، وهذا فى الدرجة الثانية ، وهذا فى الثالثة ، وهذا فى الرابعة ، مثال ذلك فى الحرام المأخوذ بعقد فاسد ، حرام ولكنه ليس فى درجة المغصوب على سبيل القهر ، بل المغصوب أغلظ ، إذ فيه إيذاء الغير ، وترك طريق الشرع فى الاكتساب ، وليس فى العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط ، وكذلك المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أويتيم ، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق .

فصل « فى درجات الورع »

والورع له درجات أربع :

الدرجة الأولى : وهى درجة العدول عن كل ما تقتضى الفتوى تحريمه ، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة .

---

(١) [صحيح] مسلم فى الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها : حديث [١٠١٥] ، وأحمد فى «مسنده» ٢/ ٣٢٨ .

(٢) [ضعيف] أورده الهيثمى فى «مجمع الزوائد» ١٠/ ٢٩٥ : حديث [١٨١٠١] ، وعزاه إلى الطبرانى فى «الأوسط» ، وقال : وفيه من لم أعرفهم .

الدرجة الثانية : الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها ، ولكن يستحب ، كما يأتى فى قسم الشبهات . ومن هذا قوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[١] .

الدرجة الثالثة : الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع فى الحرام .

الدرجة الرابعة : الورع عن كل ماليس لله تعالى ، وهو ورع الصديقين ، مثال ذلك ما روى عن يحيى بن يحيى النيسابورى رحمة الله عليه أنه شرب دواءً ، فقالت له امرأته : لو مشيت فى الدار قليلاً حتى يعمل الدواء ، فقال : هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسى منذ ثلاثين سنة . فهذا الرجل لم تحضره نية فى هذه المشية تتعلق فى الدين ، فلم يقدم عليها ، فهذا من دقائق الورع .

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية ، وبينهما درجات فى الاحتياط ، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً ، كان أسرع جوازاً على الصراط ، وأخف ظهراً ، وتتفاوت المنازل فى الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات فى الورع ، كما تتفاوت دركات النار فى حق الظلمة بحسب درجات الحرام ، فإن شئت فزد فى الاحتياط ، وإن شئت فترخص ، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص .

القسم الثانى : فى مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام ، وحديث النعمان بن بشير رضى الله عنه نص فى هذه الأقسام الثلاثة ، وهى الحلال والحرام وما بينهما ، والمشكل فيها هو المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس ، وهو الشبهة .

ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول : الحلال المطلق الذى لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه ، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليه تحريماً أو كراهية .

مثال ذلك الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد .

---

(١) [صحيح] الترمذى فى صفة القيامة ، باب حدثنا عمرو بن على : حديث [٢٥١٨] ، والنسائى فى الأشربة ، باب الحث على ترك الشبهات : [٨ / ٣٢٧] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٢٠٠ و ٣ / ١١٢ و١٥٣ ، وهو فى صحيح الجامع [٣٣٧٧] .

الحرام المحض : ما فيه صفة محرمة ، كالشدة فى الخمر ، والنجاسة فى البول ، أو حصل بسبب منهى عنه ، كالمتحصل بالظلم والربا ، فهذان الطرفان ظاهران ، ويلتحق بهما ما تحقق أمره ، ولكن يحتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه ، فإن صيد البر والبحر حلال ، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة ، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت ، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء ، فمساكنة ذلك الاحتمال فى الصيد ورع الموسوسين ، لأنه وهم مجرد لا دلالة عليه ، فلو دل عليه دليل ، مثل أن يجد فى الظبية جرحاً لا يقدر عليه ، إلا بعد الضبط ، كالكى ، ويحتمل أن يكون غيره ، فهذا موضع الورع .

وحد **الشبهة** ما تعارض فيه اعتقادات صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين .

ومثالات الشبهة كثيرة ، والمهم منها مثالان :

المثال الأول : الشك فى السبب المحلل أو المحرم ، وينقسم إلى أربعة أنواع :

النوع الأول : أن يكون الحل معلوماً من قبل ، ثم يقع الشك فى المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ، ويحرم الإقدام عليها ، مثاله أن يرى صيداً فيجرحه فيقع فى الماء فيصادفه ميتاً ، ولا يدرى هل مات بالغرق أو بالجرح ؟ فهذا حرام ، لأن الأصل التحريم .

النوع الثانى : أن يعرف الحل ويشك فى المحرم ، فيكون الأصل الحل ، والحكم له كما لو طار طائر ، فقال رجل : إن كان هذا غراباً فامرأته طالق ، وقال آخر : وإن لم يكن غراباً ، فامراته طالق ، ثم التبس الأمر ، فإنا لانقضى بالتحريم فى واحد منهما ، ولكن الورع اجتنابها وتطليقها .

النوع الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ، مثاله أن يرمى إلى صيد فيغيب عنه ، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه ، فهذا الظاهر فيه الحل ، لأن الاحتمال إذا

لم يستند إلى دليل التحق بالوسوسة ، فأما إن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالنوع الأول .

النوع الرابع : أن يكون الحل معلوماً ، ولكن يغلب على الظن طريان المحرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعاً ، مثاله أن يؤدى اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب عليه الظن ، فتوجب تحريم شربه ، كما أوجب منع الوضوء به .

المثال الثانى : أن يختلط الحرام بالحلال ، ويشتبه الأمر فيه ، وذلك على أضرب :

أحدها : إذا اختلطت ميتة بمذكاة ، أو بعشرة من المذكيات ، ونحو ذلك من العدد المحصور ، ومثله أن تشتبه أخته بأجنبيات ، فهذه شبهة يجب اجتنابها .

الثانى : أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اشتبهت أخته أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم اجتناب نكاح أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن ، لأن فى تحريمهن حرجاً كبيراً ، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً ، لم يلزمه ترك الشراء والأكل ، لأن فى ذلك حرجاً ، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه أن فى الناس من يرابى ، وما تركوا الدراهم بالكلية ، وأن مَجَنّاً سُرق فى زمانه ، وما تركوا شراء مجن ، فاجتناب هذا من ورع الوسوسة .

الثالث : أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر ، كحكم الأموال فى زماننا هذا ، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شىء بعينه ، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، فإن لم يكن له علامة ، فتركه ورع ، ولا يحرم ذلك ، لأنه قد علم فى زمانه ﷺ والخلفاء بعده أن أثمان الخمور ودراهم الربا وغلول الغنيمة اختلطت بالأموال ، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق ، ولولا صحة ذلك لانسدَّ باب جميع التصرفات ، فإن الفسق يغلب على الناس ، لكن الأصل فى

الأموال الحل ، وإذا تعارض أصل وغالب ، ولا أمارة على الغالب ، حكم بالأصل ، كما قلنا فى طين الشوارع وأوانى المشركين ، فقد توضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية ، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة ، وكانت الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة .

ومن تأمل أحوال الدباغين والصابغين ، علم غلبة النجاسة عليهم ، فيدل ذلك على أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة ، أو يكون عليها علامة ، فأما الظن الذى يستفاد من رد الوهم إلى مجارى الأحوال ، فلم يعتبروه ، فإن قيل : قد كانوا يتوسعون فى أمور الطهارة ، ويحترزون من شبهات الحرام ، فما الفرق ؟

قلنا : إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل ، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة وجب اجتنابها فصحيح ، وأما تورعهم عن الشبه ، فكان بطريق كف النفس عما ليس به مخافة ما به بأس ، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس ، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال ، والله أعلم .

القسم الثالث : من الكتاب فى الحلال والحرام والبحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإهمال ومظانها .

اعلم : أنه لو قدم لك الطعام أو أهديت لك هدية ، أو أردت أن تشترى شيئاً من شخص فليس لك أن تقول : هذا مما لا أتحقق حله ، فأريد أن تفتش عنه وليس لك أن تترك الحث مطلقاً ، بل السؤال واجب مرة ، وحرام مرة ، ومندوب مرة ، ومكروه مرة .

والقول الشافى فيه : أن مظنة السؤال الريبة ، وهى تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال ، أما ما يتعلق بصاحب المال ، فنحو أن يكون مجهولاً ، وهو الذى ليس عليه قرينة تدل على ظلمه ، كزى الأجناد ، ولا على صلاحه ، كثياب أهل العلم والزهد ، فها هنا لا يجب السؤال ولا يجوز ، لأن فيه هتك المسلم

وإيذاءه ، ولا يقال لهذا : إنه مشكوك فيه ، لأن المشكوك فيه الذى تحصل فيه الريبة بدلالة ، مثل أن يكون على خلقة الأتراك ، وأهل البوادى المعروفين بالظلم ، وقطع الطريق ، فهذا يجوز معاملته ، لأن اليد تدل على الملك ، وهذه الدلالات ضعاف ، إلا أن الترك من الورع .

وأما ما يتعلق بالمال ، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال ، كما إذا طرح فى السوق أحمال من طعام مغصوب فاشتراها أهل السوق ، فإنه لا يجب على من يشترى فى تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه ، إلا أن يظهر أن أكثر ما فى أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب .

وكذلك نقول فى رجل له مال حلال خالطه حرام ، مثل أن يكون تاجراً يعامل معاملات صحيحة ويرابى ، فهذا إن كان الأكثر من ماله حراماً ، لم تجز قبول ضياقته ولا هديته إلا بعد التفتيش ، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال جاز ، وإلا ترك و إن كان الحرام أقل ، فالمأخوذ شبهة ، والورع تركه .

واعلم : أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة ، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المفضية له ، بأن لا يكون المسئول متهماً ، فإن كان متهماً وعلمت أن له غرضاً فى حضورك أو قبول هديته ، فلا ثقة بقوله ، وينبغى أن يسأل غيره .

القسم الرابع : فى باب الحلال والحرام ، وكيفية خروج التائب عن المظالم المالية .

اعلم : أن من تاب وفى يده مال مختلط ، فعليه تمييز الحرام وإخراجه ، فإن كان معلوم العين ، فأمره سهل ، وإن كان ملتبساً مختلطاً ، فإن كان من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، وكان معلوم القدر ، ميز القدر ، فإن أشكل فله طريقان :

أحدهما : الأخذ بغالب الظن .

والثانى : الأخذ باليقين ، وهو الورع .

فإذا أخرج المال الحرام ، فإن كان له مالك معين ، وجب صرفه إليه وإلى وارثه ، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة ، جمع ذلك كله وصرفه إليه ، وإن يئس من معرفة المالك ولم يدر أمات عن وراث أم لا ؟ فليتصدق به ، وإن كان ذلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين .

مسألة : إذا كان فى يده مال حلال وشبهة ، فليخص نفسه بالحلال ، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسجار التنور ، وأصل هذا قوله ﷺ فى كسب الحجام : « اعلفه ناضحك » (١) .

ولو كان فى يد أبويه حرام فليمتنع من مؤاكلتهما ، فإن كان شبهة داراهما ، فإن لم يقبلا تناول اليسير .

وقد روى أن أم بشر الحافى ناولته تمرة فأكلها ، ثم صعد الغرفة فقاءها .

القسم الخامس : فى إدرار السلاطين وصلاتهم ، وما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ، ونحو ذلك .

اعلم : أن من أخذ مالاً من السلطان فلابد أن ينظر فى مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو ، وفى صفته التى يستحق بها الأخذ ، وفى مقدار الذى يأخذه ، هل يستحقه ؟

وقد تورع جماعة عن ذلك ، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به .

---

(١) [صحيح]أبو داود فى البيوع ، باب فى كسب الحجام : حديث [٣٤٢٢]. والترمذى فى البيوع ، باب ما جاء فى كسب الحجام : حديث [١٢٧٧]، وابن ماجة فى التجارات ، باب كسب الحجام حديث [٢١٦٦]، ومالك فى : الاستئذان : باب ما جاء فى الحجامة : حديث [٢٨] ، وأحمد فى «مسنده » ٣/ ٣٠٧ و ٣٨١ .

وأما في هذا الزمان ، فالاحتراز عنه أولى ، لأنه قد علم طريق الأخذ ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار .

وقد كان بعض السلف لا يأخذ ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا ، وهذا ليس بشيء ، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك في مقام مظلوم ، وليس المال مشتركاً .

فصل « في أحوال من يخالط الأمراء والعمال والظلمة »

اعلم : أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن تدخل عليهم وهي شرها .

فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « من أتى أبواب السلاطين افتتن »[(١)] «وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً » [(٢)] .

وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن فقيل : وما مواقف الفتن ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه .

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد : ألا تأتينا ؟ فقال : أخاف إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني حرمتني ، وليس في يدك ما أريده ، ولا في يدي ما أخافك عليه ، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك ، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عني .

فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين .

وأيضاً فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصى الله عزوجل ، إما بفعله أو قوله أو سكوته .

---

(١) [صحيح]أبو داود في الصيد ، باب في اتباع الصيد : حديث [٢٨٥٩]، والترمذي في الفتن ، حدثنا محمد بن بشار حديث [٢٢٥٦]، والنسائي في : الصيد والذبائح : باب اتباع الصيد : حديث [١] ، وأحمد في«مسنده »١/ ٣٥٧ ، وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع [٦٢٩٦] .

(٢) [ضعيف]أبو داود في الصيد ، باب في اتباع الصيد : حديث [٢٨٦٠]. وأحمد في «مسنده»٢/ ٣٧١و٤٤٠وهو في ضعيف الجامع [٤٩٩٥] ، والضعيفة [٤٤١٨] .

أما الفعل : فإن الدخول عليهم فى غالب الأحوال يكون إلى أماكن مغصوبة ، ولو فرض أنه فى موضع غير مغصوب ، ففى الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام ، والانتفاع بذلك حرام ، ولو فرض ذلك حلالاً ، فربما يقع فى غيره من المحذورات ، إما أن يسجد له ، أو يمتثل له قائماً ، ويخدمه ، ويتواضع له بسبب ولايته التى هى آلة ظلمه .

والتواضع للظالم معصية ، بل من تواضع لغنى لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضى التواضع ، ذهب ثلثا دينه ، فكيف إذا تواضع للظالم ؟!

وتقبيل اليد له معصية ، إلا أن يكون عند خوف ، أو لإمام عادل ، أو عالم يستحق ذلك ، فأما غير ما ذكرنا ، فلا يباح فى حقهم إلا مجرد السلام .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم ، أو يثنى عليه ، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله ، أو تحريك رأسه ، أو بتبشار فى وجهه ، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه ، والحرص على طول بقائه ، فإنه فى الغالب لا يقتصر على السلام ، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام .

وقد جاء فى الأثر : « من دعا لظالم بطول البقاء ، فقد أحب أن يُعصى الله »(١)

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول : أصلحك الله ، أو وفقك الله ، أو نحو ذلك .

وأما السكوت : فهو أن يرى فى مجالسهم من الفرش الحرير ، وأوانى الفضة ، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير ، ونحو ذلك ، فيسكت . وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت فهو شريك فيه ، وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء ، فإن السكوت عن ذلك كله حرام ، لأنه يجب عليه الأمر

---

(١) أورده الشوكانى فى «الفوائد المجموعة » ص [٢١١] : حديث [١٦]، وقال : قال فى «الآلىء»هو من قول الحسن البصرى وقال فى «المختصر » : لم نجده إلاّ من قول الحسن .

بالمعروف والنهى عن المنكر .

فإن قلت : إنه يخاف على نفسه ، فهو معذور فى السكوت .

قلنا : صدقت ، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لايباح إلا بعذر ، لأنه لو لم يدخل ويشاهد ، لم يجب عليه الأمر والنهى ، وكل من علم بفساد فى مكان ، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته ، لم يجز له أن يحضر .

فصل « فى الدخول على الأمراء الظلمة بعذر »

فإن سلم مما ذكرنا ، وهيهات ، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه ، لما يرى من توسعهم فى التنعم ، فيزدرى نعمة الله عليه ، ثم يقتدى به غيره فى الدخول ، ويكون مكثراً لسواد الظلمة .

وروى أن سعيد بن المسيب دعى إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، فقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل و النهار ، فقالوا : ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر ، قال : لا والله لا يقتدى بى أحد من الناس ، فجلد مائة وألبس المسوح .

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين :

أحدهما : إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى .

والثانى : أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم ، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثنى ولا يدع نصيحة ويتوقع لها قبولاً ، فهذا حكم الدخول .

الحال الثانى : أن يدخل عليه السلطان زائراً ، فجواب السلام لابد منه .

وأما القيام والإكرام ، فلا يحرم مقابلة له على إكرامه ، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد ، كما أنه بالظلم مستحق للذم . فإن دخل عليه وحده ، وقد رأى أن يقوم إعزازاً للدين فهو أولى ، وإن كان دخوله عليه فى جمع ، فمراعاة

حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا أولى وأمثل ، ولا بأس بالقيام على هذه النية

وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً فى الرعية ولا يناله أذى من غضبه ، فترك الإكرام بالقيام أولى ، ثم يجب عليه أن ينصحه ، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدرى أنه محرم .

فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر ، فلا فائدة فيه ، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصى مهما ظن أن التخويف يؤثر فى قلبه وعليه أن يرشده إلى المصالح .

ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه .

الحال الثالث : أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه ، والسلامة فى ذلك ، ثم ينبغى أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ، فلا يحب لقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يقترب إلى المتصلين بهم ، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم ، كما قال بعضهم : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، إما يوم مضى فلا يجدون لذته ، وأنا وإياهم فى غد على وجل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون فى اليوم ؟

مسألة : إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء ، وكان له مالك معين ، لم يحل أخذه ، وإن لم يكن له ، كان حكمه أن يتصدق به ، كما سبق بيانه ، ويتولى تفرقته على الفقراء .

ومن العلماء من امتنع من أخذه ، إذا كان أكثر أموالهم الحرام ، حرمت معاملتهم وما بنته الظلمة من القناطر والمساجد والسقايات ، وينبغى أن ينظر فيه ، فإن كانت تلك الأعيان التى بنيت بها لمالك معين ، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة ، وإن لم يعرف مالكها جاز العبور عليها ، والورع الامتناع ، والله أعلم آخر كتاب الحلال والحرام .

كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق

اعلم : أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق سوء الخلق ، لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر ، ولا يخفى ما فى حسن الخلق من الفضل ، والأحاديث دالة على ذلك .

فقد روى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن » رواه الترمذى وصححه(١) .

وفى حديث آخر : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسانكم أخلاقا وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً »(٢) .

وسئل النبى ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة ؟ فقال « تقوى الله وحسن الخلق »(٣) .

وأما المحبة فى الله تعالى ، ففى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . . . » فذكر منهم : « ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه »(٤) .

(١) [صحيح] الترمذى فى البر والصلة ، باب ما جاء فى حسن الخلق : حديث [٢٠٠٢]، وأحمد فى «مسنده»٦/ ٤٠ وأبو داود فى الأدب ، باب فى حسن الخلق حديث [٤٧٩٩] وهى فى صحيح الجامع [٥٧٢١] .

(٢) [حسن] الترمذى فى البر والصلة، باب ما جاء فى معالى الأخلاق : حديث [٢٠١٨]، وأحمد فى «مسنده »٢/ ١٨٩ ، وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٢٢٠١] .

(٣) [صحيح] الترمذى فى البر والصلة ، باب ما جاء فى حسن الخلق : حديث [٢٠٠٤]، وابن ماجه فى الزهد ، باب ذكر الذنوب : حديث [٤٢٤٦] .

(٤) البخارى فى الأذان ، باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة : حديث [٦٦٠]، ومسلم فى الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة : حديث [١٠٣١] ، ومالك فى الموطأ [٢ / ٩٥٢] والترمذى فى الزهد [٢٣٩١] والنسائى [٨ / ٢٢] .

وفى حديث آخر يقول الله عزوجل : «حقت محبتى للمتحابين فىّ ، وحقت محبتى للمتباذلين فىّ ، وحقت محبتى للمتزاورين فىّ » [(١)] .

وفى حديث آخر : « أوثق عرى الإيمان ، أن تحب فى الله وتبغض فى الله » [(٢)] ، والأحاديث فى ذلك كثيرة .

واعلم : أن من يحب فى الله يبغض فى الله ، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله ، فإذا عصى الله أبغضته فى الله ، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضده ، ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة ، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه .

فينبغى أن تحب المسلم لإسلامه ، وتبغضه لمعصيته ، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال ، فأما ما يجرى منه مجرى الهفوة التى يعلم أنه نادم عليها ، فالأولى حينئذ الإغماض والستر ، فإذا أصر على المعصية ، فلابد من إظهار أثر البغض بالإعراض عنه والتباعد ، وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخفتها .

واعلم : أن المخالف لأمر الله تعالى على أقسام :

أحدها : أن يكون كافراً ، فإن كان حربياً فهو مستحق للقتل والإرقاق ، وليس بعد هذين إهانة ، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه ، والتحقير له بالاضطرار له إلى أضيق الطريق ، وترك البداءة بالسلام ، فإن سلم قيل له : وعليك .

والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته ، ومن المكروه الاسترسال إليه

---

(١) [صحيح] أخرجه مالك فى الموطأ [٢ / ٧٢٦] فى الشعر ، أحمد فى «مسنده» ٥ / ٢٢٩ ، ٢٣٧، ٢٣٩، وابن حبان [٢٥١٠ موارد] والحاكم [٤ / ١٦٨ ، ١٦٩] وصححه ووافقه الذهبى وأبو نعيم فى «الحلية» ٣/ ١٣١و٥/ ١٣٣ .

(٢) [صحيح] ابن أبى شيبة ١١/ ٤٨، وهو فى «صحيح الجامع» رقم [٢٥٣٩] .

والانبساط كما يُفعل بالأصدقاء .

القسم الثانى : المبتدع، فإن كان ممن يدعو إلى بدعة ، وكانت البدعة بحيث يُكفر بها ، فأمره أشد من الذمىّ ، لأنه يقر بجزيه لا يسامح بعقد ذمة ، وإن كان ممن لا يكفر بها ، أمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة ، ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعدّ ، لأنه لا يُلتفتُ إلى قوله بخلاف المبتدع الذى يدعو إلى بدعته لأنه يزعم أن ما يدعو إليه حق، فيكون سبباً لغواية الخلق ، فشره متعد ، فإظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد .

فأما المبتدع العامى الذى لا يقدر أن يدعو ولا يُخاف الاقتداء به ، فأمره أهون، والأولى أن يتلطف به فى النصح ، فإن قلوب العوام سريعة التلقب ، فإن لم ينفع النصح وكان فى الإعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه ، وتأكد استحباب الإعراض عنه ، وإن علم أن ذلك لا يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده فى قلبه ، فالإعراض عنه أولى ، لأن البدعة إذا لم يبالغ فى تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها .

القسم الثالث : العاصى بفعله لا باعتقاده ، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره ، كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك ، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته ،وكذلك الحكم فيمن يدعو إلى الفساد، كالذى يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب لأهل الفساد ، فهذا ينبغى إهانته ومقاطعته والإعراض عنه .

فأما الذى يفسق فى نفسه بشرب خمر أو زنا أو سرقة أو ترك واجب ، فالأمر فيه أخف ، ولكنه فى وقت مباشرته إن صودف ، وجب منعه بما يمتنع به ، فإن كان النصح يرده وكان أنفع له ، نصح وإلا أغلظ له .

فصل « فى بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته »

روينا عن النبى ﷺ أنه قال : «المـرء على دين خليلـه ، فلينظر أحدكم من يخالل »[(١)] .

واعلـم : أنه لا يصلح للصحبة كل أحد ، ولابد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها فى صحبته ، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة ، وهى إما دنيوية : كالانتفاع بالمال والجاه ، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة ، وليس ذلك غرضنا ، وإما دينية : وتجتمع فيها أغراض مختلفة ، منها : الاستفادة بالعلم والعمل ، ومنها : الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يكدر القلب يصد عن العبادة ، ومنها : الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت ، ومنها الاستعانة فى المهمات ، فتكون عدة فى المصائب وقوة فى الأحوال ، ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة ، كما قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان ، فإن لكل مؤمن شفاعة .

فهذه فوائد تستدعى كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها .

وفى الجملة : فينبغى أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال : أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا .

أما العقل : فهو رأس المال ، ولا خير فى صحبة الأحمق ، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ونعنى بالعاقل : الذى يفهم الأمور على ما هى عليه ، إما بنفسه ، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم .

وأما حسن الخلق : فلابد منه ، إذ ربَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه فلا خير فى صحبته .

---

(١) [حسن] أبو داود فى الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس حديث [٤٨٣٣] الترمذى فى الزهد ، باب حدثنا محمد بن بشار : حديث [٢٣٧٨] والحاكم فى «مسنده» ٤ / ١٧١ ، وأحمد فى «مسنده » ٢ / ٣٠٣ و٣٣٤ ، وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٣٥٤٥] .

وأما الفاسق : فإنه لا يخاف الله ، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به .

وأما المبتدع : فيخاف من صحبته بسراية بدعته .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم ، فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلى الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى .

قال يحيى بن معاذ : بئس الصديق تحتاج أن تقول له : اذكرنى فى دعائك ، وأن تعيش معه بالمداراة ، أو تحتاج أن تعتذر إليه .

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم ، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة فى البيت فقال : رحمك الله ، هذا والله فعل الإخوان .

وقال أبو جعفر لأصحابه : أيدخل أحدكم يده فى كم أخيه فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم بإخوان كما تزعمون .

ويروى أن فتحاً الموصلى جاء إلى صديق له يقال له : عيسى التمار ، فلم يجده فى المنزل ، فقال للخادمة : أخرجى لى كيس أخى ، فأخرجته ، فأخذ منه درهمين ، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك ، فقال : إن كنت صادقة ، فأنت حرة ، فنظر فإذا هى قد صدقت ، فعتقت .

فصل « فى بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق »

الحق الأول : قضاء الحاجات والقيام بها ، وذلك درجات : أدناها : القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ، ولكن مع البشاشة والاستبشار .

وأوسطها : القيام بالحوائج من غير سؤال .

وأعلاها : تقديم حوائجه علي حوائج النفس .

وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم .

الحق الثاني : على اللسان بالسكوت تارة ، وبالنطق أخرى .

أما السكوت ، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى حضوره وغيبته ، وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته ، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله ، ولا يسأله إذا لقيه : إلى أين ؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك ، وأن يكتم سره ولو بعد القطيعة ، ولا يقدح فى أحبابه وأهله ، ولا يبلغه قدح غيره فيه .

الحق الثالث : وينبغى أن يسكت عن كل ما يكرهه ، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة فى السكوت ، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه فى المعنى .

اعلم : أنك إن تطلب منزها عن كل عيب لم تجد ، ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية .

وقال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب الزلات .

وقال الفضيل : الفتوة : الصفح عن زلات الإخوان .

وينبغى أن تترك إساءة الظن بأخيك ، وأن تحمل فعله على الحسن مهما أمكن ، وقد قال النبى ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » [1] .

واعلم : أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهى عنه ، وأن ستر العيوب والتغافل عنها شيمة أهل الدين .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى النكاح ، باب لا يخطب على خطبة أخيه حديث [٥١٤٣] ومسلم فى البر والصلة ، باب تحريم الظن حديث [٢٥٦٣] ، ومالك فى الموطأ فى حسن الخلق ، باب ما جاء فى المهاجرة ، وأبو داود فى الأدب [٤٨٨٢ ، ٤٩١٧] والترمذى فى البر والصلة [١٩٢٨] وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٣١٢ و ٤٣٢ و ٤٦٥ و ٤٧٠ .

واعلم : أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ، ولاشك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك ، وأن يسكت عن مساويك ، فلو ظهر لك منه ضد اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم له ؟

ومتى التمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾[المطففين : ٢ و ٣] ، ومنشأ التقصير فى ستر العورة والمغرى بكشفها الحقد والحسد .

واعلم : أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة ، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه ، ومن مارى أخاه فقد نسبه إلى الجهل والحمق ، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه ، وكل ذلك استحقار ، وهو يوغر الصدر ويوجب المعاداة ، وهو ضد الأخوة .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق ، فإن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكروه ، تقتضى النطق بالمحبوب ، بل هو أخص بالأخوة ، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم ، لأن السكوت معناه الأذى ، فعليه أن يتودد إليه بلسانه ، ويتفقده فى أحواله ، ويسأل عما عرض له ، ويظهر شغل قلبه بسببه ، ويبدى السرور بما يُسر به .

وفى الصحيح من رواية الترمذى : «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه » (١) .

ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه

---

(١) [صحيح]أبو داود فى الأدب ، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إليه : حديث [٥١٢٤]، وأحمد فى «مسنده » ٤/ ١٣٠ ، وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٢٧٩] .

بأحب الأسماء إليه .

ومن ذلك أن يثنى عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله ، حتى فى خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب .

وكذلك ينبغى أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به ، فإن إخفاء ذلك محض الحسد .

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك ، وأن تذب عنه فى غيبته إذا قصد بسوء ، فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة .

وفى الحديث الصحيح : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (١) ، ومتى أهمل الذب عن عرضه يكون قد أسلمه ، ولك فى ذلك معياران :

أحدهما : أن تقدر أن الذى قيل فيه ، قد قيل فيك وهو حاضر ، فتقول ما تحب أن يقوله .

الثانى : أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمع عليك ، فما تحرك فى قلبك من نصرته فى حضوره ينبغى أن يتحرك فى غيبته ، ومن لم يكن مخلصاً فى إخائه فهو منافق .

ومن ذلك التعليم والنصيحة ، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، وإذا كنت غنياً بالعلم فواسه وأرشده .

وينبغى أن يكون نصحك إياه سراً ، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار ، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء ، فإن

---

(١) البخارى فى المظالم ، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه : حديث [٢٤٤٢]. ومسلم فى البر والصلة ، باب تحريم الظلم : حديث [٢٥٨٠]، وأبو داود فى : الأدب : باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إليه حديث [٥١٢٤] ، والترمذى فى الحدود [١٤٢٦] ، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ١٣٠ .

أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء ، فأنت مدار ، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن .

ومن ذلك : العفو عن الزلات ، فإن كانت زلته فى دينه فتلطف فى نصحه مهما أمكن ، ولا تترك زجره ووعظه ، فإن أبى فالمصارمة .

الحق الخامس :الدعاء للأخ فى حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك .

وفى أفراد مسلم من حديث أبى الدرداء ، أن النبى ﷺ قال : « **دعوة المرء لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه مَلَكٌ موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل** » [١] .

وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يدعو لخلق كثير من إخوته يسميهم بأسمائهم وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يدعو فى السحر لستة نفر .

أما الدعاء بعد الموت ، فقال عمرو بن حريث : إذا دعا العبد لأخيه الميت ، أتى بها ملك قبرة ، فقال : ياصاحب القبر الغريب ، هذه هدية من أخ عليك شفيق .

الحق السادس :الوفاء والإخلاص ، ومعنى الوفاء : الثبات على الحب إلى الموت وبعد الموت ، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه ، وقد أكرم ﷺ عجوزاً وقال : « **إنها كانت تغشانا فى أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان** »[٢] .

ومن الوفاء أن لا يتغير على أخيه فى التواضع وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه .

واعلم :أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدين ، فقد كان الشافعى رحمه الله آخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ويقبل عليه ، فلما احتضر قيل

---

(١) [صحيح]مسلم رقم [٢٧٣٣] فى العلم ، باب فضل الدعاءللمسلمين بظهر الغيب وأبو داود رقم [١٥٣٤] باب الدعاء يظهر الغيب وابن ماجه فى : المناسك : باب فضل دعاء الحاج : حديث [٢٨٩٥] .

(٢) الحاكم ١/ ١٦ ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، وضعفه الحافظ فى الفتح .

له : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه فقال : إلى أبى يعقوب البويطى ، فانكسر لها محمد ، مع أن محمداً كان قد حمل مذهبه ، لكن البويطى كان أقرب إلى الزهد والورع ، فنصح الشافعى رحمه الله المسلمين وترك المداهنة ، فانقلب ابن الحكم عن مذهبه ، وصار من أصحاب مالك .

ومن الوفاء أن يسمع بلاغات الناس على صديقه ، ولا يصادق عدو صديقه .

الحق السابع : التخفيف وترك التكليف [والتكلف] ، وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، بل يُروّحُ سره عن مهماته وحاجاته ، ولا يستمد من جاهه ولا ماله ، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له ، بل يكون قصده بمحبته الله وحده ، والتبرك بدعائه ، والاستئناس بلقائه ، والاستعانة على دينه ، والتقرب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه ، وتمام التخفيف طى بساط الاحتشام حتى لا يستحى منه فيما لا يستحى فيه من نفسه .

قال جعفر بن محمد : أثقل إخوانى علىّ من يتكلف لى وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى .

و قال بعض الحكماء : من سقطت كلفته دامت ألفته ، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك ، لا لنفسك عليهم ، فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم

فصل جملة من آداب المعاشرة للخلق

ولنذكر فى آخر هذا الكتاب من آداب المعاشرة للخلق :

فمن حسن المعاشرة أن تتوقر من غير كبر ، وتتواضع فى غير ذلة ، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غير ذل لهم ولا خوف منهم ، وتتحفظ فى مجالسك من تشبيك أصابعك ، وإدخال أصبعك فى أنفك ، وكثرة بصاقك ، والتثاؤب .

واصغ إلى محدثك ، ولا تسأله الإعادة ، ولا تحدث بإعجابك بولدك وجاريتك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ، ولا تتبذل تبذل العبد .

وخَوِّف أهلك فى غير عنف ، ولِنْ لهم من غير ضعف .

ولا تهازل أمتَك وعبدك ، فيسقط وقارك ، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك .

ولا تجالس السلطان ، فإن فعلت فاحذر الذنوب والغيبة ، وصُنْ سره، واحذر المداعبة عنده ، وتحفظ من الجشاء بحضرته والتخلل ، وإن قربك فكن منه على حذر ، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبى ، وكلمه بمايشتهيه ، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه .

وإياك وصديق العافية .

ولا تجعل مالك أكرم من عرضك .

وإذا دخلت مجلساً فاجلس فيما هو أقرب للتواضع .

ولا تجلس على الطريق ، فإذا جلستَ فغض البصر ، وانصر المظلوم ، وأرشد الضال .

لا تبصق فى جهة القبلة ولا عن يمينك ، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى

واحذر مجالسة العوام ، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجرى من سوء أخلاقهم وترك الخوض فى حديثهم .

واحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك فى المزاح ، والسفيه يجترئ عليك

باب فى حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ونحو ذلك

فمن حقوق المسلم : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه ، وتنصح له إذا

استنصحك [١]، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب ، وتحب له ما تحب لنفسك [٢]، وتكره له ما تكره لنفسك . وجميع هذا منقول فى الآثار .

ومنها : أن لا تؤذى أحداً من المسلمين بقول ولا فعل ، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم ، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم فى بعض ، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض .

ومنها : أن لا تزيد فى الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه ، للحديث المشهور فى ذلك [٣] .

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام ، فإذا مرت به ثلاثة أيام فلقيه فليسلم عليه ، فإن رد عليه السلام ، فقد اشتركا فى الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد برئ المسلم من الهجرة** »[٤] .

---

(١) ويدل على ذلك قوله ﷺ « حق المسلم على المسلم ست » قيل : ما هن يا رسول الله؟ قال : « إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » .

مسلم فى : السلام : باب من حق المسلم للمسلم رد السلام : حديث [٥/ ٢١٦٢] .

(٢) لقوله : ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

البخارى فى : الإيمان : باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه : حديث [١٣] ، ومسلم فى : كتاب الإيمان : باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه : حديث [٤٥] ، والترمذى فى : صفة القيامة : باب حدثنا بشر : حديث [٢٥١٥] ، والنسائى ٨/ ١١٥ ، وأحمد ٣/ ١٧٦ .

(٣) [متفق عليه] البخارى فى الأدب ، باب الهجرة حديث [٦٠٧٧] ومسلم فى البر والصلة ، باب تحريم الهجر فوق ثلاث حديث [٢٥٦١] وأبو داود فى الأدب [٤٩١٠] والترمذى فى البر والصلة [١٩٣٥] .

(٤)[صحيح] أبو داود فى الأدب ، باب فيمن يهجر أخاه المسلم : حديث [٤٩١٢] وضعفه الألبانى فى ضعيف الأدب المفرد [٦٢/ ٤١٤] وقال فى الأرواء [٧/ ٩٤] أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وفى «التاريخ الكبير» [١/ ١/ ٢٥٧] وأبو داود [٤٩١٢] قلت : وهلال هذا مجهول وبقية رجاله ثقات لكن له شواهد يتقوى بها وصحح سنده الحافظ فى الفتح [١٠/ ٤٩٥] .

واعلم : أن هذه الهجرة إنما هى فيما يتعلق بالدنيا ، أما حق الدين ، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصى ينبغى أن تدوم ، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق .

ومنها : أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع ، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه ، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن انصرف .

ومنها : أن يخالق الناس بخلق حسن ، وذلك أن يعامل كلاً منهم بحسب طريقته ، فإنه متى لقى الجاهل بالعلم ، واللاهى بالفقه ، والغبى بالبيان ، أذى وتأذى .

ومنها : أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان [(١)] ، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً ، وأن يفى لهم بالوعد ، وينصف الناس من نفسه ، ولا يأتى إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه .

قال الحسن : أوحى الله إلى آدم عليه السلام أربع كلمات ، وقال : فيهن جماع الأمر لك ولولدك : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين الخلق ، فأما التى لى : فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، وأما التى لك : فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك : فعليك الدعاء وعلىّ الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس : فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به

ومنها : زيادة توقير ذوى الهيئات .

ومنها : إصلاح ذات البين ، وستر عورات المسلمين .

واعلم : أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة فى الدنيا اقتدى بلطفه ، فإنه جعل الشهادة فى الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل فى

(١) وفى الحديث : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا » .
[صحيح] الترمذى فى : البر والصلة : باب ما جاء فى رحمة الصبيان : حديث [١٩١٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ١٨٥ ، والحاكم فى « مستدركه » ١ / ٦٢ ، وهو فى «صحيح الجامع» رقم [٥٤٤٥]

المكحلة ، وهذا لا يتفق ، ومن هذا أثر كرمه فى الدنيا يرجى منه ذلك فى الآخرة .

ومنها : **أن تتقى مواضع التهم** ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به ، وألسنتهم عن غيبته .

ومنها : **أن تشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حوائجهم** .

ومنها : **أن يبدأ بالسلام كل مسلم قبل أن يكلمه ، ومن السنة المصافحة ، فقد** روى عن أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من مسلمين التقيا ، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، إلا كان حقاً على الله عزوجل أن يحضر دعاءهما ، وألا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما » (١) .

وفى حديث آخر : « إذا صافح المؤمنُ المؤمنَ نزلت عليهما مائة رحمة ، تسعة وتسعون لأبشهما وأحسنهما خلقاً »(٢) .

ولا بأس بتقبيل يد المعظم فى الدين ، ولا بأس بالمعانقة ، وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء ، فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت رضى الله عنهما ، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن ، وأما الانحناء فمنهى عنه .

ومنها : أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير ، ويناضل دونه وينصره .

---

(١) [حسن] أحمد فى« مسنده » ٣/ ١٤٢ ، وقال المنذرى فى الترغيب [٣ / ٢٧٠] رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ، ورواة أحمد كلهم ثقات إلا ميمون المرائى وهذا الحديث مما أنكر عليه وقال الهيثمى فى المجمع [٨ / ٣٦] ميمون بن عجلان وثقه ابن حبان ولم يضعفه أحد . وقال الألبانى فى الصحيحة [٥٢٥] : فالحديث بمجموع طرقه وشاهده صحيح أو على الأقل : حسن وهو فى«صحيح الجامع » بنحوه رقم [٥٧٧٨] .

(٢) [ضعيف] أورده الشوكانى فى «الفوائد »ص [٢٢٦ـ٢٢٧] : حديث [٢٣] ، وقال : رواه «الخطيب» عن أبى هريرة مرفوعاً، وفى إسناده «محمد بن عبد الله الأشنانى »وهو وضاع .

وقال الهيثمى فى المجمع [٨ / ٣٧] : أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن كثير مجهول وبقية رجاله رجال الصحيح .

ومنها : أنه إذا ابتلى بذى شر ، فينبغى أن يجامله ويتقيه ، لحديث عائشة رضى الله عنها[١] .

وقال محمد ابن الحنفية : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدّاً ، حتى يجعل الله عزوجل له فرجاً .

ومنها : أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالمساكين ، ويحسن إلى الأيتام .

ومنها : عيادة مرضاهم .

ومن آداب العائد : أن يضع يده على المريض ، ويسأله كيف هو ، ويخفف الجلوس ، ويظهر الرقة ، ويدعو له بالعافية ، ويغض البصر عن عورات المكان .

ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم فى أفراده ، من حديث عثمان بن أبى العاص رضى الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »[٢] .

وجملة آداب المريض : حسن الصبر ، وقلة الشكوى والتضجر ، والفزع إلى الدعاء ، والتوكل على الله سبحانه .

ومنها : أن يشيع جنائزهم ، ويزور قبورهم .

والمقصود من التشييع : قضاء حق المسلمين ، والاعتبار .

قال الأعمش : كنا نحضر الجنائز ، فلا ندرى من نعزى لحزن القوم كلهم .

---

(١)[متفق عليه] البخارى : ، فى الأدب ، باب ما يجوز من اغتياب أهل الغش والريب حديث [٦٠٥٤] ، ومسلم في البر والصلة ، باب فضل الرفق حديث [٢٥٩١] وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٣٨

(٢)[صحيح] مسلم فى السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ومالك فى الموطأ فى العين ، باب التعوذ والرقية من المرض [٢ / ٧١٨] ، وأبو داود فى الطب ، باب : كيف الرقى [٣٨٩١] والترمذى فى الطب [٢٠٨٠] وقال حسن صحيح .

والمقصود من زيارة القبور : الدعاء ، والاعتبار ، وترقيق القلب .

ومن آداب تشييع الجنائز : المشى ، ولزوم الخشوع ، وترك الحديث ، وملاحظة الميت ، والتفكير فى الموت ، والاستعداد له .

وأما حقوق الجار : فاعلم أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة ، وجاء في الحديث : « **إن الجيران ثلاثة** : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فالجار الذى له ثلاثة حقوق : الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم ، وأما الذى له حقان : فالجار المسلم ، له حق الإسلام ، وحق الجوار ، وأما الذى له حق واحد : فالجار المشرك » (١) .

واعلم : أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى والرفق ، وابتداء الخير ، وأن يبدأ جاره بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ويعوده فى المرض ، ويعزيه فى المصيبة ، ويهنئه فى الفرح ، ويصفح عن زلاته ، ولا يطلع إلى داره ، ولا يضايقه فى وضع الخشب على جداره ، ولا فى صب الماء فى ميزابه ، ولا فى طرح التراب في فنائه ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف عن عوراته ولا يتسمع عليه كلامه ، ويغض طرفه عن حرمه ، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب .

فصل فى حقوق الأقارب والرحم

وأما حقوق الأقارب والرحم : ففى الحديث الصحيح ، من رواية عائشة ، أن النبىﷺ قال : « **الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله** » (٢) .

---

(١)[**ضعيف**] حلية الأولياء ٥/ ٢٠٧ ، وهو فى «ضعيف الجامع» رقم [٢٦٧٤] .

(٢)[**متفق عليه**] البخارى رقم [٥٩٨٨] فى الأدب ، باب من وصل وصله الله ، ومسلم رقم [٢٥٥٥] فى البر ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها .

وفى حديث آخر من أفراد البخارى : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قُطعت رحمه وصلها » [١] .

وفى حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىّ ، قال : « لئن كنت كما قلت ، فكأنما تُسفُّهم المَلّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » [٢] والمعنى : أنك منصور عليهم ، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة ، كما ينقطع كلام من سف المَلّ ، وهو الرماد الحار .

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة فى صلة الرحم ، وفى حقوق الوالدين ، وفى تأكيد حق الأم .

وأما حقوق الولد : فاعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به ، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد ، فيترك تعليمه وتأديبه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] .

قال المفسرون : معناه : علموهم وأدبوهم .

وينبغى للوالد أن يحسن اسم ابنه ، ويعق عنه ، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه ، فإذا بلغ زوّجه .

وأما حقوق المملوك ، فأن يطعمه ، ويكسوه ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، ولا ينظر إليه بعين الازدراء ، وأن يعفو عن زلته ، وليتذكر الله عند زلله نفسه ، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه .

---

(١) [صحيح] البخارى رقم [٥٩٩١] فى الأدب ، باب ليس الواصل بالمكافىء وأبو داود فى الزكاة [١٦٩٧] والترمذى [١٩٠٨] .

(٢) [صحيح] مسلم رقم [٢٥٥٨] فى البر ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٠٠ .

كتـــاب آداب العزلـــة

اختلف الناس فى العزلة والمخالطة ، أيتهما أفضل ؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل ، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة .

وممن ذهب إلى اختيار العزلة : سفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائى ، والفضيل و بشر الحافى ، فى آخرين .

وممن ذهب إلى استحباب المخالطة سعيد بن المسيب ، وشريح ، والشعبى ، وابن المبارك فى آخرين .

وكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج ، ونحن نشير إلى ذلك .

أما حجة الأولين : فقد روى فى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد قال : قيل : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قال : « رجل يجاهد بنفسه وماله ، ورجل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » [(١)] .

وفى حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : « املك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » [(٢)]

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خذوا بحظكم من العزلة .

وقال سعد بن أبى بن وقاص رضى الله عنه : لوددت أن بينى وبين الناس باباً من حديد ، لا يكلمنى أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه .

---

(١) البخارى فى الرقاق باب العزلة راحة من خُلاّط السوء : حديث [٦٤٩٤]، ومسلم فى الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط : حديث [١٨٨٨]، وأبو داود فى : الجهاد : باب فى ثواب الجهاد : حديث [٢٤٨٥] ، والترمذى فى : كتاب فضائل الجهاد : باب ما جاء أى الناس أفضل : حديث [١٦٦٠] ، والنسائى فى : الزكاة : باب من يسأل بالله عز وجل ويعطى به : حديث [١] وابن ماجه فى : الفتن : باب العزلة : حديث [٣٩٧٨] ، والدارمى فى : الجهاد: باب أفضل الناس : حديث [٢٣٩٥] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٢٣٧ و ٣١٩ .

(٢)[حسن] الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى حفظ اللسان : حديث [٢٤٠٦]، وأحمد فى «مسنده». ٤/ ١٤٨و١٥٨و١٥٩و٥/ ٢٥٩ .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الليل ، أحلاس البيوت جُدُدَ القلوب خُلْقانَ الثياب ، تُعرفون فى أهل السماء ، وتخفون على أهل الأرض .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : نعم صومعة المرء المسلم بيته ، يكف لسانه وفرجه وبصره ، وإياكم ومجالس الأسواق ، فإنها تلهى وتلغى .

وقال داود الطائى : فر من الناس كما تفر من الأسد .

وقال أبو مهلهل : أخذ بيدى سفيان الثورى وأخرجنى إلى الجبانة ، فاعتزلنا ناحية ، فبكى ثم قال : يا أبا مهلهل ، إن استطعت أن لا تخالط في زمانك أحداً فافعل ، وليكن همك مرمة جهازك .

وأما حجة من اختار المخالطة ، فمن ذلك قول النبىﷺ : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم »(١) واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك ، منها قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٥] وهذا ضعيف ، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب فى أصل الشريعة ، واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ : « لا هجرة فوق ثلاث »(٢) قالوا : والعزلة هجر بالكلية ، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة .

فصل فى ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق فى فضلها

اعلم : أن اختلاف الناس فى هذا أيضاً هو كاختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة ، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فكذلك

(١) رواه أحمد فى المسند [٢ / ٤٣] والبخارى فى الأدب المفرد [٥٨] والترمذى فى صفة القيامة باب ٥٠ رقم [٢٥٠٧] وابن ماجة فى الفتن [٤٠٣٢] وابن حبان [٢٣٧ ، ٢٣٨ موارد] وصححه الألبانى فى الصحيحة [٩٣٩] .

(٢) مسلم في البر والصلة ، باب تحريم الهجر فوق ثلاث : حديث [٢٥٦٢]، ولفظه «بعد» بدل فوق ، وأحمد فى «مسنده» ٢/ ٣٩٢و٤٥٦ .

نقول فيما نحن فيه ، فلنذكر أولاً فوائد العزلة ، وهى ست .

الفائدة الأولى : الفراغ للعبادة ، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه ، فإن ذلك يستدعى فراغاً ، ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصاً فى البداية .

قيل لبعض الحكماء : إلى أى شىء أفضى بهم الزهد والخلوة ؟ قال : إلى الأنس بالله .

وقال أويس القرنى رضى الله عنه : ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره .

واعلم : أن من تيسر له بدوام الأنس بالله ، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله ، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة .

الفائدة الثانية : التخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة ، وهى أربعة :

أحدها : الغيبة ، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها ، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكت كنت شريكاً ، فإن المستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك واغتابوك فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما خرجوا إلى الشتم .

الثانية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصى الله ، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر ، وفى العزلة سلامة من هذا .

الثالثة : الرياء ، وهو الداء العضال الذى يعسر الاحتراز منه ، وأول ما فى مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم ، ولا يخلو ذلك عن الكذب ، إما فى الأصل ، وإما فى الزيادة ، وقد كان السلف يحترزون فى جواب قول القائل : كيف

أصبحت، وكيف أمسيت ؟ كما قال بعضهم وقد قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين ، نأكل أرزاقنا ، وننتظر آجالنا .

واعلم : أنه إذا كان السؤال السائل لأخيه : كيف أصبحت ؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة ، كان تكلفاً ورياء ، وربما سأله وفي القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله ، وفي العزلة الخلاص عن هذا ، لأنه من لقى الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه ، ويذهب دينهم فيه ، ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم .

الرابعة : مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة ، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين ، وذلك أنه قَلّ أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة ، مع كونه منكراً عليه في باطنه ، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً في النفور عن الفساد ، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع ، ويسقط وقعه واستعظامه ، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره ، احتقر نفسه ، واستصغر عبادته ، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد ، وبهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل : عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة .

ومما يدل على سقوط وقع الشيء بسبب تكرره ومشاهدته ، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً قد أفطر في رمضان ، استعظموا ذلك ، حتى يكاد يفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر ، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها ، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم ، مع ترك صلاة واحدة تخرج إلى الكفر ، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر ، والتساهل فيها يكثر ، وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير ، أو خاتماً من ذهب ، لاشتد إنكار الناس لذلك ، وقد يشاهدونه يغتاب ، فلا يستعظمون ذلك والغيبة أشد من لبس الحرير ، ولكن لكثرة سماعها ، ومشاهدة المغتابين ، سقط عن القلوب وقعها ، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس ، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا ، وفي غفلتك عن

الآخرة ، وتهون عليك المعصية ، وتضعف رغبتك فى الطاعات ، فإن وجدت مجلساً يذكر الله فيه ، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن .

الفائدة الثالثة : الخلاص من الفتن والخصومات ، وصيانة الدين عن الخوض فيها فإنه قلما تخلوالبلاد من العصبية والخصومات ،والمعتزل عنهم سليم .

وقد روى ابن عمر رضى الله عنه ، أن النبىﷺ ذكر الفتن ، ووصفها وقال: « إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم ، فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه » فقلت : ما تأمرنى ؟ فقال: «الزم بيتك ، واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر الخاصة ، ودع أمر العامة» (١)

وقد روى غير ذلك من الأحاديث فى معناه .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس ، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ، ومرة بالنميمة ، ومرة بسوء الظن ، ومرة بالتهمة ، ومرة بالأطماع الكاذبة ، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو ، وغير ذلك من أنواع الشر التى يلقاها الإنسان من معارفه ، وفى العزلة خلاص من ذلك ، كم قال بعضهم :

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن منَّ الصحَاب

فإن الداء أكثرُ ما نـــــراهُ ... يكون من الطعام أو الشَّراب

وقال عمر رضى الله عنه : فى العزلة راحة من خلطاء السوء .

وقال إبراهيم بن أدهم : لا تتعرف إلى من لا تعرف ، وأنكر من تعرف .

وقال رجل لأخيه : أصحبك إلى الحج ؟ فقال : دعنا نعش فى ستر الله ، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه .

---

(١)[صحيح] رواه أحمد فى المسند [٢ / ١٦٢] وأبو داود فى الملاحم ، باب الأمر [٤٣٤٢] والنهى وابن ماجة فى الفتن [٣٩٥٧] والحاكم [٤ / ٢٨٢] وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وهو فى «صحيح الجامع »رقم [٥٦٣].

وهذه فائدة أخرى فى العزلة ، وهى بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات .

الفائدة الخامسة : أن ينقطع طمع الناس عنك ، وطمعك عنهم .

أما طمعهم ، فإن رضاهم غاية لا تدرك ، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم فى حضور ولائمهم وإملاكاتهم [(١)] ، وغير ذلك .

وقد قيل : من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم .

وأما انقطاع طمعك ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ، ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر المطامع فيتأذى .

وفى الحديث : « انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » [(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا** ﴾[طه : ١٣١] .

الفائدة السادسة : الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ، ومقاساة أخلاقهم وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء ، لم يلبث ، أن يغتابهم ، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم ، فانجر الأمر فساد الدين ، وفى العزلة سلامة من ذلك .

فصل فى آفات العزلة

اعلم : أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة .

---

(١) إملاكاتهم : تزويجهم وعقود نكاحهم . « النهاية » ٤/ ٣٥٩. فى المقدمة :

(٢) [متفق عليه]البخارى فى الرقاق ، باب لينظر إلى من هو أسفل منه حديث [٦٤٩٠]، مسلم فى الزهد : فى المقدمة حديث [٩/ ٢٩٦٣] ، والترمذى فى صفة القيامة ، باب حدثنا سويد حديث [٢٥١٣] ، وابن ماجه فى : الزهد : باب القناعة : حديث [٤١٤٢] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ٤٨٢ والترمذى فى صفة القيامة [٢٥١٣]

ومن فوائد المخالطة : التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال ، والاعتبار بها ، فهذه فوائد الخلطة ، ولنفصلها :

الفائدة الأولى : التعلم والتعليم ، قد ذكرنا فضلها فى كتاب العلم ، فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ، ورأى الاشتغال بالعبادة ، فليعتزل ، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران .

ولهذا قال الربيع بن خُثَيمْ: تفقه ثم اعتزل ، والعلم أصل الدين ، ولا خير فى عزلة العوام .

سئل بعض العلماء : ما تقول في عزلة الجاهل ؟ فقال : خبال ووبال ، فقيل له : فالعالم ؟ فقال : ما لك ولها ، دعها ، معها حذاؤها وسقاؤها ، ترد الماء ، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها .

وأما التعليم ، ففيه ثواب عظيم إذا صح النية فيه ، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع ، فهو هلاك الدين ، وقد سبق ذلك فى كتاب العلم ، والغالب فى هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين ، فيقتضى الدين الاعتزال عنهم ، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالتعلم إليه ، لم يجز الاعتزال عنه ، ولا يحل كتمان العلم ، ولا ينبغى أن يقول من قال : تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله ، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، وذلك يتضمن التخويف والتحذير ، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه ، فإن لم يؤثر فى الحال أثر فى المآل ، فأما علم الكلام وعلم الخلاف ، فإنه لا يرد الراغب فى الدنيا إلى الله تعالى ، بل لا يزال صاحبه متمادياً فى حرصه إلى آخر عمره .

الفائدة الثانية :النفع والانتفاع ، أما الانتفاع بالناس ، فالكسب والمعاملة ، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة ، وأما إن كان معه ما يقنعه ، فالعزلة أفضل إلا أن يقصد التصدق بكسبه ، فذلك أفضل من العزلة ، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به ، عن كشف وبصيرة ، لا عن أوهام وخيالات فاسدة .

وأما النفع : فهو ينفع الناس ، وإما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم ، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع ، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل فى عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر ، فذاك الذى لا يعدل به ألبتة .

الفائدة الثالثة :التأديب والتأدب ، ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس ، والمجاهدة في تحمل أذاهم ، وكسر النفس ، وقهر الشهوة ، وذلك أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه .

وينبغى أن يفهم أن الرياضة لا تراد لنفسها كما لا يراد ذلك من رياضة الدابة ، بل المراد منها أن تتخذ مركباً تقطع عليه المراحل ، والبدن مطية يسلك بها طريق الآخرة ، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها فى الطريق ، فمن اشتغل طول عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها ، ولا يستفيد إلا الخلاص من عضها ورفسها ، وهى لعمرى فائدة ، ولكن ليست معظم المقصود، قيل لراهب : يا راهب ، فقال : لست براهب ، إنما أنا كلب عقور ، حبست نفسى حتى لا أعقر الناس ، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر ، لكن لا ينبغى أن يقتصر عليه .

وأما التأديب : فهو أن يؤدب غيره ، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلى نشر العلم على ما ذكر .

الفائدة الرابعة :الاستئناس والإيناس ، وقد يكون مستحباً كالاستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة ، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين .

الفائدة الخامسة :فى نيل الثواب وإنالته .

أما الأول : فبحضور الجنائز ، وعيادة المرضى ، وحضور الإملاكات ، والدعوات ، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن .

وأما الثانى : فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه ، فإنهم ينالون بذلك ثواباً ، وكذلك إن كان من العلماء فأذن لهم فى زيارته .

ولكن ينبغى أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها ، فيرجح العزلة أو المخالطة ، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها .

الفائدة السادسة :التواضع ، ولا يقدر على ذلك فى الوحدة ، فقد يكون الكبر سبباً فى اختياره العزلة ، ويمنعه فى المحافل التقصير فى إكرامه وتقديمه ، وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه ، أو نحو ذلك .

وعلامة من هذه صفته أن يحب أن يزار ولا يحب أن يزور ، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه وتقبيل يده ، فالعزلة بهذا السبب جهل لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير .

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ ، بل ينبغى أن ينظر إلى الشخص وحاله ، وإلى الخليط وحاله ، وإلى الباعث على مخالطته ، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد ، ويقاس الفائت بالحاصل ، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل .

فقد قال الشافعي رحمه الله : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة للسوء ، فكن بين القبض والبسط ، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إخبار عن حاله ، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال .

فإن قيل : **فما آداب العزلة ؟**

قلنا : ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبداً ، فهذه آداب بينة .

ثم ليكن في خلواته مواظباً على العلم والعمل ، والذكر والفكر ، فيجتني ثمرة العزلة ، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته ، وليكف عن السؤال عن أخبارهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به ، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة ، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض ، وليقنع باليسير من المعيشة ، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس .

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس ، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة ، ولا القدح فيه بترك الخلطة ، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة .

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة ، ففي ذلك عون على بقية الساعات ، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا ، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله ، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسي ، وإذا أمسى لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم .

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة ،

وليتحقق أن من لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به ، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت ، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه ، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة ، كم قال الله فى حق الشهداء ، : ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وكل متجرد لله فى جهاد نفسه ، فهو شهيد ، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

كتاب آداب السفر

السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه ، أو الوصول إلى مرغوب إليه .

والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن الوطن ، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات ، وهذا أشرف السفرين ، فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء ، ولازم درجة القصور ، قانع برتبة النقص ، ومستبدل بمتسع عرضه السماوات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس .

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطر خطير ، اندرست مسالكه .

فأما سفر البدن : فهو أقسام ، وله فوائد وآفات عظيمة ، فإنه يضاهى النظر فى العزلة والمخالطة ، وقد ذكرنا منهاج ذلك .

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب ، فالهرب إما من أمر له نكاية فى الأمور الدنيوية ، كالطاعون إذا ظهر ببلد ، أو كخوف فتنة وخصومة ، أو غلاء سعر .

وإما أمر له نكاية فى الدين ، كمن ابتلى فى بلده بجاه أو مال أو اتساع أسباب ، فصده عن التجرد لله تعالى ، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه ، كمن يدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته ، فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب ، فهو إما دنيوى كالمال والجاه ، أو دينى كالعلم بأمور دينه ، أو بأخلاقه فى نفسه ، أو بآيات الله فى أرضه ، وقل مذكور بالعلم محصل من زمان الصحابة رضى الله عنهم إلى زماننا إلا وحصل العلم بالسفر لأجله .

وأما علمه بنفسه وأخلاقه ، فذلك أيضاً مهم ، فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا بتحسين الخلق وتهذيبه ، وإنما سمى السفر سفراً ، لأن يسفر عن الأخلاق .

وفى الجملة فالنفس فى الوطن لا تظهر خبائث أخلاقهم لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة ، انكشفت غوائلها ، ووقع الوقوف على عيوبها

وأما آيات الله فى أرضه ، ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر :

ففيها : قطع متجاورات ، وفيها : الجبال والبرارى والقفار والبحار ،وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شىء إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ، مسبح بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

وإنما نعنى بالسمع : سمع الباطن ، فبه يدرك نطق لسان الحال ، وما من ذرة فى السماوات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية .

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق ، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، ولا يتصور فراغ القلب فى الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها ، وقد نجا المخفون وهلك المثقلون ، والمخف الذى ليست الدنيا أكبر همه .

فصل فى السفر المباح

ومن أقسام السفر أن بكون مباحاً ، كسفر التفرج والتنزه ، فأما السياحة فى الأرض لا لمقصود ، ولا إلى مكان معروف ، فإنه منهى عنه .

فقد روينا من حديث طاوس أن النبى ﷺ قال : « لا رهبانية ، ولا تبتل ، ولا سياحة فى الإسلام »[١] .

---

(١) رواه ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » ٢/ ١٥٢ .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ما السياحة من الإسلام فى شىء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين . ولأن السفر يشتت القلب ، فلا ينبغى للمريد أن يسافر إلا فى طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به فى سيرته .

وللسفر آداب معروفه مذكورة فى مناسك الحج وغيرها .

من ذلك أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لم تلزمه نفقته ، ورد الودائع .

ومنها : أن يختار رفيقاً صالحاً ، ويودع الأهل والأصدقاء .

ومنها : أن يصلى صلاة الاستخارة ، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة .

ومنها : أن لا يمشى منفرداً ، وأن يكون أكثر سيره بالليل ، ولا يهمل الأذكار والأدعية إذا وصل منزلاً أو علا نشزاً أو هبط وادياً .

ومنها : أن يستصحب معه ما فيه مصلحته ، كالسواك ، والمشط ، والمرآة ، والمكحلة ، ونحو ذلك .

فصل فيما لابد للمسافر منه

ينبغى أن يتزود للدنيا والآخرة ، أما زاد الدنيا ، فالمطعم والمشرب ، وما يحتاج إليه .

ولاينبغى أن يقول : أخرج متوكلاً فلا أحمل زاداً ، فهذا جهل ، فإن حمل الزاد لا يناقض التوكل .

وأما زاد الآخرة ، فهو العلم الذى يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته ، وتعلم رخص السفر ، كالقصر والجمع والفطر ، ومدة مسح السفر على الخفين والتيمم والتنفل للماشى ، وكل ذلك مذكور فى كتب الفقه بشروط .

ولابد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر ، وهو علم القبلة والأوقات ،

فإن ذلك فى السفر آكد من الحضر .

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرَّة على ما هو مبين فى موضعه « ويعتبر الجبال بأن وجودها جميعها مستقبلة البيت » .

وأما المجرَّة ، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلى اليسرى إلى القبلة ، ثم يلتوى رأسها حتى تصير فى آخر الليل على كتفه اليمنى ، وتسمى المجرَّة : و سُرُج السماء .

وأما معرفة أوقات الصلوات ، فلابد منها ، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس فلينصب المسافر عوداً مستقيماً ، وليعلم علامات على رأس الظل ، ولينظر ، فإن رآه فى النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر ، فإذا أخذ فى الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل وقت العصر ، وآخره إلى أن يصير ظل كل شىء مثليه .

وعن الإمام أحمد : أن آخره ما لم تصفر الشمس ، ثم يذهب وقت الاختيار ، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس ، وباقى الأوقات معروفة .

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

اعلم :أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى بعث الله به النبيين ، ولو طوى بساطه ، لاضمحلت الديانة ، وظهر الفساد وخربت البلاد .

قال الله تعالى ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[آل عمران : ١٠٤] .

وفى هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عينَ ، لأنه قال : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ** ﴾ولم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف ، فإذا قام به من يكفى سقط عن الباقين ، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له .

وفى القرآن العظيم آيات كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها ، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماد مروا على من فوقهم فآذوهم ، فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً »[(١)] .

فصل « فى مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه »

فقد جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم ، أن النبى ﷺ قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك

---

(١) البخارى فى الشركة ،باب هل يقرع فى القسمة ؟ : حديث [٢٤٩٣] ، والترمذى فى الفتن [٢١٧٣] وأحمد فى المسند [٤ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠] .

أضعف الإيمان » [١] .

وفى حديث آخر : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » [٢] .

وفى حديث آخر : « إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تُودع منهم » [٣] .

وقام أبو بكر رضى الله عنه ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة : ١٠٥] . وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « **إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب** » [٤] .

وعنه ﷺ أنه قال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم » [٥] .

---

(١) [صحيح] مسلم فى الإيمان، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان : حديث [٤٩] ، والترمذى فى الفتن ، ما جاء فى تغيير المنكر : حديث [٢١٧٢] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٢٠ و ٤٩ و٥٢ و٥٣ و٥٤ وأبو داود [١١٤٠] والنسائى [٨/ ١١١] .

(٢) [صحيح] أبو داود فى الملاحم ، باب الأمر والنهى : حديث [٤٣٤٤] ، وابن ماجة فى الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : حديث [٤٠١١] ، وأحمد فى المسند [٣/ ١٩] فى حديث طويل وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١١٠٠] .

(٣) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٢/ ١٩٠ ، وصحح اسناده الشيخ أحمد شاكر والحاكم فى « المستدرك » ٤/ ٩٦ ، وقال صحيح الأسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٥٠١] .

(٤) [صحيح] رواه أبو داود فى الملاحم ، باب الأمر والنهى [٤٣٣٨] ، والترمذى فى الفتن ، باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر [٢١٦٨] وابن حبان [١٨٣٧ موارد] ابن ماجة فى الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : حديث [٤٠٠٥] ، وأحمد فى « مسنده » ١/ ٢ و ٥/ ٩ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٩٧٤] .

(٥) [ضعيف] البزار رقم [٣٣٠٧] ، وقال الهيثمى فى المجمع [٧/ ٢٦٦] : فيه حبان بن على وهو متروك وقد وفقه ابن معين فى رواية وضعفه فى غيرها ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٤٦٥٠] .

فصل فى أركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك

اعلم : أن أركان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أربعة :

أحدها : أن يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً ، وهذا شرط لوجوب الإنكار .

فإن الصبى المميز ، له إنكار المنكر ، ويثُاب على ذلك ، ولكن لا يجب عليه .

وأما عدالة المنكر ، فاعتبرها قوم وقالوا : ليس للفاسق أن يحتسب ، وإنما استدلوا بقوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة : ٤٤] .

وليس لهم فى ذلك حجة .

واشترط قوم كون المنكر مأذوناً فيه من جهة الإمام أو الوالى ، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة ، وهذا فاسد ، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصى ، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم .

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم ، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا ، ولكن جوابهم أن يقال إذا جاءوا إلى القاضى طالبين حقوقهم : نصرتكم أمر بالمعروف ، واستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهى عن المنكر ولم يجىء زمان ذلك لأن الإمام لم يخرج بعد .

فإن قيل : فى الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم ، مع كونه حقاً ، فينبغى ألا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان .

قلنا : أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطة والعز ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة .

واعلم : أن الحسبة لها خمس مراتب

التعريف :

والوعظ بالكلام اللطيف :

الثالثة : السب والتعنيف ، ولسنا نعنى بالسب الفاحشة ، بل نقول له : يا جاهل يا أحمق ، ألا تخاف من الله تعالى ! ونحو ذلك .

والرابعة : المنع بالقهر ، ككسر الملاهى وإراقة الخمر .

والخامسة : التخويف والتهديد بالضرب ، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه ، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها ، لأنه ربما جر إلى فتنة .

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض .

فإن قيل : فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد ، والعبد على السيد ، والزوجة على الزوج ، والرعية على الوالى ؟

قلنا : أصل الولاية ثابت للكل ، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب :

فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف ، ثم بالوعظ والنصح باللطف .

وله من الرتبة الخامسة : أن يكسر العود ، ويريق الخمر ، ونحو ذلك ، وهذا الترتيب ينبغى أن يجرى فى العبد والزوجة .

وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيه أشد من الولد ، فليس معه إلا التعريف والنصح .

ويشترط كون المنكر قادراً على الإنكار ، فأما العاجز ، فليس عليه إنكار إلا بقلبه ، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى ، بل يلتحق به خوف مكروه يناله ، فذلك فى معنى العجز .

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع ، فينقسم إلى أربعة أحوال :

أحدها : أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه ، فيجب عليه الإنكار .

الحالة الثانية : أن يعلم أن كلامه لا ينفع وإنه إن تكلم ضرب ، فيرتفع الوجوب عنه .

الحالة الثالثة : أن يعلم أن إنكاره لا يفيد ، لكنه لا يخاف مكروهاً ، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة ، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين .

الحالة الرابعة : أن يعلم أنه يصاب بمكروه ، ولكن يبطل بفعله ، مثل أن يكسر العود ، ويريق الخمر ، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك ، فيرتفع الوجوب عنه ، ويبقى مستحباً لقوله فى الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل ، وإن علم أنه يُقتل ، لكن إن علم أنه لا نكاية له فى الكفار ، كالأعمى يطرح نفسه على الصف ، حرم ذلك ، وكذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده خمر وبيده سيف ، وعلم أنه لو أنكر عليه شرب الخمر وضرب عنقه ، لم يجز له الإقدام على ذلك ، لأن هذا لا يؤثر فى الدين أثراً يفديه بنفسه ، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر ، وظهر لفعله فائدة ، كمن يحمل فى صف الكفار ونحوه .

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه ، لم تجز له الحسبة ، لأن عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة فى شىء . ولسنا نعنى بالعلم فى هذه المواضيع إلا غلبة الظن ، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه لم يجب عليه الإنكار ، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب ، ولا اعتبار بحالة الجبان ، ولا بالشجاع المتهور ، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع ، والسليم المزاج . ونعنى بالمكروه : الضرب أو القتل ، وكذلك نهب المال ، والإشهار فى البلد مع تسويد

الوجه ، فأما السب والشتم ، فليس بعذر في السكوت ، لأن الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب .

الركن الثاني : أن يكون ما فيه الحسبة منكراً موجوداً في الحال ظاهراً ، فمعنى كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع في الشرع ، والمنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر ، فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذلك لو رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه .

وقولنا : موجوداً في الحال ، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها ، ونحو ذلك ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد ، وفيه أيضاً احتراز عما سيوجد في ثاني الحال ، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب الليلة ، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ .

وقولنا : ظاهراً ، احتراز ممن تستر بالمعصية في داره وأغلق بابه ، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه ، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار ، كأصوات المزامير والعيدان ، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي ، فإن فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الإنكار .

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل الاجتهاد ، فلا حسبة فيه ، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله متروك التسمية ، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه يسير النبيذ الذي ليس بمسكر .

الركن الثالث : في المنكر عليه ، ويكفي في صفته أن يكون إنساناً ، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بينا قبله من أنه ينكر على الصبي والمجنون .

الركن الرابع : نفس الاحتساب ، وله درجات وآداب .

الدرجة الأولى : أن يعرف المنكر ، فلا ينبغي له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما قد

ستر بثوب ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجرى ، بل لو أخبره عدلان ابتداءً أن فلاناً يشرب الخمر ، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر .

الدرجة الثانية : التعريف ، فإن الجاهل يقدم على الشيء لا يظنه منكراً ، فإذا عرف أقلع عنه ، فيجب تعريفه باللطف ، فيقال له : إن الإنسان لا يولد عالماً ، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علّمنا العلماء ، فلعل قريتك خالية من أهل العلم . فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء ، ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر ، واستدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه ، فقد غسل الدم بالبول .

الدرجة الثالثة : النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله ، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد ، ويحكى له سيرة السلف ، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب ، وهاهنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها ، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم ، وذل غيره بالجهل .

ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه ، وهو غاية الجهل ، ومذلة عظيمة ، وغرور من الشيطان ، ولذلك محك ومعيار ، فينبغى أن يمتحن به المحتسب نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه ، أو باحتساب غيره عليه ، أحب إليه من « عنه » باحتسابه ، فإن كانت الحسبة شاقة عليه ، ثقيلة على نفسه ، وهو يود أن يكفى بغيره ، فليحتسب ، فإن باعثه هو الدين ، وإن كان الأمر بالعكس ، فهو متبع هوى نفسه ، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره ، فليتق الله وليحتسب أولاً على نفسه .

وقيل لداود الطائى : أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ قال : أخاف عليه السوط . قيل : هو يقوى على ذلك ، قال أخاف عليه السيف ، قيل هو يقوى على ذلك ، قال أخاف عليه الداء الدفين : العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وإنما إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف ، وظهور مبادئ الإصرار ، والاستهزاء بالوعظ والنصح ولسنا نعنى بالسب : الفحش والكذب ، بل نقول له : يا فاسق ، يا أحمق ، يا جاهل ، ألا تخاف الله ، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ **أُفٍّ لَّكُمْ ولما تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٦٧] .

الدرجة الخامسة : التغيير باليد ، ككسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، وإخراجه من الدار المغصوبة ، وفى هذه الدرجة أدبان :

أحدهما : أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة ، فلا ينبغى أن يجره ولا يدفعه .

والثانى : أن يكسر الملاهى كسراً يبطل صلاحيتها للفساد ، ولا يزيد على ذلك ويتوقى فى إراقة الخمور الأوانى إن وجد إليه سبيلاً ، وإن لم يقدر إلا بأن يرمى ظروفها بحجر أو نحوه ، فله ذلك ، وتسقط قيمة الظروف ، ولو ستر الخمر بيديه ، فإنه يقصد يديه بالضرب ليتوصل إلى إراقة الخمر ، ولو كانت الخمر فى قوارير ضيقة الرءوس ، بحيث إنه إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه ، فله كسرها ، لأن هذا عذر ، وكذلك إن كان يضيع الزمان فى صبها ، وتتعطل أشغاله ، فله كسرها ولو لم يحذر من الفساق .

فإن قيل : فهلا يجوز الكسر زجراً ، وكذلك الجر بالرجل فى الإخراج من الدار المغصوبة زجراً ؟

قلنا : إنما يجوز مثل ذلك للولاة ، ولا يجوز لآحاد الرعية ، لخفاء وجه الاجتهاد فيه .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف كقوله : دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا ، وينبغى أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه .

والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه ، كقوله : لأنهبن دارك ولأسبين زوجك ، لأنه إن قال ذلك عن عزم ، فهو حرام ، وإن قاله عن غير عزم فهو كذب .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح ، وذلك للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة ، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف .

الدرجة الثامنة : أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح فإنه ربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدى إلى القتال ، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام ، لأنه يؤدى إلى الفتن وهيجان الفساد .

وقيل : لا يشترط فى ذلك إذن الإمام .

فصل فى صفات المحتسب

وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة ، وجملتها ثلاث صفات فى المحتسب .

العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها ، ليقتصر على حد الشرع .

والثانى : الورع ، فإنه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الأغراض .

والثالث : حسن الخلق ، وهو أصل ليتمكن من الكف ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه ما لم يكن فى الطبع خلق حسن .

قال بعض السلف : لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به ، رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به ، حليم فيما ينهى عنه ، فقيه فيما يأمر به ، فقيه فيما ينهى عنه

ومن الآداب : تقليل العلائق ، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة ، فقد حكى عن بعض السلف أنه كان له سِنَّوْرٌ[1] ، وكان يأخذ لسنوره فى كل يوم من

(١) السِنَّوْر : هو القط

قصاب فى جواره شيئاً من الغدد ، فرأى على القصاب منكراً ، فدخل الدار فأخرج السنور ، ثم جاءه فأنكر على القصاب ، فقال : لا أعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك ، فقال : ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك ، وهذا صحيح ، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار عليهم .

أحدهما : من لطف ينالونه به .

والثانى : من رضاهم عنه وثنائهم عليه .

وأما الرفق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمتعين ، قال الله تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا ﴾ [طه : ٤٤]

وروى أن أبا الدرداء رضى الله عنه مر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونه، فقال : أرأيتم لو وجدتموه فى قليب ، ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلى، قال : فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذى عافاكم ، فقالوا : أفلا تبغضه ؟ فقال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه ، فهو أخى .

ومر فتى يجر ثوبه ، فَهَمَّ أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً ، فقال صلة : دعونى أكفكم أمره ، ثم قال : يا ابن أخى ، إن لى إليك حاجة، قال : ما هى ؟ قال : أحب أن ترفع إزارك ، قال : نعم ونعمى عين ، فرفع إزاره ، فقال صلة لأصحابه : هذا كان أمثل مما أردتم ، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم .

ودعى الحسن إلى عرس ، فجىء بجام[1] من فضة فيه خبيص ، فتناوله وقلبه على رغيف ، فأصاب منه ، فقال رجل : هذا نهى فى سكون .

---

(١) وعاء .

بــاب في المنكرات المألوفة في العادات وفي الإنكار على الأمراء والسلاطين وأمرهم بالمعروف

ولنذكر في ذلك فصلين :

الفصل الأول :

اعلم : أن المنكرات المألوفة في العادات لا يمكن حصرها ، لكنا نشير إلى جمل يستدل بها على أمثالها ، فمن ذلك :

منكرات المساجد :

مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة ، من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب عمى أو ظلام .

ومن ذلك اللحن في القراءة .

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها ومن ذلك : تراسُلُ المؤذنين وتطويلهم مد كلماته .

ومن ذلك : أن يكون على الخطيب ثوب حرير ، أو بيده سيف مذهب .

ومن ذلك : ما يجري من القُصَّاص في المساجد من الكذب ، والأشياء المنهي عنها ، كالخوض في الكلام الموجب للفتن ، ونحو ذلك .

ومن ذلك : أن يكون الرجال مختلطين بالنساء ، فينبغي إنكار ذلك عليهم .

ومنها : الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة ، والتعويذات ، وقيام السُؤال ، وإنشادهم الأشعار ، ونحو هذا . فهذه منها ما هو حرام ، ومنها ما هو مكروه .

منكرات الأسواق :

ومن ذلك : الكذب فى المرابحة ، وإخفاء العيب ، فمن قال : اشتريت هذه السلعة بعشرة ، ورابح فيها درهماً ، وكان كاذباً ، فهو فاسق .

ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المسترى بكذبه ، فإن سكت مراعاة للبائع كان شريكاً له في الخيانة . وكذلك إذا علم العيب ، لزمه أن يبينه للمشترى ، وكذلك التفاوت في الميزان والذراع ، ويجب على كل من عرفه تغييره ، إما بنفسه أو برفعه إلى الوالى حتى يغيره .

ومنها : الشروط الفاسدة ، واستعمال الربا ، وبيع الملاهى والصور المجسمة ، ونحو ذلك .

منكرات الشوارع :

ومن ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة ، وإخراج الأجنحة ، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يؤدى إلى تضييق الطريق والإضرار بالمارة . فأما وضع الحطب والطعام فى الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز ، فإن ذلك يشترط الكافة فى الحاجة إليه .

ومن المنكرات : ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذى الناس ، فيجب المنع من ذلك ، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب .

ومن ذلك : تحميل الدواب من الأحمال ما لا يطيق ، وكذلك طرح الكناسة على جَوَادِّ الطريق ، وتبديد قشور البطيخ ، أو رش الماء بحيث يخشى منه الزلق ، والماء الذى يجتمع فى ميزاب معين ، فأما إن كان من المطر ، فذلك على الولاة ، وليس للآحاد فى ذلك إلا الوعظ .

منكرات الحمامات :

ومن ذلك : صور الحيوانات على باب الحمّام أو داخله ، ويكفى فى زوال ذلك

أن تشوه وجوه الصور ، بحيث يبطل به تصويرها ، ومن لم يقدر على الإنكار ، لم يجز له الدخول إلا للضرورة ، وليعدل إلى حمام آخر .

ومن ذلك : كشف العورات ، والنظر إليها ، وكشف المدلك عن الفخذ ، وما تحت السرة ، لتنحية الوسخ أو مس العورة .

ومنها : غمس اليد والأوانى النجسة فى المياه القليلة ، فإن فعل ذلك مالكى ، لم ينكر عليه ، بل يتلطف به ، ويقول له : يمكنك أن لا تؤذينى بتفويت الطهارة علىّ .

منكرات الضيافة :

ومن ذلك : فرش الحرير للرجال ، والبخور في مجمرة فضة أو ذهب ، والشرب فيهما ، واستعمال ماء الورد منهما ، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور ، وسماع القينات والأوتار ، واطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم ، فكل ذلك منكر يجب تغييره ، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج .

وأما الصور على النمارق[1] والبسط ، فليس بمنكر ، وكذلك الفراش الحرير ، والذهب للنساء ، فإنه جائز ، ولا رخصة فى تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب ، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز ، وفى المخانق والأسورة كفاية عن ذلك ، والاستئجار على ذلك غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام .

ومن ذلك : أن يكون فى الضيافة مبتدع يتكلم فى بدعته ، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر عليه الرد ، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه ، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب ، لم يجز الحضور ، ويجب الإنكار ، فإن كان مزحاً لا كذب فيه ولا فحش ، أبيح ما لم يقل من ذلك ، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه .

---

(١) النمارق : جمع نُمْرُقَة، وهي الوسادة ، وهى بضم النون والراء وبكسرهما ، وبغير هاء ،ومنه حديث « هند » يوم أحَد : نحنُ بناتُ طارقْ . . . نمشي على النمارِقْ . « النهاية » ٥ / ١١٨ .

المنكرات العامة :

من تيقن فى السوق منكراً يجرى على الدوام ، أو فى وقت معين وهو قادر على تغييره ، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود فى بيته ، بل يلزمه الخروج ، فإن قدر على تغيير البعض لزمه .

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه ، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه ، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته ، ثم إلى أهل بلده ، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم ، فإن قام بذلك الأقرب ، وسقط عن الأبعد ، وإلا خرج به كل قادر عليه .

الفصل الثانى فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف ، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما : التعريف والوعظ ، فأما تخشين القول ، نحو : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله ، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير ، لم يجز ، وإن لم يخف إلا على نفسه ، فهو جائز عند جمهور العلماء ، والذى أراه المنع من ذلك ، لأن المقصود إزالة المنكر ، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذى قصد إزالته ، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم ، فإن سمعوا من آحاد الرعية : يا ظالم ، يا فاسق ، رأوا غاية الذل ، لم يصبروا على ذلك .

قال الإمام أحمد رحمه الله :لا تتعرضن بالسلطان فإن سيفه مسلول ، فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم ، فإنهم كانوا يهابون العلماء ، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم فى الأغلب .

وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والأمراء فى كتاب « المصباح المضىء » وأنا أنتخب منه هاهنا حكايات .

• قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه :إنى موصيك بكلمات

من جوامع الإسلام ومعالمه : اخش الله فى الناس ، ولا تخش الناس فى الله ، ولا يخالف قولك فعلك ، فإن خير القول ما صدَّقه الفعل ، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك ، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته ، ولا تخف فى الله لومة لائم ، قال : ومن يستطيع ذلك يا أبا سعيد ؟ قال : من ركب فى عنقه مثل الذى ركب في عنقك .

•وقال قتادة : خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه من المسجد ومعه الجارود فإذا امرأة برزة على الطريق ، فسلم عليها ، فردت عليه ، أوسلمت عليه ، فرد عليها فقالت : هيه يا عمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً فى سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله فى الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت خشى الفوت ، فبكى عمر رضى الله عنه ، فقال الجارود : هيه ، لقد تجرأت على أمير المؤمنين وأبكيتيه .

فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه ؟ هى خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها من فوق سماواته ، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها .

•ودخل شيخ من الأزد على معاوية ، فقال : اتق الله يا معاوية ، واعلم أنك « فى» كل يوم يخرج عنك ، وفى كل ليلة تأتى عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ، ومن الآخرة إلا قرباً ، وعلى إثرك طالب لا تفوته ، وقد نصب لك علم لا تجوزه ، فما أسرع ما تبلغ العلم ، وما أوشك أن يلحقك الطالب ، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل ، والذى نحن صائرون إليه باق ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

• ودخل سليمان بن عبدالملك المدينة ، فأقام بها ثلاثاً ، فقال : ما هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا ؟

فقيل له : هاهنا رجل يقال له : أبو حازم ، فبعث إليه ، فجاء .

فقال سليمان : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء ؟ فقال له أبو حازم : وأى جفاء رأيت منى ؟ فقال له : أتانى وجوه المدينة كلهم ولم تأتنى ؟ ! فقال : ما جرى بينى وبينك معرفة آتيك عليها . قال : صدق الشيخ ، يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . قال : صدقت يا أبا حازم ، فكيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً ، وأما المسىء فكالآبق يقدم على مولاه خائفاً محزونا . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال : يا أبا حازم، وأنّى أصيب تلك المعرفة من كتاب الله ؟ قال : عند قوله : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الإنفطار : ١٣ ، ١٤] .

قال يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال :﴿ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] قال : يا أبا حازم ، من أعقل الناس ؟ قال : من تعلم الحكمة وعلمها الناس . قال : فمن أحمق الناس ؟ قال : من حط نفسه فى هوى رجل وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال : يا أبا حازم ، فما أسمع الدعاء ؟ قال : دعاء المخبتين . قال : فما أزكى الصدقة ؟ قال : جهد المقل .

قال : يا أبا حازم ، ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : اعفنى من هذا . قال سليمان نصيحة تلقيها . قال أبو حازم : إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين ، ولا إجماع من رأيهم ، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا ، ثم ارتحلوا عنها ، فليت شعرى ، ما قالوا ؟ وما قيل لهم ؟ فقال بعض جلسائهم : بئس ما قلت يا شيخ ، فقال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . قال سليمان : يا أبا حازم ، أصحبنا تصيب منا ونصيب منك قال : أعوذ بالله من ذلك . قال : ولم ؟ قال : أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً ، فيذيقنى ضعف الحياة ، وضعف الممات . قال : فأشر علىّ . قال : اتق الله أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

قال : يا أبا حازم ، ادع لنا بخير . فقال : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير ، وإن كان غير ذلك ، فخذ إلى الخير بناصيته . قال : يا غلام ، هات مائة دينار ، ثم قال : خذ هذا يا أبا حازم . قال : لا حاجة لى به ، لى ولغيرى في هذا المال أسوة ، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لى فيها ، إنى أخاف أن يكون لما سمعت من كلامى . فكأن سليمان أعجب بأبى حازم ، فقال الزهرى : إنه لجارى منذ ثلاثين سنة ، ما كلمته قط ،فقال أبو حازم : إنك نسيت الله فنسيتنى . قال الزهرى : أتشتمنى ؟ قال سليمان : بل أنت شتمت نفسك ، أما علمت أن للجار على الجار حقاً ؟ قال أبو حازم : إن بنى إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء ، وكانت العلماء تفر بدينها منهم ، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم ، وأتوا به الأمراء ، واجتمع القوم على المعصية ، فسقطوا وانتسكوا ، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم ، لم تزل الأمراء تهابهم . قال الزهرى : كأنك إياى تريد وبى تعرض ؟ قال : هو ما تسمع .

•وحكى أن أعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك ، فقال : يا أميرالمؤمنين ، إنى مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته . قال : قل ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوه فيك ، خربوا الآخرة وعمَّروا الدنيا ، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا بمسئولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم النأس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره . فقال سليمان : أما أنت فقد سللت لسانك ، وهو أقطع من سيفك . فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك . قال : فهل من حاجة فى ذات نفسك ؟ قال : أما خاصة دون عامة فلا ، ثم قام فخرج .

فقال سليمان : لله دره ما أشرف أصله ، وأجمع قلبه ، وأزرب لسانه ، وأصدق نيته ، وأورع نفسه ، هكذا فليكن الشرف والعقل .

وقيل : وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبى حازم : عظنى . فقال : اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن .

● وقال محمد بن كعب لعمر بن عبدالعزيز : يا أمير المؤمنين ، وإنما الدنيا سوق من الأسواق ، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم ، وكم من قوم غرهم منها مثل الذى أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عُدَّة ، ولا لما كرهوا منها جُنة ، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التى نغبطهم بها فنخلفهم فيها ، وإلى الأعمال التى نتخوف عليهم فيها فنكف عنها ، فاتق الله ، وافتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، ورد الظالم . ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله عزوجل : إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

● ودخل عطاء بن أبى رباح علي هشام ، فرحب به وقال : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون ، فسكتوا . فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وعطياتهم . فقال : نعم ، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم ، ثم قال : يا أبا محمد هل من حاجة غيرها ؟ فقال : نعم ، فذكره بأهل الحجاز ، وأهل نجد ، وأهل الثغور ، ففعل مثل ذلك ، حتى ذكره بأهل الذمة أن لا يكلفوا ما لا يطيقون ، فأجابه إلى ذلك ، ثم قال له فى آخر ذلك : هل من حاجة غيرها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اتق الله فى نفسك ، فإنك خلقت وحدك ، وتموت وحدك ، وتحشر وحدك ، وتحاسب وحدك ، لا والله ما معك ممن ترى أحد .

قال : فأكب هشام يبكى ، وقام عطاء . فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه

بكيس ما ندرى ما فيه ، أدراهم أم دنانير ؟ قال : إن أميرالمؤمنين قد أمر لك بهذا ، فقال : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعرا : ١٢٧] ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها .

●وعن محمد بن على قال : إنى لحاضر مجلس المنصور ، وفيه ابن أبي ذئب ، وكان والى المدينة الحسن بن زيد ، فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبى جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد ، فقال الحسن : يا أميرالمؤمنين ، سل عنهم ابن أبى ذئب . قال : فسأله عنهم ، فقال : أشهد أنهم أهل الحطم فى أعراض الناس . فقال أبو جعفر : قد سمعتم ؟ فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين ، فسله عن الحسن بن زيد ، فسأله ، فقال : أشهد أنه يحكم بغير الحق . فقال : قد سمعت يا حسن . قال يا أمير المؤمنين : سله عن نفسك . فقال : ما تقول فىّ ؟ قال : أويعفينى أمير المؤمنين ؟ فقال : والله لتخبرنى . فقال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه ، وجعلته فى غير أهله . فوضع يده فى قفا ابن أبى ذئب ، وجعل يقول له : أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك . فقال ابن أبى ذئب : قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية ، وأخذا بأقفاء فارس والروم ، فخلاه أبو جعفر ، وقال : والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين إنى أنصح لك من ابنك المهدى .

●وعن الأوزاعى رحمه الله قال : بعث إلىَّ المنصور وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه استجلسنى ، ثم قال : ما الذى أبطأ بك يا أوزاعى ؟

قلت : وما الذى تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم قلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به ، فصاح بى الربيع وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، حدثنى مكحول عن عطية

بن بُسر قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة » [(١)].

يا أمير المؤمنين ، كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ، أحمرهم ، وأسودهم ، ومسلمهم ، وكافرهم ، وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام ، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه .

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن زياد بن جارية ، عن حبيب بن مسلمة ، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه ـ في خدش خدشه ـ أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله تعالى لم يبعثك جباراً ولا متكبراً فدعا ﷺ الأعرابي ، فقال : « اقتص مني » فقال الأعرابي : قد أحللتك ، بأبي أنت وأمي ، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ، ولو أتيت على نفسي . فدعا له بالخير [(٢)]

يا أمير المؤمنين ، رض نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك .

يا أمير المؤمنين ، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك : ﴿ **مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** ﴾ [٤٩ الكهف : ٤٩] .

قال : الصغير : التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فكيف بما عملته الأيدي ، وحصدته الألسن .

يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة ، لخشيت أن أسأل عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟

---

(١) البخاري في الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح : حديث [٧١٥١] ، ومسلم في الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار : حديث [١٤٢] .

(٢) [ضعيف] الحاكم في « مستدركه » ٤ / ٣٣١ من طريق محمد بن مصعب القرقسائي ، وهو ضعيف .

يا أمير المؤمنين ، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ [ص : ٢٦] .

قال : إذا قعد الخصمان بين يديك ، وكان لك في أحدهما هوى ، فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلج على صاحبه ، فأمحوك من نبوتى ، ثم لا تكون خليفتى ، يا داود : إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ، ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسر ، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء .

يا أمير المؤمنين ، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه .

يا أمير المؤمنين : حدثنى يزيد بن يزيد جابر عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرة الأنصارى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيماً ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين فى سبيل الله ؟ قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « ما من وال يلى شيئاً من أمور الناس ، إلا أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، يوقف على جِسر جهنم ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فهوى به فى النار سبعين خريفاً »[1] . فقال له : ممن سمعت هذا ؟ فقال : من أبى ذر وسلمان رضى الله عنهما ، فأرسل إليهما عمر فسألهما ، فقال : نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ . فقال عمر : واعمراه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر رضى الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خده بالأرض ، فأخذ المنديل - يعنى المنصور - فوضعه على وجهه

(١) [صحيح] رواه أحمد فى « المسند » مختصراً [٥ / ٢٦٧] قال الهيثمى [٥ / ٢٠٥] : رواه أحمد، الطبرانى وفيه يزيد بن أبى مالك ، وثقه ابن حبان وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، وقال المنذرى [٣ / ١٣٢ - ١٣٣] : رواه أحمد ورواته ثقات إلا يزيد بن أبى مالك ، وهو ثقة ، وقال بعضهم : لين وصححه الألبانى فى الصحيحة [٣٤٩] .

ثم بكى وانتحب حتى أبكانى .

ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، قد سأل جدك العباس رسول الله ﷺ إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن ، فقال له ﷺ : « يا عم ، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها »[١] نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه ، وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئاً إذ أوحى إليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

فقال :« يا عباس ، ويا صفية ، ويا فاطمة ، إنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً ، لى عملى ولكم عملكم »[٢] ، وقد قال عمر بن الخطاب : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف[٣] العقل ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . . . وذكر تمام كلامه للمنصور ، ثم قال : فهى نصيحة ، والسلام عليك .

ثم نهض فقال : إلى أين ؟ فقال : إلى الوطن بإذن أمير المؤمنين . فقال : أذنت لك ، وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها بقبولها ، والله الموفق للخير . والمعين عليه وبه أستعين ، وعليه أتوكل ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثلها ، فإنك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة .

قلت : أفعل إن شاء الله . فأمر له بمال يستعين به على خروجه ، فلم يقبله ، وقال أنا فى غنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا كلها ، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى رده .

• ولما حج الرشيد قيل له : يا أمير المؤمنين ، قد حج شيبان . قال : اطلبوه لى ، فأتوه به ، فقال : يا شيبان ، عظنى ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا رجل ألكن ، لا

---

(١) قال الحافظ العراقى فى « المغنى » رواه ابن أبى الدنيا معضلاً بغير اسناد ، رواه البيهقى من حديث جابر متصلاً ، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً ، وقال : هو المحفوظ مرسلاً .

(٢) البخارى فى الوصايا ، باب هل يدخل النساء والولد فى الأقارب : حديث [٢٧٥٣] ، ومسلم فى الإيمان ، باب فى قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » : حديث [٢٠٦] .

(٣) حصيف العقل : أى محكم العقل . « النهاية » ١/ ٣٩٦ .

أفصح بالعربية ، فجئني بمن يفهم كلامي حتى أكلمه ، فأتى برجل يفهم كلامه ، فقال له بالنبطية : قل له : يا أمير المؤمنين ، إن الذى يخوفك قبل أن تبلغ المأمن أنصح لك من الذى يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف ، قال له : أى شيء تفسير هذا ؟ قال : قل له : الذى يقول لك : اتق الله فإنك رجل مسئول عن هذه الأمة ، استرعاك الله عليها . وقلدك أمورها ، وأنت مسئول عنها ، فاعدل فى الرعية ، واقسم بالسوية ، وانفر فى السرية ، واتق الله فى نفسك ، هذا الذى يخوفك ، فإذا بلغت المأمن أمنت ، هذا أنصح لك ممن يقول أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم وفى شفاعته ، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت[١] ، قال : فبكى هارون حتى رحمه من حوله ثم قال : زدنى ، قال : حسبك ! .

• وعن علقمة بن مرثد ، قال : لما قدم عمر بن هبيرة العراق ، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبى ، فأمر لهما ببيت ، فكانا فيه نحواً من شهر ، ثم دخل عليهما وجلس معظماً لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلىَّ كتباً ، أعرف أن فى إنفاذها الهلكة ، فإن أطعته عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله ، فهل تريان فى متابعتى إياه فرجاً ؟ فقال الحسن : يا أبا عمرو ، أجب الأمير . فتكلم الشعبى فانحط فى أمر ابن هبيرة ، كأنه عذره ، فقال : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ قال : أيها الأمير قد قال الشعبى ما قد سمعت . فقال : ما تقول أنت ؟ قال : أقول : يا عمر بن هبيرة ، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك .

يا عمر بن هبيرة ، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالى .

يا عمر بن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك .

---

(١) هلكت .

يا عمر بن هبيرة ، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة ، كانوا عن الدنيا وهى مقبلة عليهم أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهى مدبرة عنكم .

يا عمر بن هبيرة ، إنى أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١٤] .

يا عمر بن هبيرة ، إن تك مع الله فى طاعته ، كفاك يزيد بن عبد الملك ، و تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصى الله ، وكلك الله إليه .

فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته .

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما ، وأكثر فيه للحسن ،وكان فى جائزة الشعبى بعض الإقتار ، فخرج الشعبى إلى المسجد ، فقال : أيها الناس ، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل ، فو الذى نفسى بيده ، ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته ، ولكنى أردت وجه ابن هبيرة ، فأقصانى الله منه [1].

• ودخل محمد بن واسع رحمه الله على بلال بن أبى بردة فى يوم حار وبلال فى خَيْشة ، وعنده الثلج ، فقال له : يا أبا عبد الله ، كيف ترى بيتنا هذا ؟ قال : إن بيتك لطيب ، والجنة أطيب منه ، وذكر النار يلهى عنه . قال : ما تقول فى القدر ؟ قال : جيرانك أهل القبور ، ففكر فيهم ، فإن فيهم شغلاً عن القدر . قال ادع الله لى . قال : وما تصنع بدعائى ؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون : إنك ظلمتهم ، يرفع دعاؤهم قبل دعائى ، لا تظلم ، ولا تحتاج لدعائى .

فهذا مختصر من أخبار من وعظ الأمراء ، فمن أراد الزيادة ، فلينظر فى « المصباح المضىء » .

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقاتهم ، إلا أن

(١) انظر حلية الأولياء [٢ / ١٤٩] .

السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض مواعظ هؤلاء .

والذى أراه الآن ، الهرب من السلاطين ، فهو الأولى ، فإن قدر لقاء ، اقتنع بلطف الموعظة حسب .

ولذلك سببان :

أحدهما : يتعلق بالواعظ ، وهو سوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء ، فلا يخلص له وعظه .

والثانى : يتعلق بالمواعظ ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء ، وليس لمؤمن أن يذل نفسه .

آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذكر المصنف قبل ذلك كتاباً فى السماع والوجد ، فلنذكر شيئاً منه ها هنا مختصراً .

فصل فى حكم السماع

اعلم : أن السماع الذى نعنى به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب ، وغر به خلقاً لا يحصون من العلماء والزهاد ، فضلاً عن العوام ، حتى ادَّعَوْا حضور القلب مع الله عند سماع الأغانى المطربة ، وظنوا ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها ، وجد يتعلق بالآخرة .

وإذا أردت أن تعرف الحق ، فانظر فى القرن الأول ، هل فعل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك أو أصحابه ، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابيعهم ، وفقهاء الأمة ، كمالك ، وأبى حنيفة ، والشافعى ، وأحمد ، رحمهم الله ، فكل القوم ذموا الغناء، حتى قال مالك : إذا اشتري جارية ، فوجدها مغنية ، كان له ردها ، وسئل عن الغناء، قال : إنما يفعله الفساق .

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية ، فاحتاج الصبى إلى بيعها ، فقال : تباع على أنها ساذجة لا مغنية ، فقيل له : إنها تساوى ثلاثين ألفاً

إذا كانت مغنية ، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين ديناراً ، فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء .

ومن المتأخرين أبو الطيب الطبرى من كبار أصحاب الشافعى ، وصنف كتاباً ، وبالغ فى النهى عنه ، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون ، قالوا : قد أجازه قوم من السلف .

وقد سمع أحمد بن حنبل قول قوّال ، فقال : لا بأس بهذا ، فينبغى أن يتأمل الذى أفتى بجوازه ما هو ، وليس إلا الأشعار الزهدية وما يشبهها ، من غير ضرب بقضيب ، أو آلة تطرب ، ولا ضم إلى ذلك تصفيق ولا رقص .

وعلى هذا يحمل حديث عائشة (١) فى الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بُعاث (٢) فإن ذلك لا يطرب .

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر الرقيق ، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة فى النفوس وتزعج ، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقاً بالآخرة ، وهيهات .

وليتهم قالوا : إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه ، وإنما يظنونه قربة ، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وَجْداً ، وربما أوجد الطرب ما لا يحل ، من تمزيق الثياب والتخبيط ، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف ، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة ، فلا ينبغى للإنسان أن يغالط نفسه ، وإنما الوَجْد الصحيح وَجْد القلب عند سماع القرآن والوعظ ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد ، وشوق من الوعد ، وندم على التفريط ، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر ، لا الجمز ، والتصفيق ، ولم يضق علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد ، حتى نحتاج

---

(١) البخارى فى العيدين ، باب سُنة العيدين لأهل الإسلام حديث [٩٥٢] ومسلم فى صلاة العيدين ، باب الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه حديث [٨٩٢] والنسائى [٣/ ١٩٥] .

(٢) يوم مشهور كان فيه حرب بين الأوس والخزرج [النهاية ١ / ١٣٩] .

فى إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسعدى ، ولا ننكر أنه يتفق فى بعض تلك الأشعار ما يصح أن يوجد إشارة ، إلا أن الأغلب منها إمالة القلوب إلى الهوى الدنيوى .

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة ، كمثل من قال : أنا أنظر إلى الأمرد المستحسن لأتعجب من صنعة القادر ، فإنه قد أخطأ الطريق ، لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه ، فلذلك نمنعه ونقول : انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى :﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** ﴾ [ق: ٦] . ومن قال : إنه لا يؤثر عندى ما يؤثر عند غيرى من انجذاب الطبع إلى الهوى ، كان مدعياً ما يخالف الجبلة ، فلا يلتفت إلى دعواه ، وقد بالغت فى الكشف عن هذا كله فى كتابى المسمى بـ « تلبيس إبليس » فلم أر التطويل ها هنا ، والله أعلم .

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

اعلم : أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتائج الأخلاق ، والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها ، وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها .

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغنى عن إعادتها ها هنا ، لكن نقتصر فى هذا الباب على شىء من آداب رسول الله ﷺ وأخلاقه لنجمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التى يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم مرتبة وأجلهم قدراً ، فكيف بمجموعها ؟

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن[١] ، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم : ٥] ، فسبحان من أعطى ثم أثنى .

وهذه جملة من محاسن أخلاقه ﷺ وصفته :

كان رسول الله ﷺ أحلم الناس ، وأسخى الناس ، وأعطف الناس .

وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخدم فى مهنة أهله[٢] .

وكان أشد حياءً من العذراء فى خدرها[٣] .

---

(١) [صحيح] رواه مسلم فى صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل حديث [٧٤٦] وأبو داود فى الصلاة [١٣٤٢] وابن ماجة فى الأحكام حديث [٢٣٣٣] والحاكم [٢ / ٤٩٩] والنسائى [٣ / ٢١٨] وأحمد فى المسند [٦ / ٥٤ ، ٩١ ، ١١١] .

(٢) [صحيح] أحمد فى المسند (٦ / ١٢١ ، ١٦٧ ، ٢٦٠] وهو فى صحيح الجامع [٤٩٣٧] .

(٣) [متفق عليه] البخارى فى المناقب ، باب صفة النبى ﷺ حديث [٣٥٦٢] ومسلم فى الفضائل ، باب كثرة حيائه ﷺ حديث [٢٣٢٠] ، وابن ماجة فى : الزهد : باب الحياء : حديث [٤١٨٠]، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٧١ و ٩١ .

كان يجيب دعوة المملوك ، ويعود المرضى [١]، ويمشى وحده ، ويردف خلفه ، ويقبل الهدية ، ويأكلها ، ويكافئ عليها ، ولا يأكل الصدقة ، ولا يجد من الدقل [٢] ما يملأ بطنه [٣]، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً [٤].

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع .

وكان يأكل ما حضر ، وما عاب طعاماً قط [٥] .

وكان لا يأكل متكئاً [٦]، ويأكل مما يليه .

وكان أحب الطعام إليه اللحم ، ومن الشاة الكتف ، ومن البقول الدُّباء ، ومن الصبغ الخل ، ومن التمر العجوة .

وكان يلبس ما وجد ، مرة برد حبرة [٧]، ومرة جبة صوف .

---

(١) الترمذى فى الجنائز ، حديث [١٠١٧] ، وابن ماجه فى الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع : حديث [٤١٧٨] .

(٢) الدَّقل : هو رديء التمر ويابسه ، وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ، ويكون منثوراً . « النهاية » ٢/ ١٢٧ .

(٣) مسلم فى الزهد : فى المقدمة : حديث [٢٩٧٧] ، والترمذى فى الزهد ، باب ما جاء فى معيشة أصحاب النبى : حديث [٢٣٧٢] ، وابن ماجة فى : الزهد : باب معيشة آل محمد : حديث [٤١٤٦] ، وأحمد فى « مسنده » ١/ ٢٤ و ٤/ ٢٦٨ .

(٤) البخارى فى : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة : ٢٣ ـ باب ما كان النبى وأصحابه يأكلون : حديث [٥٤١٦] ، ومسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد : فى المقدمة : حديث [٢٤ / ١٠٥٥] ، والترمذى فى : الزهد : باب ما جاء فى معيشة النبى وأهله : حديث [٢٣٥٨] ، وابن ماجه فى : الأطعمة : باب خبز البر : حديث [٣٣٤٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ٤٤٢ و ٦ / ٢٠٩ .

(٥) [صحيح] أبو داود فى : الأطعمة : باب فى كراهية ذم الطعام : حديث [٣٧٦٣] والترمذى فى : البر والصلة : باب ما جاء فى ترك العيب للنعمة : حديث [٢٠٣١] ، وابن ماجة فى : الأطعمة : باب النهى أن يعاب الطعام : حديث [٣٢٥٩] .

(٦) البخارى فى الأطعمة : حديث [٥٣٩٩] ، وأبو داود فى : الأطعمة : حديث [٣٧٦٩] ، والترمذى فى : الأطعمة : حديث [١٨٣٠] ، وابن ماجة فى الأطعمة : حديث [٣٢٦٢] ، والدارمى فى : الأطعمة : حديث [٢٠٧١] ، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ٣٠٨ و ٣٠٩ .

(٧) حبَرَة : ثوب من قطن أو كتان مخطط ، كان يصنع باليمن « المعجم الوجيز » ص [١٣١] .

ويركب تارة بعيراً ، وتارة بغلة ، وتارة حماراً ، ويمشي مرة راجلاً حافياً .

وكان يحب الطيب[(١)] ، ويكره الريح الخبيثة .

ويكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف .

ولا يجفو على أحد ، ويقبل معذرة المعتذر إليه .

يمزح ولا يقول إلا حقا[(٢)] ، يضحك فى غير قهقهة ، لا يمضى عليه وقت فى غير عمل لله تعالى ، أو فيما لابد منه من صلاح نفسه .

وما لعن امرأة ولا خادماً قط .

وما ضرب أحداً بيده قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله .

وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله[(٣)] .

وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما ، إلا أن يكون مأثماً أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس منه[(٤)] .

وقال أنس رضى الله عنه : خدمته عشر سنين ، فما قال لى : أف قط ، ولا قال لشىء فعلته : لم فعلته ، ولا لشىء لم أفعله : لا فعلت كذا ؟[(٥)]

---

(١) [صحيح] النسائى فى : عشرة النساء : باب حب النساء : حديث [١] ، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ١٢٨ و ٢٨٥ ، والحاكم فى « مستدركه » ٢ / ١٦٠ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٣١٢٤] .

(٢) [صحيح] الطبرانى ١٢ / ٣٩١ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٢٤٩٤] .

(٣) مسلم فى : الفضائل : باب مباعدته للآثام : حديث [٢٣٢٨] ، وابن ماجة فى : النكاح : باب ضرب النساء : حديث : [١٩٨٤] ، والدارمى فى : النكاح : باب فى النهى عن ضرب النساء : حديث [٢٢١٨] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٢٢٩ و ٢٣٢ .

(٤) البخارى فى : المناقب : حديث [٣٥٦٠] ، ومسلم فى : الفضائل : حديث [٢٣٢٧] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٧٨٥] ، و مالك فى : حسن الخلق : حديث [٢] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٨٥ و ١١٤ .

(٥) مسلم فى : الفضائل : حديث [٢٣٠٩] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٧٧٣] ، والدارمى فى : المقدمة [٦٢] .

ومن صفته فى التوراة : محمد رسول الله ، عبدى المختار ، ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح .

وكان من خلقه أنه يبدأ بالسلام من لقيه ، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ .

وكان يجلس حيث ينتهى به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم ، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه .

وكان طويل السكوت ، فإذا تكلم لم يسرد كلامه [١]، بل يتثبت فيه ويكرره ليُفهم .

وكان يعفو مع القدرة ، ولا يواجه أحداً بما يكره .

وكان أصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ومن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، وكان أصحابه إذا تكلموا فى أمر الدنيا تحدث معهم ، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وكان أشجع الناس . قال بعض أصحابه : كنا إذا احمرت الحدق واشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ [٢]، ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير ، كان ربعة من القوم .

وكان أزهر [٣] اللون ولم يكن بالآدم [٤].

---

(١) البخارى فى : المناقب : ٢٣ ـ باب صفة النبى : حديث [٣٥٦٨] ، ومسلم فى : فضائل الصحابة : باب من فضائل أبى هريرة : حديث [٢٤٩٣] ، وأبو داود فى : العلم : حديث [٣٦٥٥] ، والترمذى فى : المناقب : حديث [٣٦٣٩] وأحمد فى « مسنده » ٢ / ١٩٩ .

(٢) [صحيح]أحمد فى « مسنده » ١ / ١٥٦ .

(٣) أبيض مستنير مائل إلى الحمرة .

(٤) البخارى فى المناقب : حديث [٣٥٤٧] ، ومسلم فى : الفضائل : حديث [٨٢ / ٢٣٣٠] ، والدارمى فى : المقدمة : حديث [٦١] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٨٩ .

وكان رجل الشعر ، ليس بالسبط ولا الجعد القطط [١]، وكان شعره إلى شحمة أذنه [٢].

وكان واسع الجبهة ، أزج [٣]الحواجب ، أدعج العينين[٤] ، أهدب الأشفار[٥]، أقنى العرنين [٦]، سهل الخدين ، كث اللحية ، كأن عنقه جيد دمية ، عريض الصدر ، سواء البطن والصدر ، رحب الراحة ، طويل الزندين كفه ألين من الحرير ﷺ [٧].

وأما معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم :

فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم ، لم يبق عنده ريب فى أن ذلك لم يكن محتسباً بحيلة ، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وإن ذلك لا يصح لُملَبِّس ولا كذاب ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه .

ومن أعظم معجزاته ، وأوضح دلالاته القرآن العزيزالذى عجز الخلائق عن الإتيان بمثله ، ومعجز كل نبى انقضى بذهابه ، وهذا المعجز باق أبداً .

---

(١) أى ليس ناعم شديد النعومة ، ولا بالخشن ، مسترسل به تثن خفيف .

(٢) البخارى فى : المناقب : حديث [٣٥٥١] ، وأبو داود فى : اللباس : حديث [٤٠٧٢] ، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٢٤٩ .

(٣) مقوس .

(٤) شديد سواد العينين .

(٥) طويل رمش العين .

(٦) طويل الأنف مع دقة الأرنبة ، والأرنبة أسفل الأنف .

(٧) البخارى فى : المناقب : حديث [٣٥٦١] ، ومسلم فى : الفضائل : حديث [٢٣٣٠]، والدارمى فى : المقدمة : حديث [٦٢] ، وأحمد فى « مسنده» ٣ / ١٠٧ و٢٠٠ و٢٢٢ .

ومن معجزاته انشقاق القمر [١] ونبع الماء من بين أصابعه [٢] وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير [٣] ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير وحنين الجذع إليه كما يحن العشار [٤]، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال ، ورد عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه ، وتفل فى عين علىّ رضى الله عنه وهو أرمد فصح من وقته [٥]، إلى غير ذلك من المعجزات التى شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها .

نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته ، إنه كريم مجيب ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) البخارى فى : المناقب : حديث [٣٦٣٧] ، ومسلم فى : صفات المنافقين : حديث [٢٨٠٢] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٣٧٧ و ٤١٣ و ٤٤٧ .

(٢) البخارى فى : الوضوء : حديث [١٦٩] ، ومسلم فى : الفضائل : حديث [٢٢٧٩] ، والترمذى فى : المناقب : حديث [٣٦٣١]، والدارمى فى : المقدمة : حديث [٢٧ : ٣٠] ، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ١٤٧ و ١٧٠ و ٢١٥ .

(٣) البخارى فى : المناقب حديث [٣٥٧٨] ، ومسلم فى : الأشربة : حديث [٢٠٣٩] ، والترمذى فى : المناقب : حديث [٣٦٣٠] .

(٤) البخارى فى : المناقب : حديث [٣٥٨٣ و ٣٥٨٤] ، والترمذى فى : الجمعة : حديث [٥٠٥] ، والنسائى فى : الجمعة : حديث [١] ، وابن ماجة فى : الإقامة : حديث [١٤١٤] ، والدارمى فى المقدمة : حديث [٣١ ـ ٣٢] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٢٤٩ و ٢٦٧ و ٣٦٣ .

(٥) مسلم فى : فضائل الصحابة : حديث [٣٢ / ٢٤٠٤] ، وأحمد فى « مسنده» ١ / ١٨٥ و ٣٣١ و ٤ / ٥٢ .

الربع الثالث من الكتاب

ربـــع المهلكـــات

كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم : أن أشرف ما فى الإنسان قلبه ، فإنه العالم بالله ، العامل له ، الساعى إليه ، والمقرب المكاشف ، بما عنده ، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد .

ومن عرف قلبه عرف ربه ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم ،والله يحول بين المرء وقلبه ، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته ، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين ، وأساس طريق السالكين .

فصل فى مداخل إبليس فى قلب الإنسان

اعلم : أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى ، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك ، والتطارد فيه بين جندى الملائكة والشياطين دائم ، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما ، فيتمكن ، ويستوطن ، ويكون اجتياز الثانى اختلاساً ، كما قال تعالى : ﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ [الناس : ٤] وهو الذى إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط ، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى ، فإنه لا قرار له مع الذكر .

واعلم : أن مثل القلب كمثل حصن ، والشيطان يريد أن يدخل الحصن ، ويملكه ويستولى عليه ،ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه ، ولا يقدر عل حراسة أبوابهمن لا يعرفها ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخلة ، ومداخل الشيطان وأبوابه ، صفات العبد ، وهى كثيرة ، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الحسد ، والحرص ، فمتى كان العبد حريصاً على شىء، أعماه حرصه وأصمه ، وغطى نور بصيرته التى يعرف بها مداخل الشيطان .

وكذلك إذا كان حسوداً ، فيجد الشيطان حينئذ الفرصة ، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان منكراً أو فاحشاً .

ومن أبوابه العظيمة : الغضب ، والشهوة ، والحدة ، فإن الغضب غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان ، وقد روى أن إبليس يقول : إذا كان العبد حديداً ، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة .

ومن أبوابه : حب التزين في المنزل والثياب والأثاث ، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، والتزين بالثياب ، والأثاث ، فيسخر الإنسان طول عمره في ذلك .

ومن أبوابه : الشبع ، فإنه يقوى الشهوة ، ويشغل عن الطاعة .

ومنها : الطمع في الناس ، فإن من طمع في شخص ، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه ، وداهن ، ولم يأمره بالمعروف ، ولم ينهه عن المنكر .

ومن أبوابه : العجلة ، وترك التثبت ، وقد قال النبي ﷺ : « العجلة من الشيطان ، والتأني من الله تعالى » [1] .

ومن أبوابه : حب المال ، ومتى تمكن من القلب أفسده ، وحمله على طلب المال من غير وجهه ، وأخرجه إلى البخل ، وخوفه الفقر ، فمنع الحقوق اللازمة .

ومن أبوابه : حمل العوام على التعصب في المذاهب ، دون العمل بمقتضاها .

ومن أبوابه أيضاً : حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى ، وصفاته ، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين .

ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين ، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه احتقره

---

(١) [حسن] أخرجه أبو يعلى في مسنده [٣ / ١٠٥٤] والبيهقي في السنن الكبرى [١٠ / ١٠٤] ، قال الألباني في الصحيحة [١٧٩٥] وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير سعد بن سنان وهو حسن الحديث .

وأطلق فيه لسان ، ورأى نفسه خيراً منه ، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان ، لأن المؤمن يتطلب المعاذير للمؤمن ، والمنافق يبحث عن عيوبه .

وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم ، لئلا يساء به الظن ، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان ، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة ، وسيأتى الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً .

إذا قلعت من القلب أصول هذه الصفات ، وبقى للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار ، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى ، وعمارة القلب بالتقوى .

ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز ، فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع ، لم يندفع عنك بمجرد الكلام ، فكذلك القلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر .

فأما القلب الذى غلب عليه الهوى ، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه ، فلا يتمكن الذكر من سويدائه ، فيستقر فى السويداء .

وإذا أردت مصداق ذلك ، فتأمل هذا فى صلاتك ، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك فى مثل ذلك الموطن ، بذكر السوق ، وحساب المعاملين ، وتدبير أمر الدنيا .

واعلم :أنه قد عفى عن حديث النفس ، ويدخل فى ذلك ما هممت به ، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة ، وإن تركه لعائق ، رجونا له المسامحة ، إلا أن يكون عزماً ، فإن العزم على الخطيئة خطيئة ، بدليل قول ﷺ : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار** » قيل : ما بال المقتول ؟

قال : «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » (١) .

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم ، والأعمال بالنية ، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة ؟ ولو أن إنساناً رأي على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها ، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها ، وكل هذا متعلق بعقد القلب .

فصل فى ثبات القلوب على الخير

وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، يا مصرف القلوب اصرف قلبنا إلى طاعتك » (٢) .

وفى حديث آخر : « مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح » (٣) .

واعلم :أن القلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة :

القلب الأول : قلب عُمِّر بالتقوى ، وزكى بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق ، فتتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ، فيمده الملك بالهدى .

القلب الثانى : قلب مخذول ، مشحون بالهوى ، مندس بالخبائث ، ملوث بالأخلاق الذميمة ، فيقوى فيه سلطان الشيطان لا تساع مكانه ، ويضعف سلطان الإيمان ، ويمتلىء القلب بدخان الهوى فيعدم النور ، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر ، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ .

---

(١) [متفق عليه]البخارى فى كتاب الإيمان ، باب « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » : حديث [٣١] ، ومسلم فى : كتاب الفتن ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما حديث [٢٨٨٨] ، والنسائى فى : تحريم الدم : باب تحريم القتل : حديث [٣، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨] ، وابن ماجة فى : الفتن : باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما : حديث [٣٩٦٣ : ٣٩٦٥] .

(٢) [صحيح]مسلم فى كتاب القدر ، باب تصريف الله القلوب كيف شاء : حديث [٢٦٥٤] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ٤١٨ .

(٣) [صحيح]ابن ماجه فى : المقدمة : ١٠ ـ باب فى القدر : حديث [٨٨] ، وهو فى صحيح الجامع [٥٨٣٣] .

والقلب الثالث : قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى ، فيدعوه إلى الشر ، فليحقه خاطر الإيمان ، فيدعوه إلى الخير .

مثاله ، أن يحمل الشيطان حملة على العقل ، ويقوى داعي الهوى ويقول : أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم في هواها ، حتى يَعُدَّ جماعة من العلماء ، فتميل النفس إلى الشيطان ، فيحمل الملك حملة على الشيطان ، ويقول : هل هلك إلا من نسي العاقبة ، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم ، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد ، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس ولا تخالفهم فيما يئول إلى النار ؟ فتميل النفس إلى قول الملك ، ويقع التردد بين الجندين ، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به ، فمن خلق للخير يسر له ، ومن خلق للشر يشر له :﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه .

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

وذلك فى فصول :

اعلم : أن الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين ، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة ، وتنخرط بصاحبها فى سلك الشيطان ، وأمراض تفوت جاه الأبد ، فينبغى أن تعرف العلل ثم التشمير فى معالجتها ، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض ، وكيفية معالجتها فى الجملة من غير تفصيل ، فإن ذلك يأتى مبيناً إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول فى فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذكر شىء من ذلك فى آداب الصحبة .

واعلم : أن الناس قد تكلموا فى حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته ، ولم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل منهم ما حضر فى ذهنه ، وكشف الحقيقة فى ذلك أن يقال : كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق ، فيقال : فلان حسن الخَلق والخُلق أى : حسن الظاهر والباطن ، فالمراد بالخَلق : الصورة الظاهرة ، والمراد بالخُلق : الصورة الباطنة ، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس .

فالجسد مدرك بالبصر ، والنفس مدركة بالبصيرة ، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أو قبيحة ، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ، ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى أمره فقال : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [ص ٧١ ، ٧٢] .

فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين ، والروح منسوب إليه سبحانه وتعالى ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة عنا الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً ، وإن كانت قبيحة

سميت خلقاً سيئاً .

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة ، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر .

والجواب : أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى ، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشى يستأنس ، والكلب يعلم ترك الأكل ، والفرس تعلم حسن المشى وجودة الانقياد ، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح ، وبعضها مستصعبة .

وأما خيال من اعتقد أن ما فى الجبلة لا يتغير ، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية ، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط ، وأما قمعها بالكلية فلا ؛ كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية فى الجبلة ، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية ، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب ، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار ، وقال تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، ولم يقل : الفاقدين الغيظ .

وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل ، قال الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] ، إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة ، حسن أن يبالغ في ذمها على الإطلاق ليرده إلى التوسط ، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً ، وهو وسط بين طرفى التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

واعلم : أن هذا الاعتدال تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق ، فكم من صبى يخلق صادقاً سخياً حليماً ، وتارة يحصل بالاكتساب ، وذلك بالرياضة ، وهى حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطوب ، فمن أراد تحصيل خلق الجود ، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له .

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين ، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً فى ذلك ؛ كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة ، أوفقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار ، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه ، إلا أنه لا ينبغى أن يطلب تأثير ذلك فى يومين أو ثلاثة ، وإنما يؤثر مع الدوام كما لا يطلب فى النمو علو القامة فى يومين أو ثلاثة ، وللدوام تأثير عظيم .

وكما لا ينبغى أن يستهان بقليل الطاعات ، فإن دوامها يؤثر ، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب .

وكما أن تعاطى أسباب الفضائل يؤثر فى النفس ويغير طبعها ، وكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة ، فيحرم بسببه كل خير .

وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير ، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر .

قلت : ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »(١) .

الفصل الثانى فى بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال فى الأخلاق هو الصحة فى النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض ، فاعلم أن مثال النفس فى علاجها كالبدن فى علاجه ، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء ، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة

(١) [حسن]أبو داود فى الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس حديث [٤٨٣٣] ، الترمذى فى : ٣٧ـ كتاب الزهد : ٤٥ ـ باب حدثنا محمد بن بشار : حديث [٢٣٧٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ٣٠٣ ، وهو فى صحيح الجامع [٣٥٤٥]

للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق . والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً ، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة ، وإن كان مريضاً ، فشأنه جلب الصحة إليه ، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق ، فينبغي أن تسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها ، وإن كانت عديمة الكمال ، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه .

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها ، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة ، فكذلك الأخلاق الرذيلة التى هى من مرض القلب ، علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالعلم ، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى .

وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء ،وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة ، كذلك لابد من احتمال المجاهدة ، والصبر على مداواة مرض القلب، بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً .

وينبغي للذى يطب نفوس المريدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة فى فن مخصوص ، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، إذا ليس علاج كل مريض واحداً ، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه ،وإذا رأي متكبراً حمله على ما يوجب التواضع ، أو شديد الغضب ألزمه الحلم .

وأشد حاجة الرائض لنفسه ، قوة العزم ، فمتى كان متردداً بعد فلاحه ، وحتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبر ، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود ، كما قال رجل لنفسه : تتكلمين فيما لا يعنيك ؟ لأعاقبنك بصوم سنة .

الفصل الثالث فى علامات مرض القلب
وعوده إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

اعلم : أن كل عضو خلق لفعل خاص ، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب ، فمرض اليد تعذر البطش ، ومرض العين تعذر الإبصار ، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق لأجله ، وهو العلم والحكمة والمعرفة ، وحب الله تعالى وعبادته ، وإيثار ذلك على كل شهوة .

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه ، كان كأنه لم يعرف شيئاً .

وعلامة المعرفة : الحب ، فمن عرف الله أحبه ، وعلامة المحبة أن لايؤثر عليه شيئاً من المحبوبات ، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض ، كما أن المعدة التى تؤثر أكل الطين على أكل الخبز ـ وقد سقطت عنها شهوة الخبز ـ مريضة .

ومرض القلب خفى قد لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفل عنه ، وإن عرف صعب عليه الصبر علي مرارة دوائه ، لأن دواءه مخالفة الهوى ، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء ، والمرض قد استولى عليهم ، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً ، واندرس هذا العلم ، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية ، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض .

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة ، فهو أن ينظر إلى العلة ، فإن كان يعالج داء البخل ، فعلاجه بذل المال ، ولكنه لا يسرف ، ويصير إلى حد التبذير ، فيحصل داء آخر فيكون بعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة ، فيكون داءً أيضاً ، بل المطلوب الاعتدال .

وإذا أردت أن تعرف الوسط ، فانظر إلى نفسك ، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك ، وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فعالج نفسك على البذل ، وإن صار البذل للمستحق ألذ عندك وأخف فى الإمساك ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، ولا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها ، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج ، فكل قلب كذلك ، فقد جاء الله سليماً فى هذا المقام .

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق ، حتى لا تكون له علاقة بشىء من الدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها ، غير ملتفتة إليها ، ولا متشوفة إلى أسبابها ، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة .

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة ، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول فى كل يوم مرات ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] ، ومن لم يقدر على الاستقامة ، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح .

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة ، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد ، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له ، فلو رد إلى الثدى لكرهه ، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد ، فعند الصباح يحمد القوم السرى .

واعلم : أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت له بصيرة لم تخف عليه عيوبه ، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الناس

جاهلون بعيوبهم ، ويرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عينه .

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه ، فله فى ذلك أربع طرق :

الطريقة الأولى : أن يجلس بين شيخ بصير بعيوب النفس ، ويعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها ، وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده ، فمن وقع به ، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغى أن يفارقه .

الطريقة الثانية : أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا .

وسأل سليمان رضى الله عنه لما قدم عليه ، عن عيوبه ، فقال : سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين : حلة بالليل ، وحلة بالنهار ، فقال : هل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، قال : أما هذان فقد كفيتهما .

وكان عمر رضى الله عنه يسأل حذيفة : هل أنا من المنافقين وهذا لأن كل من علت مرتبته فى اليقظة زاد اتهامه لنفسه ، إلا أنه عز فى هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة ، لأن قل فى الأصدقاء من يترك المداهنة ، فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب .

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم ، ونحن الآن فى الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا .

وهذا دليل على ضعف الإيمان ، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب ، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة ، واشتغلنا بقتلها ، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى .

الطريقة الثالثة : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدى المساوئ ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه .

الطريقة الرابعة : أن يخالط الناس ، فكل ما يراه مذموماً بينهم ، يجتنبه .

فصل فى شهوات النفوس

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة ، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء ، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل ، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها ، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر ، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس ، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها ، فإن لها حقاً بدليل قوله ﷺ : « **إن لنفسك عيك حقاً** »[1] حتى إن قائلاً منهم يقول : لى كذا وكذا سنة أشتهى كذا ، فلا أتناوله ، وهذا انحراف عن الحل وخلاف سنة رسول الله ﷺ ، فإنه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما ، فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه ، فحرم نفسه حظها من المشتهى إذا صعبت الطريق إليه ، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه ، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه ، فتطمع النفس فى استدامته ، أو يحذر من ذلك زيادة شبع ، فيثقله عن عبادته ، فأما تناوله فى بعض الأوقات لتقوية النفس ، فذلك كالطب للمريض ، ويمدح ولا يذم ، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك .

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصى ، ثم ظن أنه هذب خلقه ، واستغنى عن المجاهدة ، وليس كذلك ، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين ، وقد وصفهم الله تعالى فقال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**

(١)[صحيح] أبو داود فى الصلاة ، باب ما يؤمر به من القصد فى الصلاة حديث [١٣٦٩] وصححه الألبانى .

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢ ، ٤] وقال : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢]، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ [المؤمنون ١ ، ١٠] وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، إلى آخر السورة ، فمن أشكل عليه حاله ، فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده .

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق .

ففى « الصحيحين » من حديث أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : «والذى نفسه بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [(١)] .

وفيهما أيضاً من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عنه ﷺ أنه قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[(٢)] .

وفى حديث آخر : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً » [(٣)] .

---

(١) البخارى فى : ٢ ـ كتاب الإيمان : ٧ ـ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه : حديث [١٣]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ١٧ ـ باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه : حديث [٤٥] والترمذى فى صفة القيامة [٢٥١٥] والنسائى [٨/ ١١٥] وابن ماجة فى المقدمة [٦٦] وأحمد فى المسند [١٧٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٨] .

(٢)[متفق عليه] البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٨٥ ـ باب إكرام الضيف : حديث [٦١٣٨]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ١٩ ـ باب الحث على إكرام الجار : حديث [٧٥/ ٤٧] ، والترمذى فى : القيامة : حديث [٢٥٠٠] ، وأحمد فى « مسنده » ١/ ٢٠ و ٢/ ١٧٤ .

(٣)[صحيح] أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب السنة : ١٦ ـ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه : حديث [٤٦٨٢] ، والترمذى فى الرضاع [١١٦٢] ، وأحمد فى مسنده » ٢/ ٢٥٠ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٢٣٢] .

ومن حسن الخلق : احتمال الأذى ، ففى « الصحيحين » أن اعرابياً جذب رداء النبى ﷺ حتى أثرت حاشيته فى عاتقه ﷺ، ثم قال : يا محمد ، مُرْ لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء .

وكان إذا آذاه قومه قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » [1] .

وكان أويس القرنى إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول : يا إخوتاه ، إن كان ولابد فارمونى بالصغار لئلا تدموا ساقى فتمنعونى من الصلاة .

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارى ، فاستقبله جندى فقال : أين العمران ؟

فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه فشجه ، فلما أخبر أنه إبراهيم ، جعل يقبل يده ورجله ، فقال : إنه لما ضرب رأسى ، سألت الله له الجنة ، لأنى علمت أنى أوجر بضربة إياى فلم أحب أن يكون نصيبى منه الخير ونصيبه منى الشر .

واجتاز بعضهم فى سكة ، فطرح عليه الرماد من السطح ، فجعل أصحابه يتكلمون ، فقال : من استحق النار فصولح على الرماد ، ينبغى له أن لا يغضب .

فهذه نفوس ذللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقهم ، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء ، ومن لم يجد من نفسه بعض العلامات التى وجدها هؤلاء ، فينبغى أن يداوم الرياضة ليصل ، فإنه بعدُ ما وصل .

---

(١) اقتداءً بالسابقين من الأنبياء .
قال عبد الله : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « اللهم اغفر لقومى ؛ فإنهم لا يعلمون » . البخارى فى : ٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء : ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان : حديث [٣٤٧٧] .

فصل فى رياضة الصبيان فى أول النشوء

اعلم : أن الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه جوهرة ساذجة ، وهى قابلة لكل نقش، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه ، وشاركه أبواه ومؤدبه فى ثوابه ، وإن عود الشر نشأ عليه ، وكان الوزر فى عنق وليه ، فينبغى أن يصونه ويؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر .

بل ينبغى أن يراقبه من أول عمره ، فلا يستعمل فى رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء ، وذلك علامة النجابة وهى مبشرة بكمال العقل عند البلوغ ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه .

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغى أن يعلم آداب الأكل ، ويعوده أكل الخبز وحده فى بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم و يحبب إليه الثياب البيض دون الملونة والإبريسم ، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين ، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم ، ثم يشغله فى المكتب بتعلم القرآن والحديث وأحاديث الأخبار ، ليغرس فى قلبه حب الصالحين ، ولا يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق .

ومتى ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود ، فينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف ، فإن عاد عوتب سراً وخوف من اطلاع الناس عليه ، ولا يكثر عليه العتاب ، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة ، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه .

وينبغى للأم أن تُخَوِّفه بالأب ، وينبغى أن يُمنع النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل، ولا يُمنع النوم ليلاً ، ولكنه يمنع الفُرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه .

ويتعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم .

ويُعَوَّد المشى والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل .

ويُمنع أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه أبواه ، أو بمطعمه أو ملبسه .

ويُعَوَّد التواضع والإكرام لمن يعاشره .

ويُمنع أن يأخذ شيئاً من صبى مثله ، ويعلم أن الأخذ دناءة ، وأن الرفعة فى الإعطاء .

ويُقبح عنده حب الذهب والفضة .

ويُعود أن لا يبصق ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ويمنع من كثرة الكلام .

ويُعود أن لا يتكلم إلا جواباً ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر من ، وأن يقوم لمن فوقه ويجلس بين يديه .

ويمنع من فحش الكلام ، ومن مخالطة من يفعل ذلك ، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء .

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب فى لعب جميل ، ليستريح به من تعب التأديب ، كما قيل : روح القلوب تَعِ الذكر .

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم .

وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة ، ولم يسامح فى ترك الطهارة ليتعود ، ويخوف من الكذب والخيانة ، وإذا قارب البلوغ ، ألقيت إليه الأمور .

واعلم : أن الأطعمة أدوية ، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى ، وأن الدنيا لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نعيمها ، وهو المقصود فى كل ساعة ، وأن العاقل من تزود لآخرته ، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا فى قلبه ، كما يثبت النقش فى الحجر .

قال سهل بن عبد الله : كنت ابن ثلاث سنين ، وأنا أقوم الليل أنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوا ، فقال لى خالى يوماً : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ قلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك : الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى ، فقلت ذلك ليالى ، ثم أعلمته ، فقال : قلها فى كل ليلة إحدى عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى حلاوته ، فلما كان بعد سنة ، قال لى خالى : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل قبرك ، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت له حلاوة فى سرى ، ثم قال لى خالى : يا سهل من كان الله معه ، وهو ناظر إليه ، وشاهد عليه ، هل يعصيه ؟ إياك والمعصية ، ومضيت إلى المكتب ، وحفظت القرآن ، وأنا ابن ست سنين أو سبع ، ثم كنت أصوم الدهر ، وقوتى من خبز الشعير ، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله .

فصل فى شروط الرياضة

واعلم : أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين ، أصبح بالضرورة مريداً لها زاهداً فى الدنيا ، فإن من كان معه خرزة ، فرأى جوهرة نفيسة ، لم يبق له رغبة فى الخرزة ، فإذا قيل له : بعها بالجوهرة ، أسرع فى ذلك .

واعلم : أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك ، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لابد من تقديمه ، ومعتصماً لابد من التمسك به ، وحصناً لابد من التحصن به .

فأما الشرط ، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب .

وأما المعتصم ، فشيخ يدله على الطريق لئلا تختطفه الشياطين فى السبل .

وأما الحصن ، فالخلوة ، وعليه من الوظائف مخالفة الهوى ، كثرة الذكر والاقتصاد في الأوراد .

ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً ، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو إلا بطول المجاهدة ، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج ، فأما تفصيل الرياضة في كل صفة ، فسيأتي إن شاء الله تعالى .

كتاب كسر الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المهلكات ، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة ، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة فى المال ، ويتبع ذلك آفات كثيرة ، وكلها من بطر الشبع .

وفى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يزكل فى سبعة أمعاء » (١) .

وفى حديث آخر : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، وحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »(٢) .

وقال عقبة الراسبى : دخل على الحسن وهو يتغذى ، فقال : هلم ، فقلت : أكلت حتى لا أستطيع ، فقال : سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد فى التقلل من الأكل والصبر على الجوع ، وقد بينا عيب ما سلكوا فى غير هذا الكتاب ، ومقام العدل فى الأكل رفع اليدين مع بقاء شىء من الشهوة ، ونهاية المقام الحسن قوله ﷺ : « ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » (٣) .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة : ١٢ ـ باب المؤمن يأكل فى مِعى واحد : حديث [٥٣٩٣] .
ومسلم فى ٣٦ ـ كتاب الأشربة : ٣٤ ـ باب المؤمن يأكل فى معى واحد : حديث [٢٠٦١] والترمذى فى : الأطعمة : حديث [١٨١٨] ، وابن ماجة فى : الأطعمة : حديث [٣٢٥٦ ، ٣٢٥٧ ، ٣٢٥٨] والدارمى فى : الأطعمة : حديث [٢٠٤٠] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٢١ و ٣١٨ .

(٢) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٤٧ ـ باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل : حديث [٢٣٨٠] ، وابن ماجة فى : الأطعمة : حديث [٣٣٤٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٤/ ١٣٢ .

(٣) انظر تخريج الحديث السابق .

فالأكل فى مقام العدل يصح البدن وينفى المرض ، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه ، ثم يرفع يده وهو يشتهيه ، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى ، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض ، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة ، وليس كذلك ، ومن مدح الجوع ، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التى ذكرناها .

وطريق **الرياضة فى كسر شهوة البطن** أن من تعود استدامة الشبع ، فينبغى له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان ، إلى أن يقف على حد التوسط الذى أشرنا إليه ، وخير الأمور أوساطها ، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات ، ويكون سبباً لبقاء القوة فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع ، فحينئذ يصح البدن ، وتجتمع الهمة ، ويصفو الفكر ، ومتى زاد فى الأكل أورثه كثرة النوم ، وبلادة الذهن ، وذلك بتكثير البخار فى الدماغ حتى يغطى مكان الفكر ، وموضع الذكر ، ويجلب أمراضاً أخر .

وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء ، وقد كان بعضهم يشترى الشهوة ويعلقها فى بيته وهو زاهد فيها ، ويستر بها زهده ، وهذا هو الزهد، فى الزهد بإظهار ضده ، وهو عمل الصديقين ، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر .

وأما **شهوة الفرج** ، فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمى لفائدتين :

إحداهما : بقاء النسل ، والثانية : ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة ، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق ، ولا يعظم إليه الشوق ، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال ، جلبت آفات كثيرة ، ومحناً ،ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان .

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « **ما تركت فى الناس بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء** »[1] .

وقال بعض الصالحين : لو ائتمننى رجل على بيت مال ، لظننت أن أؤدى إليه الأمانة ، ولو ائتمننى على زنجية أخلو بها ساعة واحدة ، ما ائتمنت نفسى عليها .

وعن النبى ﷺ قال : « **لا يخلو رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان** »[2] .

وقد ينتهى الإفراط فى هذه الشهوة ، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة ، وربما آل إلى الفواحش ، وقد تنتهى بصاحبها إلى العشق ، وهو أقبح الشهوات ، وأجدرها أن تستحيى منه ، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال ، والجاه ، اللعب بالنرد ، والشطرنج ، والطنبور ، ونحو ذلك ، فتستولى هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها .

ويسهل الاحتراز عن ذلك فى بدايات الأمور ، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد وقد لا ينجح ، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله ، فما أهون منعها بصرف عنانها . ومثال من يعالجه بعد استحكامه ، ومثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه ، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء ، وما أعظم التفاوت بين الأمرين !!

---

(١) البخارى فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح : ١٨ ـ باب ما يتقى من شؤم المرأة حديث [٥٠٩٦]، ومسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء : ٢٦ ـ باب أكثر أهل الجنة الفقراء : حديث [٢٧٤٠] ، والترمذى فى : الأدب : حديث [٢٧٨٠] ، وأحمد فى « مسنده » ٥ / ٢٠٠ .

(٢) [صحيح] الترمذى فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن : ٧ ـ باب ما جاء فى لزوم الجماعة : حديث [٢١٦٥]، وأحمد فى « مسنده » ١/ ٢٢٢ ومختصراً فى البخارى رقم [٣٠٠٦] ومسلم رقم [١٣٤١]

كتاب آفات اللسان

آفاته كثيرة متنوعة ، ولها فى القلب حلاوة ، ولها بواعث من الطبع ، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت ، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت ، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى .

اعلم : أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر .

وفى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « من يضمن لى ما بين لحييه ، وما بين رجليه أضمن له الجنة » (١) .

وفي حديث آخر : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » (٢) .

« كف عليك هذا » فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم »، أو قال : «على مناخرهم ، إلا حصائد ألسنتهم ؟ »(٣) .

وفي حديث آخر : « من كف لسانه ستر الله عورته » (٤) .

وقال ابن مسعود : ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسانى .

وقال أبو الدرداء : أنصف أذنيك من فيك ، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد ، لتسمع أكثر مما تتكلم به .

وقال مخلد بن الحسين : ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها .

---

(١) [صحيح] البخارى فى : ٨١ـ كتاب الرقاق : ٢٣ـ باب حفظ اللسان : حديث [٦٤٧٤] ، والترمذى فى الزهد [٢٤٠٨] .

(٢) [حسن] أحمد فى « مسنده » ٣/ ١٩٨ وهو حديث حسن لأجل على بن مسعده الباهلى قال الحافظ : صدوق له أوهام .

(٣) [صحيح] الترمذى فى : ٤١ ـ كتاب الإيمان : ٨ ـ باب ما جاء فى حرمة الصلاة : حديث [٢٦١٦]، وابن ماجه فى : الفتن : حديث [٣٩٧٣] ، وأحمد فى « مسنده » ٥/ ٢٣١ .

(٤) [حسن] رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وابن شاهين والخرائطى فى « مساوىء الأخلاق » ، وانظر اتحاف السادة ٧ / ٤٥٢ .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنى

واعلم : أن من عرف قدر زمانه ، وأنه رأس ماله ، لم ينفقه إلا فى فائدة ، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعنى ، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعنى ، كان قدر على أخذ جوهرة ، فأخذ عوضها مدرة ، وهذا خسران العمر .

وفى الحديث الصحيح ، أن النبى ﷺ قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) .

وقيل للقمان الحكيم : ما بلغ من حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كُفيته ، ولا أتكلم بما لا يعنينى .

وقد روى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ، فجعل يتعجب مما رأى ، فأراد أن يسأل عن ذلك ، فمنعته ، حكمته فأمسك ، فلما فرغ داود عليه السلام ، قام ولبس الدرع ثم قال : نعم الدرع للحرب . فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله .

الآفة الثانية : الخوض فى الباطل ، وهو الكلام فى المعاصى ، كذكر مجالس الخمر ، ومقامات الفساق .

وأنواع الباطل كثيرة ، وعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها فى النار أبعد مما بين المشرق والغرب » (٢) ، وقريب من ذلك

---

(١) [صحيح] الترمذى فى الزهد [٢٣١٨] وابن ماجة فى الفتن [٣٩٧٦] أحمد فى « مسنده » ١/ ٢٠ وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٥٩١١] .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٢٣ ـ باب حفظ اللسان : حديث [٦٤٧٧] ، ومسلم فى : ٥٣ كتاب الزهد : ٦ ـ باب التكلم بالكلمة يهوى بها فى النار : حديث [٢٩٨٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٣٤ ، والحاكم فى « مستدركه » ١ / ٤٥ .

الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطة وإفحامه ، والباعث على ذلك الترفع .

فينبغى للإنسان أن ينكر المنكر من القول ، ويبين الصواب ، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة ، وهذا إذا كان الأمر متعلقاً بالدين ، فأما إذا كان فى أمور الدنيا ، فلا وجه للمجادلة فيه ، وعلاج هذه الآفة بكسر الباعث على إظهار الفضل ، وأعظم من المراء الخصومة ، فإنها أمر زائد على المراء .

وعن النبى ﷺ أنه قال : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصم »(١) . وهذه الخصومة نعنى بها الخصومة بالباطل أو بغير علم ، فأما من له حَق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن لأنها ، توغر الصدر ، وتهيج الغضب ، تورث الحقد ، وتخرج إلى تناول العرض .

الآفة الثالثة : التقعر فى الكلام ، وذلك يكون بالتشدق ، وتكلف السجع .

وعن أبى ثعلبة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون »(٢) .

ولا يدخل فى كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب ، والتذكير من غير إفراط ولا إغراب ، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب ، وتشويقها ، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك .

الآفة الرابعة : الفحش والسب والبذاء ، ونحو ذلك ، فإنه مذموم منهى عنه ، ومصدره الخبث واللؤم .

وفى الحديث : « إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش »(٣)

---

(١) [صحيح] البخارى فى : ٩٤ ـ كتاب الأحكام : ٣٤ ـ باب الألد الخصم حديث [٧١٨٨] ، والترمذى [٢٩٧٦] فى تفسير القرآن والنسائى [٨/ ٢٤٧] .

(٢) [حسن] الترمذى فى : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٧١ ـ باب ما جاء فى معالى الأخلاق : حديث [٢٠١٨] وأحمد فى المسند [٢/ ٣٦٩] رقم [٨٨٠٧] .

(٣) [حسن] أحمد فى مسنده » ٢/ ١٩١ و ١٩٥ و ٤٣١ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٨٥٠] .

« الجنة حرام على كل فاحش »[(١)] .

وفى حديث آخر : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ولا الفاحش ، ولا البذىء »[(٢)] .

واعلم :أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ما يكون فى ألفاظ الجماع وما يتعلق به ، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها .

ومن الآفات : الغناء وقد سبق فيه الكلام فى غير هذا الموضع .

الآفة الخامسة :المزاح ، أما اليسير منه ، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً .

فإن النبى ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فإنه قال لرجل : « يا ذا الأذنين»[(٣)]. وقال لآخر : « **إنا حاملوك على ولد الناقة** »[(٤)]

وقال للعجوز : « **إنه لا يدخل الجنة عجوز** »ثم قرأ : ﴿ **إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً** (٣٥) **فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا** ﴾[الواقعة : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال لأخرى : « زوجك الذى فى عينيه بياض ؟ »[(٥)] .

فقد اتفق فى مزاحه ﷺ ثلاثة أشياء :

أحدها : كونه حقاً .

---

(١) [ضعيف]إتحاف السادة ٧/ ٤٧٨ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٦٦٧] .

(٢) [صحيح]الترمذى فى : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٤٨ ـ باب ما جاء فى اللعنة : حديث [١٩٧٧] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٥٣٨١] .

(٣) [صحيح] أبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ٩٢ ـ باب ما جاء فى المزاح : حديث [٥٠٠٢] . والترمذى فى : ٥٠ ـ كتاب المناقب : ٤٦ ـ باب مناقب لأنس : حديث [٣٨٢٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ١٢٧ ، وصححه الألبانى .

(٤) [صحيح]أبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ٩٢ ـ باب ما جاء فى المزاح : حديث [٤٩٩٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٢٦٧ ، وصححه الألبانى .

(٥) قال الحافظ العراقى فى تخريج الأحياء [٣/ ١٢٩] أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب «الفكاهة والمزاح» ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهرى مع اختلاف .

والثانى : كونه مع النساء والصبيان ، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال .

الثالث : كونه نادراً ، فلا ينبغى أن يحتج به من يريد الدوام عليه ، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم ، ولو أن إنساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبى ﷺ وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة ، لكان غالطاً ، لندور ذلك ، فالإفراط فى المزاح والمداومة عليه منهى عنه ، لأنه يسقط الوقار ، ويوجب الضغائن والأحقاد ، وأما اليسير ، كما تقدم ، من نحو نوع مزاح النبى ﷺ ، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس .

الآفة السادسة : السخرية والاستهزاء ، ومعنى السخرية : الاحتقار والاستهانة ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى العمل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وكله ممنوع منه فى الشرع ، ورد النهى عنه فى الكتاب والسنة .

الآفة السابعة : إفشاء السر ، وإخلاف الوعد ، والكذب فى القول واليمين ، وكل ذلك منهى عنه ، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته ، وفى الحرب ، فإن ذلك يباح .

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب ، فهو فيه مباح إن كان المقصود مباحاً ، وإن كان المقصود واجباً ، فهو واجب ، فينبغى أن يحترز عن الكذب مهما أمكن .

وتباح المعاريض ، لقوله ﷺ : « إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب » [1] وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها ، فأما مع غير الحاجة ، فمكروهة لأنها تشبه الكذب .

---

(١) [ضعيف] البيهقى ١٠ / ١٩٩ ، وابن عدى ١/ ٤٩ ، وأخرجه البخارى فى الأدب [٨٨٥] موقوفا على عمران بن حصين بإسناد رجاله ثقات وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٩٠٤] .

فمن المعاريض ما روينا عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه أصاب جارية له فعلمت امرأته ، فأخذت شفرة ، ثم أتت فوافقته قد قام عنها ، فقالت : أفعلتها؟ فقال : ما فعلت شيئاً ، قالت ، لتقرأن القرآن أو لأبعجنك بها ، فقال رضى الله عنه :

وفينا رسـول الله يتلو كتابـه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالكافرين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع

قالت : آمنت بالله وكذبت بصرى .

وكان النخعى إذا طُلِب قال للجارية : قولى لهم : اطلبوه فى المسجد .

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها ، وشبه صاحبها بآكل الميتة .

وفى الحديث : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » (١) .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته » (٢) .

وفى حديث آخر : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، إن الرجل قد يزنى ويشرب ، ثم يتوب ويتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه » (٣) .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٢٥ ـ كتاب الحج : ١٣٢ ـ باب الخطبة أيام منى : حديث [١٧٤٢] ، ومسلم فى : ٢٨ ـ كتاب القسامة : ٩ ـ باب تغليظ تحريم الدماء : حديث [١٦٧٩] ، والترمذى فى : الفتن : حديث [٢١٥٩] ، وابن ماجة فى : المناسك : حديث [٣٠٥٥] ، والدارمى فى : المناسك : حديث [١٩١٦] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٢٣٠ و ٤ / ٣٣٧ .

(٢) [صحيح] أبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ٤٠ ـ باب فى الغيبة حديث [٤٨٨٠] ، والترمذى فى : البر : حديث [٢٠٣٢] ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٧٩٨٤] .

(٣) [ضعيف] علل الحديث رقم [١٨٥٤] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٢٠٤] .

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، القصر ، ونحو ذلك .

أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ، ونحو ذلك .

أو فى خُلُقه كقولك : هو سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك .

أو فى ثوبه ، كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

والدليل على ذلك ، أن النبى ﷺ سئل عن الغيبة قال : « **ذكرك أخاك بما يكره** » قال : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « **إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** »[1] .

واعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل فى الغيبة ، سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز والإشارة والكتابة بالقلم ، فإن القلم أحد اللسانين .

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلينا بالدخول على السلطان ، والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم .

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، وتاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

---

(١) [صحيح] رواه مسلم فى البر والصلة ، باب تحريم الغيبة حديث [٢٥٨٩] أبو داود فى الأدب ، باب فى الغيبة حديث [٤٨٧٤] ، والترمذى فى البر والصلة ، [١٩٣٤] ، والدارمى فى : الرقاق : حديث [٢٧١٤] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٣٠ و ٣٨٤ و ٣٨٦ .

واعلم :أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذله الله عزوجل على رؤوس الخلائق** » (١) .

وقال ﷺ : « **من حمى مؤمناً من منافق يعيبه ، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم** » (٢) .

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر ، فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل ، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها .

وقد وردت أحاديث فى حق المسلم على المسلم ، تقدمت فى كتاب الصحبة

فصل فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه ، كلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

السبب الثانى : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعداتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

---

(١)[ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٣ / ٤٨٧ ، والطبرانى ٦ / ٨٩ ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة [٤٢٢] .

(٢)[حسن] أبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ٤١ ـ باب من ردَّ عن مسلم غيبة : حديث [٤٨٨٣] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٤٤١ ، وحسنه الألبانى .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل ، وفهمه ركيك ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

وأما علاج الغيبة : فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنتقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يفكر فى عيوب نفسه ، ويشتغل بإصلاحها ، ويستحى أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

فإن عبت قوما بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغى أن لا يرضاها لغيره من نفسه .

فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها ، وقد ذكرنا بعض أسبابها ، فيعالج الغضب بما سيأتى فى كتاب الغضب ، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه ، بل ينبغى أن يغضب على رفقائه ، وعلى هذا معالجة البواقى .

فصل فى حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .

والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل ، فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه كنت معذوراً ، لأنك لو كذبته قد أسأت الظن بالمخبر ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغى أن تبحث ، هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .

وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه فى السر .

واعلم : أن من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وذلك منهى عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك أسلم للمسلم .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص فى ذكر مساوئ الغير ، وهو غرض صحيح فى الشرع ، ولا يمكن التوصل إليه إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :

أحدها : لتظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفى حقه .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح .

الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان ، أو أخذ حقى ، فكيف طريقى فى الخلاص ، فالتعيين مباح ، والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه ، ونحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : إن أبا سفيان رجل شحيح . . . ولم ينكر عليها النبى ﷺ (١).

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشترى .

وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة ، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

الخامس : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « **من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له** » (٢).

وقيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ، ولا كرامة .

وأما كفارة الغيبة ، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين :

إحداهما : على حق الله تعالى ، إذ فعل ما نهاه عنه ، فكفارة ذلك التوبة والندم .

والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستحله ، وأظهر له الندم على فعله .

---

(١) البخارى فى النفقات ، باب خدمة الرجل فى أهله حديث [٥٣٦٤] ومسلم فى الأقضية ، باب قضية هند حديث [١٧١٤] ، وأبو داود فى : البيوع : حديث [٣٥٣٢] ، والنسائى فى : القضاة : باب قضاء الحاكم على الغائب إذا عرفه : حديث [١] ، والدارمى فى : النكاح : حديث [٢٢٥٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٦ / ٣٩ و ٥٠ و ٢٠٦ .

(٢) [ضعيف جداً] البيهقى ١٠ / ٢١٠ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٥٤٨٣] .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه** » (١) .

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوغر صدره .

وقد ورد فى الحديث : « **كفارة من اغتبت أن يستغفر له** » (٢) .

وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات .

الآفة التاسعة : من آفات اللسان : النميمة ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة قتات** » (٣) وهو النمام .

واعلم : أن النميمة تطلق فى الغالب على نقل قول إنسان فى إنسان ، مثل أن يقول : قال فيك فلان كذا وكذا ، وليست مخصوصة بهذا ، بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال ، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره ، فهو نميمة ، وكل من نقلت إليه نميمة ، مثل أن يقال له : قال فيك فلان كذا وكذا ، أو فعل فى حقك كذا ، ونحو ذلك ، فعليه ستة أشياء :

---

(١)[صحيح] البخارى فى : كتاب الرقاق : باب القصاص يوم القيامة حديث [٦٥٣٤]، وأحمد فى «مسنده» ٢/ ٥٠٦ .

(٢)[**موضوع**] الموضوعات ٣/ ١١٩ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٤١٩٠] .

(٣)[متفق عليه] البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٥٠ ـ باب ما يكره من النميمة : حديث [٦٠٥٦]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٤٥ ـ باب بيان غلظ تحريم النميمة ، حديث [١٧٠/ ١٠٥] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٨٧١] ، والترمذى فى : البر والصلة : حديث [٢٠٢٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٥/ ٣٨٢ و ٣٨٩ و ٣٩٧ .

الأول : أن لايصدق الناقل ، لأن النمام فاسق مردود الشهادة .

الثاني : أن ينهاه عن ذلك وينصحه .

الثالث : أن يبغضه في الله ، فإنه بغيض عند الله .

الرابـع : ألا يظن بأخيه الغائب السوء .

الخامس : أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] .

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه ، فلا يحكي نميمته .

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل : بلغني أنك وقعت فيّ ، وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ، فقال سليمان : إن الذي أخبرني صادق ، فقال الرجل : لا يكون النمام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت ، اذهب بسلام .

وقال يحيى بن أبي كثير : يفسد النمام في ساعة ما لايفسد الساحر في شهر .

وقد حكى أن رجلاً ساوم بعبد ، فقال مولاه : إني أبرأ إليك من النميمة والكذب ، فقال : نعم ، أنت برىء منهما ، فاشتراه ، فجعل يقول لمولاه : إن امرأتك تبغي وتفعل ، وإنها تريد أن تقتلك ، ويقول للمرأة : إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى ، فإن أردت أن أعطفه عليك ، فلا يتزوج ولا يتسرى ، فخذي الموسى واحلقي شعرة من حلقه إذا نام ، وقال للزوج : إنها تريد أن تقتلك إذا نمت ، فذهب فتناوم لها ، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه ، فأخذ بيدها فقتلها ، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه .

الآفة العاشرة : كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر ، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه ، أو يعده أنه ينصره ، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر .

وفي الحديث : « إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »[(١)] .

واعلم : أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك ، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكشر فى وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم .

ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له .

الآفة الحادية عشرة : المدح ، وله آفات :

منها : ما يتعلق بالمادح ، ومنها : ما يتعلق بالممدوح .

فأما آفات المادح ، فقد يقول ما لا يحققه ، ولا سبيل للاطلاع عليه ، ومثل أن يقول : إنه ورع وزاهد ، وقد يفرط فى المدح فينتهى إلى الكذب ، وقد يمدح من ينبغى أن يذم .

وقد روى فى حديث : « إن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق »[(٢)] .

وقال الحسن : من دعا لظالم بالبقاء ، فقد أحب أن يُعصى الله .

وأما الممدوح ، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً ، وهما مهلكان ، ولهذا قال النبى ﷺ لما سمع رجلاً يمدح رجلاً : « ويلك ، قطعت عنق صاحبك » . . . الحديث وهو مشهور[(٣)]

وقد روينا عن الحسن قال : كان عمر رضى الله عنه قاعداً ومعه الدرة والناس

---

(١) البخارى فى : ٩٤ ـ كتاب الأحكام : ٢٧ ـ باب ما يكره من ثناء السلطان : حديث [٧١٧٩] ، ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٢٦ ـ باب ذم ذى الوجهين حديث : [٢٥٢٦] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٨٧٢] ، والترمذى فى : البر : حديث [٢٠٢٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٤٥ و ٣٠٧ و ٣٣٦ ، ومالك فى : الكلام : حديث [٢١] .

(٢) [ضعيف] تاريخ أصفهان ٢ / ٢٧٧ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٧٤٦] .

(٣) البخارى فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات : ١٦ ـ باب إذا زكى رجل رجلاً كفاه : حديث [٢٦٦٢] ، ومسلم فى : الزهد : حديث [٣٠٠٠] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٨٠٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٥ / ٤٦ و ٥١ .

حوله ، إذ أقبل الجارود ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر رضى الله عنه ومن حوله ، وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال : ما لى ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لى ولك ، أما سمعتها ؟ قال : سمعتها ، فمه ؟ قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك ، ولأن الإنسان إذا أُثنى عليه بالخير رضى عن نفسه ، وظن أنه قد بلغ المقصود ، فيفتر عن العمل ، ولهذا قال : « قطعت عنق صاحبك . . . . » .

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، فقد أثنى النبى ﷺ على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل ، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه ، ويتفكر فى أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه .

وقد روى أن رجلاً من الصالحين أُثنى عليه ، فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى .

الآفة الثانية عشرة : الخطأ فى فحوى الكلام فيما يرتبط فى أمور الدين ، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى ، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن يعفو الله عنه لجهله .

مثال ذلك ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت » [(١)] وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكاً وتسوية وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله : « ومن يعصهما فقد غوى » .

وقال : « قل : ومن يعص الله ورسوله » [(٢)] .

---

(١)[صحيح] أبو داود فى : ٣٥ـ كتاب الأدب : ٨٤ـ باب لا يقال خبثت نفسى : حديث [٤٩٨٠] ، والدارمى فى : ١٩ ـ كتاب الاستئذان : ٦٣ ـ باب فى النهى عن أن يقول «ما شاء الله وشاء فلان » : حديث [٢٦٩٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٥/ ٣٨٤ و ٣٩٤ و ٣٩٨ .

(٢)[صحيح] مسلم فى : ٧ـ كتاب الجمعة : ١٣ ـ باب تخفيف الصلاة والخطبة : حديث [٨٧٠]، وأحمد فى المسند [٤ / ٢٥٦].

وقال ﷺ : « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل ، غلامى وجاريتى » (١) .

وقال النخعى : إذا قال الرجل للرجل : يا حمار ، يا خنزير ، قيل له يوم القيامة : أرأيتنى خلقته حماراً ، أو أرأيتنى خلقته خنزيراً ؟!!

فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ، ولا يمكن حصره ، ومن تأمل ما أوردنا فى آفات اللسان ، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ : «من صمت نجا » (٢) لأن هذه الآفات مهالك وهى على طريق المتكلم ، فإن سكت سلم .

فصل لا تسأل عن صفات الله عزوجل

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه .

اعلم : أن الشيطان يخيل إلى العامى أنك بخوضك فى العلم تكون من العلماء وأهل الفضل ، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدرى .

قال النبى ﷺ : « يوشك الناس أن يسألوا ، حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ » (٣) فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات ، وبحثهم عن معانى الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم ، إذ الواجب عليهم التسليم ، فالأولى بالعامى الإيمان بما ورد به القرآن ، ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث ، واشتغالهم بالعبادات ، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم ، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك .

---

(١)[متفق عليه] البخارى فى العتق ، باب كراهية التطاول علي الرقيق حديث [٢٥٥٢] ، مسلم فى : ٤٠ ـ كتاب الألفاظ من الأدب : ٣ ـ باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة : حديث [٢٢٤٩] ، واللفظ له وأبو داود فى الأدب حديث [٤٩٧٥ ، ٤٩٧٦] .

(٢) [صحيح] الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٥٠ ـ باب حدثنا سويد : حديث [٢٥٠١] ، والدارمى فى الرقاق : حديث [٢٧١٣] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ١٥٩ و ١٧٧ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٦٣٦٧] .

(٣) البخارى فى : ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : ٣ ـ باب ما يكره من كثرة السؤال : حديث [٧٢٩٦] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٦ ـ باب بيان الوسوسة فى الإيمان حديث [١٣٤] ، وأبو داود فى السنة رقم [٤٧٢١] .

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم : أن الغضب شعلة من النار ، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين ، حيث قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢]

فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاشتعال ، والحركة والاضطراب .

ومن نتائج الغضب : الحقد والحسد ، ومما يدل على ذم الغضب قول النبى ﷺ للرجل الذى قال له : أوصنى ، قال : « لا تغضب » فردد عليه مراراً ، قال : « لا تغضب » [(١)] .

وفى حديث آخر أن ابن عمر رضى الله عنه سأل النبى ﷺ ماذا يبعدنى من غضب الله عزوجل ؟ قال : « لا تغضب » [(٢)] .

وفى المتفق عليه من حديث أبى هريرة عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يمسك نفسه عند الغضب » [(٣)] .

وعن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ [آل عمران : ٣٩] قال : السيد الذى يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه .

وروينا أن ذا القرنين لقى ملكاً من الملائكة فقال : علمنى علماً أزداد به إيماناً ويقيناً ، قال : لا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ،

---

(١) [صحيح] البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٧٦ ـ باب الحذر من الغضب : حديث [٦١١٦] ، والترمذى فى : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٧٣ ـ باب ما جاء فى كثرة الغضب : حديث [٢٠٢٠] ، والترمذى فى : البر : حديث [٢٠٢٠] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ١٧٥ و ٣٦٢ .

(٢) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٢/ ١٧٥ قال الهيثمى فى المجمع [٨ / ٦٩] : رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث وبقية رجاله ثقات وصحح اسناده الشيخ أحمد شاكر فى المسند .

(٣) البخارى فى الأدب ، باب الحذر من الغضب حديث [٦١١٤] ومسلم فى البر والصلة ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب حديث [٢٦٠٩] ومالك فى الموطأ [٢ / ٦٩١] .

فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة ، وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً .

وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام ، فقال يا موسى : إياك والحدة فإن ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة ، وإياك والنساء ، فإنى لم أنصب فخاً قط أثبت فى نفسى من فخ أنصبه بامرأة ، وإياك والشح ، فإنى أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة .

وكان يقال : اتقوا الغضب ، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل ، والغضب عدو العقل .

وحقيقة الغضب : غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلى به دم القلب ، وينتشر فى العروق ، ويرتفع إلى أعالى البدن ، كما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر ، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة ، وكل ذلك يحكى لون ما وراءه من حمرة الدم ، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها ، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه .

فإن كان الغضب صدر ممن فوقه ، وكان معه يأس من الانتقام ، وتولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، فصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه ، وتردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب ، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب .

والناس فى قوة الغضب على درجات ثلاث : إفراط ، وتفريط و اعتدال .

فلا يحمد الإفراط فيها ، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما ، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار .

والتفريط فى هذه القوة أيضاً مذموم ، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة ، ومن فقد الغضب بالكلية ، عجز عن رياضة نفسه ، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب

على الشهوة ، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ، ففقد الغضب مذموم ، فينبغى أن يطلب الوسط بين الطريقين .

واعلم : أنه متى قويت نار الغضب والتهبت ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ ، فيغطى على معادن الفكر ، ربما تعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود الدنيا في وجهه ، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار ، فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ بالدخان ، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ ، فلا يثبت فيه قدم ، ولا تسمع فيه كلمة ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفاء النار ، فذلك يفعل بالقلب والدماغ ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه .

ومن آثار الغضب فى الظاهر : تغير اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب ، واستحالة الخلقة ، وتعاطى فعل المجانين ، ولو رأى الغضبان صورته فى حال غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال ، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم .

فصل فى بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها .

فمن أسبابه : العجب ، والمزاح ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، وينبغى أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده ، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور :

أحدها : أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى فضل كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ،

الاحتمال ، كما جاء فى البخارى [١] من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رجلاً استأذن على عمر رضى الله عنه ، فأذن له ، فقال له : يا بن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل ، لا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر رضى الله عنه ، حتى همّ أن يوقع به . فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين إن الله عزوجل قال لنبيه ﷺ : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عزوجل .

الثانى : أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى ، وهو أن يقول : قدرة الله علىّ أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت فيه غضبى ، لم آمن أن يمضى الله عزوجل غضبه علىّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو ، وقد قال الله تعالى فى بعض الكتب : يا بن آدم ! اذكرنى عند الغضب ، أذكرك حين أغضب ، ولا أمحقك فيمن أمحق .

والثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمير العدو فى هدم أعراضه ، والشماتة بمصائبه ، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه ذلك فى الدنيا إن لم يخف من الآخرة ، وهذا هو تسليط شهوة على غضب ، ولا ثواب عليه ، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعنيه على الآخرة ، فيثاب على ذلك .

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب علي ما تقدم ، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضارى ، والسبع العادى ، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء فى عاداتهم ، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم .

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان : إن هذا يحمل منك على العجز ، والذلة والمهانة ، وصغر النفس ، وتصير حقيراً فى أعين الناس ، فليقل لنفسه : تأنفين من

(١) رقم [٤٦٤٢] فى التفسير ، باب خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين .

الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك ، وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين .

وينبغى أن يكظم غيظه ، فذلك يعظمه عند الله تعالى ، فما له وللناس ؟ أفلا يحب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودى : ليقم من وقع أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ، فهذا وأمثاله ينبغى أن يقرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده ، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى ، وهذا ما يتعلق بالقلب .

وأما العمل ، فينبغى له السكون ، والتعوذ ، وتغيير الحال ، وإن كان قائماً جلس ، وإن كان جالساً اضطجع ، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب ، فهذه الأمور وردت فى الأحاديث .

أما الحكمة فى الوضوء عند الغضب : فقد بينها فى الحديث ، كما روى أبو وائل قال : كنا عند عروة بن محمد ، فكلمه رجل بكلام ، فغضب غضباً شديداً ، فقام وتوضأ ، ثم جاء فقال : حدثنى أبى عن جدى عطية ، - وكانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** »[١] .

وأما الجلوس والاضطجاع ، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التى خلق منها ، فيذكر أصله فيذل ، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله ، لأن الغضب ينشأ من الكبر ، بدليل ما روى أبو سعيد ، عن النبى ﷺ أنه ذكر الغضب وقال : « **من وجد شيئاً من ذلك ، فليلصق خده بالأرض** »[٢] .

وقيل : غضب المهدى على رجل ، فدعا بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه

(١) [**ضعيف**] أبو داود فى : ٣٥ - كتاب الأدب : ٤ - باب ما يقال عند الغضب : حديث [٤٧٨٤] ، وأحمد فى « مسنده » ٤/ ٢٢٦ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٥١٠] .
(٢) رواه الخطيب فى تاريخه [١ / ١٢٧] واسناده حسن .

وإطراق الناس ، فلم يتكلموا بشيء ، قال : يا أمير المؤمنين ، لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

فصل فى كظم الغيظ

قال الله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] فذكر ذلك فى معرض المدح .

وعن رسول الله ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » (١) .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

فصل فى الحلم

روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم » (٢) .

« اطلبوا العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تُعلِّمون ولمن تَعلَّمونَ منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فيغلبَ جهلُكم عليكم » (٣) .

وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد قيس : « إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله : « الحلم والإناة » (٤) .

---

(١)[حسن] أبو داود فى : الأدب : حديث [٤٧٧٧] الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٤٨ ـ باب حدثنا عبد بن حميد : حديث [٢٤٩٣] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٤٤٠ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٦٥٢٢] .

(٢)[ضعيف] العلل المتناهية ١/ ٧٦ و ٢/ ٢٢٣ .

(٣)[ضعيف] ابن عدى ٤/ ١٦٤٣ ، وقال العراقى فى تخريج الإحياء [٣/ ١٧٦] : رواه ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف .

(٤)[صحيح] مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٦ ـ باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله : حديث [٢٥/ ١٧] ، وأبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ١٥٩ ـ باب فى قبلة الجسد : حديث [٥٢٢٥] ، والترمذى فى : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٦٦ ـ باب ما جاء فى التأنى والعجلة : حديث [٢٠١١] ، وابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ١٨ ـ باب الحلم : حديث [٤١٨٧] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٢٣ و ٤/ ٢٠٦ .

وشتم رجل ابن عباس رضى الله عنه ، فلما قضى مقالته قال : يا عكرمة ، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحيا .

وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً ، فقيل له : لو عاقبته ؟ فقال : إنى لأستحى أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى .

وقسم معاوية نطعاً ، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه ، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية ، فأتى معاوية فأخبره ، فقال له معاوية : أوف بنذرك وارفق بالشيخ .

وجاء غلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة له ، فقال له : من كسر رجل هذه ؟ قال : أنا فعلته عمداً لأغيظك ، فتضربنى ، فتأثم ، فقال : لأغيظن من حرضك على غيظى ، فأعتقه .

وشتم رجل عدى بن حاتم وهو ساكت ، فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقى عندك شىء فقل قبل أن يأتى شباب الحى ، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا .

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة فى الظلمة ، فمر برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه وقال : أمجنون أنت ؟ فقال عمر : لا ، فهم به الحرس ، فقال عمر : مه ، إنما سألنى أمجنون ؟ فقلت : لا .

ولقى رجل علىّ بن الحسين رضى الله عنهما ، فسبه ، فثارت إليه العبيد ، فقال مهلاً ، ثم أقبل على الرجل فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحى الرجل ، فألقى عليه خميصة [1] كانت عليه ، وأمر له بألف درهم فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسول .

وقال رجل لوهب بن منبه : إن فلاناً شتمك ، فقال : ما وجد الشيطان بريداً غيرك .

---

(١) خميصة : هى ثوب خز أو صوف معلم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة : «النهاية» ٢/ ٨٠ ـ ٨١ .

فصل العفو والرفق

اعلم : أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه ، وتؤدى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم والكظم ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال : ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى : ٤٠] وفى الحديث أن النبى ﷺ ، قال : « **ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله** » (١) .

وعن عقبة بن عامر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا عقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك** » (٢) .

وروى أن منادياً ينادى يوم القيامة : ليقم من وقع أجره على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف** » (٣) .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله عزوجل يحب الرفق فى الأمر كله » (٤) .

---

(١) [**صحيح**] مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ١٩ ـ باب استحباب العفو والتواضع : حديث [٢٥٨٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ٢٣٥ و ٣٨٦ ، والترمذى فى البر والصلة [٢٠٢٩] وهو فى صحيح الجامع [٥٨٠٩] .

(٢) [**ضعيف**] الحاكم فى « المستدرك » ٤/ ١٦١ ـ ١٦٢ ، وسكت عليه الذهبى فى « التلخيص » ، قال العراقى فى المغنى [٣/ ١٨٢] رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف .

(٣) [**صحيح**] مسلم فى ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٢٣ ـ باب فضل الرفق : حديث [٢٥٩٣] ، وأبو داود فى : ٣٥ كتاب الأدب : ١١ ـ باب فى الرفق حديث [٤٨٠٧] ، وأحمد فى « مسنده » ١/ ١١٢ و ٤/ ٨٧ .

(٤) [**متفق عليه**] البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٣٥ ـ باب الرفق فى الأمر كله : حديث [٦٠٢٤] ، ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٢٣ ـ باب فضل الرفق : حديث [٢٥٩٣] وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٨٠٧] والترمذى فى : الأستئذان : حديث [٢٧٠١] ، وابن ماجة فى : الأدب : حديث [٣٦٨٩] ، والدارمى فى الرقاق : حديث [٢٧٩٤] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ١١٢ و ٤ / ٨٧ ، ومالك فى : الاستئذان : حديث [٣٨] .

وفى حديث آخر : « من يحرم الرفق يحرم الخير » (١) .

باب فى الحقد والحسد

اعلم : أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن ، فاحتقن فيه فصار حقداً .

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه ، فالحقد ثمرة الغضب ، والحسد من نتائج الحقد .

وعن الزبير بن العوام رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء » (٢) .

وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » (٣) .

وفى حديث آخر عنه ﷺ قال : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (٤) .

وفى حديث آخر أنه قال : « يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة » فطلع رجل ، فسئل عن عمله ، فقال : إني لا أجد لأحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه (٥) .

---

(١) [صحيح] مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٢٣ ـ باب فضل الرفق : حديث [٢٥٩٢] ، وأبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ١١ ـ باب فى الرفق : حديث [٤٨٠٩] ، وابن ماجه فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب : ٩ ـ باب فى الرفق : حديث [٣٦٨٧] ، وأحمد فى « مسنده » ٤/ ٣٦٢و ٣٦٦ .

(٢) [ضعيف] الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٥٦ ـ باب حدثنا أبو يحيى : حديث [٢٥١٠] ، وأحمد فى « مسنده » ١/ ١٦٥ و ١٦٧ وفى إسناد انقطاع يعيش بن الوليد بن هشام ثقة لكنه لم يدرك الزبير .

(٣) سبق تخريجه .

(٤)[ضعيف] أبو داود فى : ٣٥ ـ كتاب الأدب : ٥٢ ـ باب فى الحسد : حديث [٤٩٠٣] ، وابن ماجة فى الزهد رقم [٤٢١٠] وهو فى «ضعيف الجامع » رقم [٢١٩٧] .

(٥) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٣/ ١٦٦ ، والبغوى [٣٥٣٥] .

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول : « الحاسد عدو نعمتى ، متسخط لقضائى ، غير راضٍ بقسمتى بين عبادى » .

وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شىء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شىء من أمر الدنيا ، وهو يصير إلى الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على شىء من أمر الدنيا ، وهو يصير إلى النار .

وقال إبليس لنوح عليه السلام : إياك والحسد ، فإنه صيرنى إلى هذه الحال .

واعلم : أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة ، فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره النعمة وتحب زوالها ، فهذا هو الحسد .

والحالة الثانية : أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها ، ولكنك تشتهى لنفسك مثلها ، فهذا يسمى غبطة .

قال المصنف رحمه الله :

قلت : واعلم أنى ما رأيت أحداً حقق الكلام فى هذا كما ينبغى ، ولابد لى من كشفه فأقول :

اعلم : أن النفس قد جبلت على حب الرفعة ، فهى لا تحب أن يعلوها جنسها فإذا علاعليها ، شق عليها وكرهته ، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوى ، وهذا أمر مركوز فى الطباع ، وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : «ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ »[1] .

وعلاج الحسد تارة بالرضى بالقضاء ، وتاره بالزهد فى الدنيا ، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة ، فيتسلى بذلك ولا يعمل

(١) [ضعيف] أورده الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » ص [٢٢٧] ، حديث [٢٥] ، وقال : قال فى «المقاصد » ضعيف .

بمقتضى ما فى النفس أصلاً ، ولا ينطق ، فإذا فعل لم يضره ما وضع فى جبلته .

فأما من يحسد نبياً على نبوته ، فيحب أن لا يكون نبياً ، أو عالماً على علمه فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه ، فهذا لا عذر له ، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة ، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه ، ويطلع على ما لم يدركوه ، فإنه لا يأثم بذلك ، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم ، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه ، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهم ، فأحب أحدهما أن يستبق ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦]

وفى « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عزوجل القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفقه فى الحق آناء الليل وآناء النهار »(١) .

والحسد له أسباب :

أحدها : العداوة ، والتكبر ، والعجب ، وحب الرياسة ، وخبث النفس ، وبخلها ، وأشدها : العداوة والبغضاء ، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب وخالفه فى غرضه ، أبغضه قلبه ، ورسخ فى نفسه الحقد .

والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك ، وظنه مكافأة من الله تعالى له ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك ، فالحسد يلزم البغض والعداوة ، ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن لا يبغى ، وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً فيستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن .

وأما الكبر : فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية ، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره ، وأن يكون من أصحاب ذلك دونه فلا يحتمل ترفعه عليه

(١) [متفق عليه] البخارى فى التوحيد ، باب قول النبى ﷺ « رجل آتاه القرآن . . » حديث [٧٥٢٩] ومسلم فى صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن حديث [٨١٥] والترمذى فى البر والصلة حديث [١٩٣٦] ، وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤٢٠٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٩ .

أومساواته ، وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريباً من ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١]، وقال فى حق المؤمنين : ﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام : ٥٣]، وقال فى آية أخرى : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] ، وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم .

وأما حب الرياسة والجاه : فمثاله أن الرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به ، من أنه أوحد العصر و فريد الدهر فى فنه ، إذا سمع بنظير له فى أقصى العالم ، ساءه ذلك وأحب موته ، أوزوال النعمة التى بها يشاركه فى علم ، أو شجاعة ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو ثروة ، أو غير ذلك ، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد .

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبى ﷺ ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم .

وأماخبث النفس وشحها على عباد الله : فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر ، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به شق عليه ذلك وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارها ، وتنغيص عيشهم ، فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته .

وقد قال بعض العلماء : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح الذى يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة ، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع ، وهذا معالجته شديدة ، لأنه ليس له سبب عارض ، فيعمل على إزالته ، بل سببه خبث الجبلة ، فيعسر إزالته فهذه أسباب الحسد .

فصل فى سبب كثرة الحسد

واعلم : أنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، ويقع ذلك غالباً بين الأقران ،والأمثال ، والإخوة ، وبنى العم ، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل التناقض فيها ، فيثور التنافر والتباغض .

ولذلك نرى العالم يحسد العالم دون ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، والإسكاف يحسد الإسكاف ، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون لسبب آخر ، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر .

فأصل العدواة التزاحم على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين ، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه ، فإنه يحسد كل من فى العالم ممن يساهمه في الخصلة التى يفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين ، وأما الآخرة ، فلا ضيق فيها ، فإن من أحب معرفة الله تعالى ، وملائكته ، وأنبياءه، وملكوت أرضه ، وسماءه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين ، بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته غيره ، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه ، وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ،ولا ضيق فيما عند الله ، لأن أجلّ ما عند الله من النعيم لذة لقائه ، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم ، إلا إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا .

والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل فى يد ما لم يرتحل عن يد أخرى والعلم مستقر فى قلب العالم ، ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه ، ولا نهاية له ، فمن عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكه ، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم ، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه ، فلا يكون فى قلبه

حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، فقد عرفت أنه لا حسد إلا فى المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل .

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء ، لأنها واسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار ، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ، ولذة لا تتكدر ، ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلافى معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته ، ولا ينال ذلك فى المعرفة أيضاً ، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه ، ولم تجد لذتها ، وضعفت فيها رغبتك ، فلست برجل ، إنما هذا شأن الرجال ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى من المحرومين .

واعلم : أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك فى الدين والدنيا ، وأنه لا يضر المحسود فى الدين ولا فى الدنيا ، بل ينتفع به والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد ، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع ، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب فى الآخرة .

وبيان قولنا : أن المحسود لا ضرر عليه فى الدين ولا فى الدنيا ، بل ينتفع بحسدك فى الدين والدنيا ، لأن ما قدره الله له من نعمة لابد أن تدوم إلى أجله الذى قدره ، ولا ضرر عليه فى الآخرة ، لأنه لا يأثم هو بذلك ، بل ينتفع به ، لأنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل .

وأما منفعته فى الدنيا ، فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء ، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد .

فإذا تأملت ما ذكرنا ، علمت أنك عدو لنفسك ، وهو صديق لعدوك ، فما

مثلك إلا كمثل من يرمى حجراً على عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه ، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول ، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيرميه الثالثة ، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه ، وعدوه سالم يضحك منه ، فهذه الأدوية العلمية ، فإذا تفكر الإنسان فيها ، أخمدت نار الحسد من قلبه .

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد ، فإذا بعثه على الحقد والقدح فى المحسود ، كلف نفسه المدح له ، والثناء عليه ، وإن حمله الكبر ، لزم نفسه التواضع له ، وإن بعثه على الكف الإنعام عنه ، ألزم نفسه زيادة فى الإنعام .

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم ، أهدوا إليه هدية .

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً ، إلا أنها مرة ، ربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد ، فأرد ما يكون ، وهذا هو الدواء الكلى ، والله أعلم .

باب فى ذم الدنيا

الآيات الواردة فى القرآن العزيز بعيب الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ﴾ [آل عمران ١٤ ، ١٥] ، وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [يونس : ٢٤] ، وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، وقوله ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٥] ، وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم : ٢٩ ، ٣٠] .

وأما الأحاديث ، ففى « الصحيحين » من رواية المسور بن شداد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فلينظر بم ترجع ؟** » (١).

وفى حديث آخر : « **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** » رواه مسلم (٢).

وفى حديث آخر : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء** » رواه الترمذى وصححه (٣).

وفى حديث آخر : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها** » (٤).

وروى أبو موسى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **من أحب دنياه ، أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى** » (٥).

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز فى ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه : **أما بعد** فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة . وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون فيها ، سرورها مشوب بالحزن ،

---

(١) [صحيح] مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ، باب فناء الدنيا حديث [٢٨٥٨] ، الترمذى فى : ٣٧ـ كتاب الزهد : ١٥ ـ باب منه : حديث [٢٣٢٣] ، وأحمد فى « مسنده » ٤/ ٢٢٩ وابن ماجة فى الزهد رقم [٤١٠٨] والبيهقى فى الشعب [١٠٤٦٠] والحاكم فى المستدرك [٤ / ٣١٩]

(٢) [صحيح] مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد : فى المقدمة : حديث [٢٩٥٦] والترمذى فى الزهد [٢٣٢٤].

(٣) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ١٣ ـ باب ما جاء فى هوان الدنيا : حديث [٢٣٢٠]

(٤) [حسن]الترمذى فى الزهد ، باب ١٤ حديث [٢٣٢٢] ، وابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣ـ باب مثل الدنيا : حديث [٤١١٢]، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٣٤١٤] .

(٥) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٤/ ١٧٥ و ٤١٢ ، والحاكم فى « المستدرك » ٤/ ٣٠٨ و ٣١٩ ، وابن حبان [٢٤٧٣ موارد] وقال الهيثمى في المجمع [١٠ / ٢٤٩] رجالهم ثقات وقال الذهبى فى التلخيص : فيه انقطاع وقال المنذرى فى الترغيب [٦ / ١٧] : المطلب لم يسمع من أبى موسى وضعفه الألبانى والأرناؤوط وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٥٣٤٠] .

وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم و نبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عزوجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن ، ما نظر إليها منذ خلقها .

ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها [١] ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، وكره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، زواها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؟ ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر ، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مكر به إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه وما أمسك عن عبد فلم يظن أن قد خير له فيها ، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه .

وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة ، فأنها تسحر قلوب العلماء ، يعنى الدنيا .

ومن أمثلة الدنيا : قال يونس بن عبيد : شبهت الدنيا كرجل نائم ، فرأى فى منامه ما يكرهه وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه .

ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذاماتوا انتبهوا .

والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس فى أيديهم شىء مما ركنوا إليه وفرحوا بـه .

قيل : إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا فى صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة ، فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم ، قال : فكلهم مات عنك أو

---

(١) والحديث عن أبى مويهبة فى حديث خروج النبى ﷺ فى المرض الذى توفى فيه واستغفاره لأهل البقيع وفيه : « إنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . . . » والحديث أخرجه أحمد فى مسنده [٣/ ٤٨٩] والحاكم فى المستدرك [٣/ ٥٥ ، ٥٦] وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل [٧/ ١٦٢ ، ١٦٣] والدارمى فى «سننه» [١ / ٧٨] وقال الهيثمى فى المجمع [٩ / ٢٤] رواه أحمد والطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما صحيح .

كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر .

روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ، فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم تقذف فى جهنم ، فتنادى : يا رب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وعن أبى العلاء قال : رأيت فى النوم عجوزا كبيراً عليها من كل زينة ، والناس عكوف عليها متعبون ، ينظرون إليها ، فقال : منَ أنت ويلك ؟ قالت : أما تعرفنى؟ قلت : لا ، قالت : أنا الدنيا ، فقلت : أعوذ بالله من شرك ، قالت : إن أحببت أن تعاذ من شرى فأبغض الدرهم .

وقال بعضهم : رأيت الدنيا فى المنام عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء .

مثال آخر : واعلم أن أحوالك ثلاث :

حال لم تكن فيها شيئاً ، وهى قبل أن توجد .

وحال أخرى ، وهى من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له فى البقاء السرمدى ، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك ، إما فى الجنة أوالنار ، وهو الخلود الدائم وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة ، وهى أيام حياتك فى الدنيا ، فانظر إلى مقدار ذلك ، وانسبه إلى الحالتين ، تعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف أيامه بها فى ضرر وضيق ، أو سعة ورفاهية ، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ، ولا قصبة

على قصبة ، وقال : « ما لى وللدنيا ؟ إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال تحت شجرة، ثم راح وتركها » [١] .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها ، هذا مثل واضح ، فى الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثانى على آخر القنطرة .

ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفما كان فلابد من العبور ، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو فى غاية الجهل والحمق.

وقيل : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ، ازداد عطشاً حتى يقتله .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول : انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر : روى عن الحسن قال : بلغنى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ماسلكوا منها أكثر أو ما بقى ، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر ، وبقوا بين ظهرانى المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاء إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء ، علام أنتم ؟ قالوا : على ما ترى ، قال : أرأيتكم أن هديتكم إلى ماء رواء ، ورياض خضر ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لايعصونه شيئاً ، قال :

---

(١) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ـ كتاب الزهد : ٤٤ ـ باب حدثنا موسى : حديث [٢٣٧٧] ، وابن ماجة : فى ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣ ـ باب مثل الدنيا : حديث [٤١٠٩] ، وأحمد فى «مسنده»١/ ٣٠١ ، وهو فى صحيح الجامع [٥٦٦٨] .

فأوردهم ماءً ورياضاً خضراً ، فمكث فيهم ماشاء الله ، ثم قال : يا هؤلاء ، الرحيل قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم ، وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثر القوم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم فى أول حديثه ، فو الله ليصدقنكم فى آخره ، قال : فراح فيمن اتبعه ، وتخلف بقيتهم ، فنزل عدو ، فأصبحوا بين أسير وقتيل »[1] .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا ، وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فى مكانهم ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من حق »[2] .

فصل فى بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التى خلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب .

وقد وضع الله فى الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكل ما تاقت منعوها ، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلا بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر

---

(١) قال الزبيدى فى شرح الأحياء [٨/ ١١٥] : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلاً بطوله ، ولأحمد والطبرانى والبزار من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان . . الحديث ، فقال ـ أى أحد الملكين : إن مثل هذا ومثل أمته مثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة فذكر نحوه وأحضر منه وإسناده حسن . قلت (الزبيدى) : وبخط الحافظ ابن حجر : إسناده صحيح واللفظ الذى ساقه المصنف ، وهو سياق حديث الحسن عند ابن أبى الدنيا وقد روى نحوه ابن عساكر عن ابن المبارك قال : بلغنا عن الحسن ، قال ابن عساكر : وهذا مرسل وفيه انقطاع بين ابن المبارك والحسن .

(٢) البخارى فى : ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله : حديث [٧٢٨٣] ، ومسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل : ٦ ـ باب شفقته ﷺ على أمته : حديث [٢٢٨٣].

المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

اعلم :أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان ، فيها حظ ، وهي الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الآدمى ، ما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، كل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عزوجل ، وفإنه لا يبقى إلا بهده المصالح، كما لا تبقى الناقة فى طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها مايصلحه على الوجه المأمور به مدح ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع فى الذم ، فإنه ليس للشره فى تناول الدنيا وجه ، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ، وشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ، ويرد لها الماء ، ويغير عليها ألوان الثياب ، وينسى أن الرفقة قد سارت فإنه يبقى فى البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولا وجه أيضاً للتقصير فى تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هى الوسطى ، وهى أن يؤخد من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهى ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها .

وقد كان سفيان الثورى يأكل فى أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه فى السفر الفالوذج .

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات فى بعض الأوقات ، ويقول : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، إذا فقدنا صبرنا صبر الرجال .

ولينظر فى سيرة رسول الله ﷺ وصحابته ، فإنهم ما كان لهم إفراط فى تناول الدنيا، ولا تفريط فى حقوق النفس .

وينبغى أن يتلمح حظ النفس فى المشتهى ، فإن كان فى حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم والزهد فيه يكون .

كتاب في ذم البخل والحرص والطمع
وذم المال ومدح القناعة والسخاء

اعلم : أن المال لايذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمى ، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله ، أو حبسه عن حقه ، أو إخراجه فى غير وجهه ، أو المفاخرة به ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨]

وفى سنن الترمذى » عن النبى ﷺ أنه قال : «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » [1] .

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال . وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى الفتوح يبكى ويقول : ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبى بكر لشر أراده بهما ، وأعطاه عمر إرادة الخير له .

وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقبته فلا تأخذه . فإنه إن لدغك قتلك سمه ، قيل : ما رقبته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه فى حقه ، وقال : مصيبتان للعبد فى ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلها ، قيل : ما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله .

بيان فى مدح المال

قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغى أن يمدح ، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا ، وقد سماه الله تعالى خيراً ، وهو قوام الآدمى ، قال الله تعالى فى أول سورة النساء : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء : ٥]

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ،

(١)[صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٤٣ ـ باب حدثنا سويد بن نصر : حديث [٢٣٧٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٤٥٦ و ٤٥٧ و ٤٦٠ ، وهو فى « صحيح الجامع» رقم [٥٦٢٠] .

يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ، ويعطى منه حقه .

وقال أبو إسحاق السبيعى : كانوا يرون السعة عوناً على الدين .

وقال سفيان : المال فى زماننا هذا سلاح المؤمنين .

وحاصل الأمر ، أن المال مثل الحية فيه سم وترياق ، فترياقه فوائده ، وغوائله سمه فمن عرف فوائده وغوائله . أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره .

أما فوائده ، فتنقسم إلى دنيوية ودينية :

أما الدنيوية ، فالخلق يعرفونها ، ولذلك تهالكوا فى طلبها .

وأما الدينية ، فتنحصر فى ثلاثة أنواع :

أحدها : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة . كالحج والجهاد ، وإما فى الاستعانة على العبادة ، كالمطعم والملبس والمسكن ، وغيرها من ضرورات المعيشة ، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة ، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به ، فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ، ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا .

النوع الثانى : ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام :

أحدها : الصدقة ، وفضائلها كثيرة مشهورة .

القسم الثانى : المروءة ، ونعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك ، وهذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء .

القسم الثالث : وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، وكف شرهم ، فهو من الفوائد الدينية ، فإن النبى ﷺ

قال : « وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة » [1]، وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة ، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التى تحمل فى الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

القسم الرابع : ما يعطيه أجراً على الاستخدام ، فإن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابها كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته . وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك ، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه ، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل بذلك غرضك ، فإن تشاغلك به غبن ، لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد .

النوع الثالث : ما لايصرفه الإنسان إلى معين ، لكن يحصل به خيراً عاماً ، كبناء المسجد ، والقناطر ، والوقوف المؤبدة .

فهذه جملة فوائد المال فى الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة ، من الإخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر والعز بين الخلق ، والكرامة فى القلوب ، والوقار .

أما غوائل المال وآفاته ، فتنقسم أيضاً إلى دينية ودنيوية :

أما الدينية فثلاث فئات :

الأولى : أنه يجر إلى المعاصى غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية ، انبعثت داعيته إليها .

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصى ، ومتى يئس الإنسان من المعصية لم تتحرك داعيته إليها .

---

(١) [ضعيف] أخرجه أبو يعلى [٢٠٤٠] والحاكم فى المستدرك [٢ / ٥٠] وقال الهيثمى فى المجمع [٣ / ١٣٦] وفى إسناده مسور بن الصلت وهو ضعيف وهو فى ضعيف الجامع [٤٢٥٤] .

ومن العصمة أن لا تجد ، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهى هلك ، وإن صبر لقى شدة فى معاناة الصبر مع القدرة ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أنه يتحرك إلى التنعم فى المباحات ، حتى تصيرله عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقاحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق ، لأن من كثر ماله خالط الناس ، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة ، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال .

الثالثة : وهى التى لا ينفك عنها أحد ، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى وهذا هو الداء العضال ، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى ، والتفكير فى جلاله وعظمته ، وذلك يستدعى قلباً فارغاً .

وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكراً فى خصومه الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم ، ويتفكر فى منازعة شركائه فى الحدود والماء ، وأعوان السلطان فى الخراج والأجراء على التقصير فى العمارة ونحو ذلك .

وصاحب التجارة يمسى ويصبح متفكراً في خيانة شريكه ، وتقصيره فى العمل وتضييعه المال .

وكذا سائر أصناف المال ، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر فى كيفية حفظه ، وفى الخوف عليه .

ومن له قوت يوم بيوم فهو فى سلامة من جميع ذلك ، وهذا سوى ما يقاسمه أرباب الأموال فى الدنيا ، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب .

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقى إلى الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات .

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم :أن الفقر محمود ولكن ينبغي أن يكون قانعاً ، ومنقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما فى أيديهم ، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس .

وقد روى فى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه» (١) .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : قد جربنا العيش كله ، لينه من شديده ، فوجدناه يكفى منه أدناه .

وفي حديث جابر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « القناعة مال لا ينفد » (٢) .

وقال حازم : ثلاث من كن فيه كمل عقله : من عرف نفسه ، وحفظ لسانه ، وقنع بما رزقه الله عزوجل .

وقرأ بعض الحكماء : أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة .

أما الحرص ، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس ، أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له »(٣) .

ونهى عن الطمع فقال : « اجمع اليأس مما فى أيدى الناس» (٤) .

---

(١) [صحيح] مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٤٣ ـ باب فى الكفاف والقناعة : حديث [١٠٥٤] ، وأحمد فى «مسنده » ٢/ ١٦٨ و ١٧٣ ، والترمذى فى الزهد ، باب ما جاء فى الكفاف رقم [٢٣٤٨]

(٢) [ضعيف جداً] ابن عدى ٤/ ١٥٠٧ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٤١٤٠] .

(٣) [صحيح] الحاكم فى « المستدرك » ٢/ ٣ ، والبيهقى ٥/ ٢٦٤ ، وأبو نعيم فى الحلية [٣/ ١٥٦] .

(٤) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٥/ ٤١٢ ، وابن ماجة فى الزهد رقم [٤١٧١] وأبو نعيم فى الحلية [١ / ٤٦٢] والبخارى فى التاريخ [٣/ ٢ / ٢١٦] ، قال البوصيرى فى الزوائد [٢ / ٣٣٣] : إسناده ضعيف وعثمان بن جبير : قال الذهبى فى الطبقات : مجهول وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال البخارى أبو حاتم : روى عن أبيه عن جده عن أبى أيوب والحديث له شواهد يتقوى بها انظر السلسلة الصحيحة رقم [٤٠١] .

وقال بعضهم : لوقيل للطمع : من أبوك ؟ قال : الشك فى المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ، ولو قيل له : ما غياتك ؟ قال الحرمان.

وقيل : الطمع يذل الأمير ، واليأس يعز الفقير .

بيان علاج الحرص والطمع
والدعاء الذى تكتسب له صفة القناعة

اعلم : أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان :

الصبر ، والعلم ، والعمل ، ومجموع ذلك خمسة أمور :

الأول : الاقتصاد فى المعيشة ، والرفق فى الإنفاق ، فمن أراد القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لابد منه ، فيقنع بأى طعام كان ، وقليل من الإدام ، وثوب واحد ، ويوطن نفسه على ذلك ، وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر .

قال النبى ﷺ : « ما عال من اقتصد » (1) وفى حديث آخر : « التدبير نصف العيش » (2) . وفى حديث آخر « ثلاث منجيات : خشية الله تعالى فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب » (3) .

الثانى : إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه ، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل ، واليقين بأن رزقه لابد أن يأتيه ، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر .

---

(١) [ضعيف] أحمد ١/ ٤٤٧ ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠ / ٢٥٢] رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط وفى أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف ، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير [٧٩٣٩] ونسبه لأحمد ورمزله بعلامة الحسن وتعقبه المنادى فضعفه بالهجرى وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٥١٠١] .

(٢) [ضعيف] أورده فى « كنز العمال » رقم [٤٤١٠٠] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٥٠٦] .

(٣) [حسن] رواه البزار [٨٠] وأبو نعيم فى الحلية [٢ / ٣٤٣] وقال الهيثمى فى المجمع [١ / ٩١] رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه ابن لهيعة ومن لايعرف ، وقال المنذرى فى الترغيب [١ / ١٦٢] رواه البزار والبيهقى وغيرهما وهو مروى عن جماعة من الصحابة ، وأسانيده وإن كان لا يسلم بشىء منها من مقال فهو بجموعها حسن إن شاء الله وحسنه الألبانى بمجموع طرقه فى الصحيحة [١٨٠٢]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **إن روح القدس نفث فى روعى ، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله عزوجل ، فإنه لا يدرك ماعند الله إلا بطاعته** »(١) .

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغى أن يضطرب قلبه ، فإن فى الحديث : « **أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب** »(٢) .

الثالث : أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء ، وما فى الطمع والحرص من الذل .

وليس فى القناعة إلا الصبر عن الشبهات والفضول ، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة ، ومن لم يؤثر عزّ نفسه عن شهوته ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان .

الرابع : أن يكثر تفكره فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين ، ويسمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين مشابهة أراذل العالمين أو صفوة الخلق عند الله تعالى حتى يهون عليه الصبر على القليل القناعة باليسير ، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلا منه ، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً منه .

الخامس : أن يفهم ما فى جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا فى آفات المال وينظر إلى ثواب الفقر ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه فى الدنيا ، وإلى من فوقه فى الدين ، كما جاء فى الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « **انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم** »(٣) .

عماد الأمر : الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء .

(١) [صحيح] شرح السنة ١٤/ ٣٠٤ . وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٢٠٨٥] .
(٢) [ضعيف جداً] أورده العجلونى فى « كشف الخفاء » ١/ ٣٤ : حديث [٥٨] .
(٣) سبق تخريجه .

فصل فى لزوم القناعة لمن فقد المال

ينبغى لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا ، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف ، فإن السخاء أخلاق الأنبياء ، وهو أصل من أصول النجاة .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « قال جبريل عليه السلام : قال الله عزوجل : الإسلام دين ارتضيته لنفسى ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه »(١) .

وفى حديث آخر : عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « تجافوا عن ذنوب السخى ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر »(٢) .

وفى حديث آخر : « الجنة دار الأسخياء ، وما جُبل ولى الله إلا على السخاء »(٣) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام ، ولكن دخلوها بسخاء النفس ، وسلامة الصدر ، والنصح للمسلمين »(٤) .

---

(١) [ضعيف] قال الزبيدى فى شرح الإحياء [٨/ ١٧١] : قال العراقى فى [المغنى] [٣/ ٢٤٣] رواه الدارقطنى فى [المستجاد] دون قوله « . . . وحسن الخلق » بسند ضعيف ومن طريق ابن الجوزى فى [الموضوعات] وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف .

(٢) [ضعيف] الحلية ٤/ ١٠٨ و ١١٠ و ٤١١ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٣٩٠] .

(٣) [ضعيف] ابن عدى ١/ ١٩٠ ، وحكم عليه ابن الجوزى بالوضع فى الموضوعات [٢/ ١٨٥] وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٦٦٨] .

(٤) [ضعيف] ابن عدى [٦/ ٢٢٩١] وقال العراقى فى [المغنى] [٣/ ٢٤٥] ، أخرجه الدارقطنى فى [المستجاد] وأبو بكر بن لال فى « مكارم الأخلاق » من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينورى أورد ابن عدى له مناكير ، وفى « الميزان » : إنه ضعيف منكر الحديث ، ورواه الخرائطى فى « مكارم الأخلاق » من حديث أبى سعيد نحوه وفيه صالح المرى : متكلم فيه .

وفى حديث آخر : « عليكم باصطناع المعروف ، فإنه يمنع مصارع السوأ »[١] .

وقال ابن السماك : عجبت ممن يشترى المماليك بماله ، كيف لا يشترى الأحرار بمعروفه ؟!

ومن حكايات الأسخياء :

قد صح عن النبى ﷺ أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة[٢] ، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا[٣] ، وأن رجلاً سأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى الرجل قومه ، فقال : يا قوم : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر[٤] .

● وقيل : كان لعثمان بن طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك .

● وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله ، وتعرف إليه برحم ، فقل : إن هذه الرحم ، ما سألنى بها أحد قبلك ، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم .

وقال عروة : رأيت عائشة رضى الله عنها تقسم سبعين ألفاً ، وهى ترقع درعها .

● وروى أنها قسمت فى يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية علىّ فطورى ، فجائتها بخبز وزيت ، فقالت لها أم درة : أما استطعت فيما

---

(١) [ضعيف] الطبرانى فى « الأوسط » رقم [٦٢٢٢] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٣٤٩٤] ، وراجع تحقيق مفصلاً فى السلسلة الصحيحة [١٩٠٨] فقد روى بطرق كثير وله شواهد عدة حتى قال الألبانى : وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب .

(٢) البخارى فى بدء الوحى حديث [٦] ، ومسلم فى الفضائل ، باب كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير حديث [٢٣٠٨] والنسائى [٤ / ١٢٥] .

(٣) البخارى فى الأدب ، باب حسن الخلق والحياء حديث [٦٠٣٤] ومسلم فى الفضائل حديث [٢٣١١]

(٤) مسلم فى الفضائل ما سئل الرسول ﷺ شيئاً قط فقال : لا حديث [٢٣١٢] .

قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه !؟ فقالت : لوذكرتنى لفعلت .

•واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يبكون على دراهم ، قال : يا غلام ، ائتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

•وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لى لبن البقر ، فابعث لى بقرة أشرب من لبنها ، فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها ، وقال : القرية التى كانت ترعى فيها لك .

•ودخل على بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه ، فجعل يبكى : فقال : ما شأنك ؟ اقل : علىّ دين ، قال : كم ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار ، أو بضعة عشر ألف دينار . قال : فهى علىّ .

•وجاء رجل إلى معن ، فسأله فقال : يا غلام : ناقتى الفلانية وألف دينار ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه .

•وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه ، فقال لبعض خدمه : إذا دخل الأمير البستان فعرِّفنى ، قال : فلما دخل عرفه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة ، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، فلما بصر معن بالخشبة ، أخذها ، فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتى　　　فما لى إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعا الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقاله ، فأمر له بعشر بدر[1] ، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ، وقرأ ما فيها ، ودعا الرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى ، فلما أخذها الرجل ، خاف أن يعود فيستعيدها منه ، فخرج ، فلما كان

(١) بدَر : جمع « بَدْرَة » ، وهو كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ، ويقدم فى العطايا ، ويختلف باختلاف العهود . « المعجم » ص [٤٠] .

اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، فدعا الرجل فطلب فلم يوجد ، فقال معن : حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار .

• ومرض قيس بن سعد به عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ، ينادى : من كان عليه لقيس حق ، فهو منه فى حل ، قال : فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من عاده .

• وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى ، فقال : سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائه ألف أخرى .

فصل فى البخل وذمه

عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « **خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق** » (١) .

وقال ﷺ : « **لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً** » (٢) .

وفى أفراد مسلم ، عن النبى أنه قال كان يقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل** » (٣) .

(١) [**ضعيف**] الترمذى فى : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٤١ ـ باب ما جاء فى البخيل : حديث [١٩٦٢] والبخارى فى الأدب المفرد [٢٨٢] وأبو نعيم فى الحلية [٢ / ٢٨٩] وفى سنده صدقه بن موسى الرقيقى قال الحافظ فى التقريب [٢٩٢١] صدوق له أوهام ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٨٣٣] وضعيف الأدب المفرد [٤٥ / ٢٨٢] .

(٢) [**حسن**] النسائى فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد : ٨ ـ باب فضل من عمل فى سبيل الله : حديث [٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ٤٤١ ، والحاكم [٢ / ٧٢] وصححه ووافقه الذهبى ، وابن حبان فى صحيحه [١٥٩٩ موارد] ، وإسناده حسن لأجل : حصين بن اللجلاج ويسمى القعقاع أيضا وهو مجهول عند ابن حجر والذهبى ، ولم يجهله ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه شىء وذكره ابن حبان في الثقات وقال مغلطاى : قول الذى مجهول فيه نظر .

(٣)[**صحيح**] البخارى فى الدعوات ، باب التعوذ من البخل حديث [٦٣٧٠] والترمذى فى الدعوات رقم [٣٥٦٧] والنسائى [٨ / ٢٦٦] فى الاستعاذة .

وروى جابر رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ لبنى سلمة : « من سيدكم ؟ » قالوا : جَدّ بن قيس على أننا نُبَخِّله ، قال : « وأىُّ داء أدوأ من البخل ؟ » بل سيدكم بشربن معرور »(١) وهى أصح من ذكر عمرو بن الجَموح ، وغلط بعض الرواة ، فقال : البراء بن معرور ، البراء مات قبل الهجرة .

وعن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »(٢) .

قال الخطابى : الشح فى المنع أبلغ من البخل .

وقال سلمان الفارسى : إذا مات السخى ، قالت الأرض والحفظة : رب تجاوز عن عبدك فى الدنيا بسخائه وإذا مات البخيل قالت : اللهم احجب هذا العبد عن الجنة كما حجب عبادك عما جعلت فى يديه من الدنيا .

وقال بعض الحكماء : من كان بخيلاً ورث ماله عدوه .

ووصف أعرابى رجلاً فقال : لقد صغر فى عينى لعظم الدنيا فى عينه .

وذم أعرابى قوماً فقال : يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش .

من حكايات البخلاء :

روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان الحاجب رجلاً من أهل العرب ، وكان بخيلاً ، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها ، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضىء بها أطفأها .

وقيل : كان مروان بن أبى حفصة من أبخل الناس ، فخرج يريد المهدى ، فقالت امرأته : ما لى عليك إن رجعت بالجائزة ؟

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٢٩٦] والبيهقى فى الشعب وصححه الألبانى فى صحيح الأدب [٢٢٧ / ٢٩٦] .

(٤) سبق تخريجه .

قال : أن أعطيتها مائة ألف درهم ، أعطيتك درهماً ، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق ! .

وقيل : كان بعض البخلاء موسراً كثير الأموال ، وكان ينظر فى دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج ، ودعا حمالاً وقال : بكم تحمل هذه الحوائج ؟ قال : بحبة قال أبخس ، قال ما أقل من حبة ؟ لا أدرى ما أقول . قال : نشترى بالحبة جزراً فنجلس جميعاً فنأكله ! .

فصل فى فضل الإيثار وبيانه

اعلم : أن السخاء والبخل درجات .

فأرفع درجات السخاء الإيثار وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه .

وأشد درجات البخل ، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ، ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهى الشهوة فيمنعه منها البخل .

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة ، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة فالأخلاق عطايا يضعها الله عزوجل حيث يشاء .

وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء . وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيثار ، فقال :﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر : ٨] ، وكان سبب نزول هذه الآية[(١)] قصة أبى طلحة ، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه ، وحكايته مشهورة .

●واستشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام وجماعة من بنى المغيرة ، فأتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه .

---

(١) البخارى فى التفسير ، باب قوله « ويؤثرون على أنفسهم » حديث [٤٨٨٩] ومسلم فى الأشربة ، باب إكرام الضيف حديث [٢٠٥٤] والترمذى فى تفسير القرآن حديث [٣٣٠٤] .

أتى عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه ، فقال : ابدأ بهذا ، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه ، فقال : ابدأ بهذا ، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة ، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسى أنتم

• وأهدى إلى الرجل من الصحابة رضى الله عنه رأس شاة ، فقال : إن أخى أحوج إليه منى ، فبعث به إلى الرجل ، فبعث به ذلك إلى آخر ، حتى تداولته سبع أبيات فرجع إلى الأول .

• خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعه له ، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيه ، إذا أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله ، ثم رمى إليه قرصا آخر فأكله ، ثم رمى إليه ثالثا فأكله ، وعبد الله ينظر فقال : يا غلام ! كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ، قال : فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال : ما هى بأرض كلاب ، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده ، قال : فما أنت صانع ؟ قال : أطوى يومى هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء وهذا أسخى منى ، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات ، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له .

• واجتمع جماعة من الفقراء فى موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان ، وأطفأوا السراج ، وجلسوا للأكل ، فلما رفع الطعام ، إذا هو بحاله ، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه .

فصل فى حد البخل والسخاء

وقد تكلم الناس فى حد البخل والسخاء ، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب ، وأن من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخيل ، وهذا غير كاف ، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذى يفرضه الحاكم ، ثم يضايقهم فى زيادة لقمة أو تمرة فإنه معدود من البخلاء ، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب فى الشرع واللازم بطريق المرءوة مع طيب القلب بالبذل .

فأما الواجب بالشرع : فهو الزكاة ، ونفقة العيال .

وأما اللازم بطريق المروءة ، فهو ترك المضايقة ، والاستقصاء عن المحقرات ، فإن ذلك يستقبح ، ويَختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص ، فقد يستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير ، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب ، فالبخيل الذى يمنع ما لا ينبغى أن يمنع ، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة ، ومن قام بواجب الشرع ولازم المروءة ، فقد تبرأ من البخل ولكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك .

قال بعضهم الجواد : هو الذى يعطى بلا منّ ، وقيل : هو الذى يفرح بالإعطاء .

فأما علاج البخل ، فاعلم أن سبب البخل حب المال .

ولحب المال سببان :

أحدهما : حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، وإن كان قصير الأمل وله ولد ، فإنه يقوم مقام طول الأمل .

الثانى : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ، ويفضل معه آلاف ، ويكون شيخاً لا ولد له ، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه ، و لا بصدقة تنفعه ، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه ، أو ضاع إن كان مدفوناً ، وهذا مرض لا يرجى علاجه .

مثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً ، فلما جاء رسوله ، أحل الرسول ونسى محبوبه واشتغل بالرسول ، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات ، فيحب الدنانير لذاتها ، وينسى الحاجات ، وهذا غاية الضلال .

واعلم : أن علاج كل علة بمضادة سببها :

فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر ، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت .

ويعالج التفات القلب إلى الولد ، بأن من خلقه معه رزقه ، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث .

فليحذر أن يترك لولده الخير ، ويقدم على الله بشر ، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه ، وإن كان فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصى ، وليردد على سمعه ما ذكرنا فى ذم البخل ومدح السخاء .

واعلم : أنه إذا كثرت المحبوبات فى الدنيا ، كثرت المصائب بفقدها ، فمن عرف آفة المال لم يأنس به ، لم يأخذ منه إلا قدر حاجته ، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل ، والله أعلم .

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « **إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية** »[1] ، وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء ، فضلاً عن عامة العباد ، وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات ، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات ، ولم تطمع فى المعاصى الظاهرة ، والواقعة على الجوارح ، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل ، ووجدت ملخصاً من شدة المجاهدة فى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم ، فأصابت النفس فى لذة عظيمة ، فاحتقرت فيها ترك المعاصى ، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عزوجل ، وقد أثبت فى ديوان المنافقين ، وهذه مكيدة عظيمة لايسلم منها إلا المقربون .

ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة ، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين ، الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه وحقيقته ، وأقسامه .

اعلم : أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار ، وذلك خطر عظيم ، والسلامة فى الخمول . وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة ، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها ، فإن وقعت من قبل الله تعالى ، فروا عنها ، وكانوا يؤثرون الخمول ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه خرج من منزله ، فتبعه جماعة ، فالتفت إليهم وقال : علام تتبعونى ؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان .

---

(١)[ضعيف] ابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٢١ ـ باب الرياء والسمعة : حديث [٤٢٠٥] ، وضعفه الحافظ العراقى فى تخريج الأحياء [٣/ ٢٧٤] وله شاهد عند أحمد فى المسند [٥/ ٤٢٩] والبيهقى فى السنن [٥/ ٢٣٥] وهو فى ضعيف الجامع رقم [١٣٧٨] .

وفى لفظ آخر أنه قال : ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

وكان أبو العالية رحمه الله إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام .

وكان خالد بن معدان رحمه الله إذا عظمت حلقته ، قام وانصرف كراهة الشهرة .

وقال الزهرى رحمه الله : ما رأينا الزهد فى شىء أقل منه فى الرياسة ، نرى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال ، فإذا نوزع الرياسة . حامى عليها وعادى .

قال رجل لبشر الحافى رحمه الله : أوصنى ، فقال : أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وقال : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب فى الدنيا أن يعرفه الناس .

وقد روى فى « صحيح مسلم » أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو فى غنم له خارجاً عن المدينة ، فلما رآه قال : أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فلما أتاه قال : يا أبه ، أنزلت فى إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم ؟ فضرب سعد فى صدره وقال : اسكت ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » (١) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضاً فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك » ثم نقر بيده ، فقال : « عُجِّلت منيته ، قلت بواكيه ، قلّ تراثه » . حديث حسن (٢) .

---

(١) [صحيح] مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد : فى المقدمة : حديث [٢٩٦٥] ، . وأحمد فى «مسنده» ١ / ١٦٨ .

(٢) [ضعيف] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣٥ ـ باب ما جاء فى الكفاف : حديث [٢٣٤٧] ، وابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٤ ـ باب من لا يؤبه له : حديث [٤١١٧] ، وأحمد فى «مسنده» ٥ / ٢٥٥ ، فى سنده على بن يزيد الألهانى . قال الحافظ فى التقريب : ضعيف وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٣٩٧] ، وضعيف الحاذ : أى قليل المال والأهل .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يوصى أصحابه ، فيقول : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت سرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تعرفون فى السماء ، وتخفون على أهل الأرض .

فإن قيل : هذا فيه فضيلة الخمول ، وذم الشهرة ، وأى شهرة أكثر من شهرة الأنبياء ، وأئمة العلماء .

قلنا : المذموم طلب الإنسان الشهرة ، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم ، غير أن فى وجودها فتنة على الضعفاء ، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة فى السباحة ، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه ، فأما السابح النحرير ، فإن تعلق الغرقى به كان سببا لنجاتهم وخلاصهم .

فصل فى أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا

واعلم : أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها ، وطاعتها ، والتصرف فيها .

فالجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال فى هذا الشخص ، إما من علم أو عبادة ، أو نسب أو قوة ، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقد اللناس كمالاً فبقدر ما يعتقدون له من ذلك ، تذعن قلوبهم لطاعته ، ومدحه وخدمته ، وتوفيره .

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع ، وأنه أبلغ من حب المال ، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه ، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات ، فاشتراك الجاه والمال فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، والجاه فى ذلك أرجح من المال .

واعلم : أن من الجاه ما يحمد وما يذم ، لأن من المعلوم أنه لابد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما ، وكذلك لابد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى السلطان يحرسه ، ورفيق يعينه ،

وخادم يخدمه ، فحبه ذلك ليس بمذموم ، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض ، كالمال .

والتحقيق فى هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما ، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح ، كقول يوسف عليه السلام : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[يوسف : ٥٥]. أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته ، كان ذلك مباحاً ، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه . كالعلم ، والورع ، والنسب ، فذلك محظور .

وكذلك لو حسّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع ، فإنه يكون مرائياً بذلك ، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير ، ولا تملك المال بتلبيس .

بيان علاج حب الجاه

اعلم .أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصورالهمّ على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردد إليهم ، والمراءاة لهم ، ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق ، وأصل الفساد ، لأن كل من طلب المنزلة فى قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه ، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات ، والتوصل إلى اقتناص القلوب .

ولذلك شبه الرسول ﷺ حب المال والشرف وإفسادهم للدين بذئبين ضاربين أرسلا فى غنم (١).

فحب الجاه إذاً من المهلكات ، يجب علاجه ، وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما الأول :فهو أن يعلم أن السبب الذى لاجله أحب الجاه ، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم ، وذلك إذا صفا وسلم يكون فى آخره الموت ، فينبغى أن يتفكر فى نفسه فى الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه فى الدنيا ،

(١) [صحيح] الترمذى فى : الزهد : حديث [٢٣٧٦] ، و أحمد فى المسند [٣/ ٤٥٦ ، ٤٦٠] وابن حبان فى صحيحه [٢٤٧٢ موارد] والدارمى [٢٧٣٣] وهو فى صحيح الجامع [٥٦٢٠].

من تطرق الحسد إليهم ، وقصدهم بالإيذاء ، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم محترزين من تغيير منزلتهم فى القلوب .

والقلوب أشد تغيراً من القدر فى غليانها ، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة مكدرة لحفظ الجاه ، فلا يفى مرجو الدنيا بمخوفها ، فضلاً عما يفوت فى الآخرة ، فهذا من حيث العلم .

وأما العلاج من حيث العمل ، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك ، كما روى أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد ، فلما قرب منه ، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً ، وجعل يأكل بشره ، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه .

ولما أريد إبراهيم النخعى على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد فى السوق .

واعلم : أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم ، فإذا خاف من تلك الفتنة ، فليخالطهم على وجه السلامة ، وليمش فى الأسواق ، وليشتر حاجته ويحملها ، وليقطع طمعه من دنياهم ، وقد تم مراده .

وكان بشر الحافى يجلس إلى عطار ، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم

فصل « فى عدم الاكتراث بذم الناس »

واعلم : أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات ، فوجبت معالجته .

وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التى مدحت بها ، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو : إما أن يكون مما يفرح به العلم والورع ، أو مما لا يصلح أن يفرح به ، كالجاه والمال .

أما الأول : فينبغى أن يحذر من الخاتمة ، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لابمدح الناس .

وأما القسم الثانى : وهو المدح بسبب الجاه والمال ، فالفرح بذلك كالفرح بنبات الأرض الذى يصير عن قريب هشيماً ، ولا يفرح بذلك إلا من قلّ عقله ، وإن كنت خالياً عن الصفة التى مدحت بها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون .

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم فى كتاب آفات اللسان ، فلا ينبغى أن تفرح به بل تكرهه ، كما كان السلف يكرهونه ، ويغضبون على فاعله .

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح ، فإنه ضده والقول الوجيز فيه أن من ذمك ، إما أن يكون صادقاً فيما قال ، قاصداً للنصح لك ، فينبغى أن تتقلد منته ولا تغضب ، فإنه قد أهدى إليك عيوبك ، وإن لم يقصد بذلك النصح ، فإنه يكون قد جنى هو على دينه ، وانتفعت بقوله ، لأنه عرّفك ما لم تكن تعرف وذكرّك من خطاياك ما نسيت ، وإن افترى عليك بما أنت منه برئ ، فينغى أن تفكر فى ثلاثة أشياء :

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله ، فما ستر الله عز وجل عليك من عيوبك أكثر ، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه برىء .

الثانى : أن ذلك كفارات لذنوبك .

الثالث : أنه جنى على دينه ، وتعرض لغضب الله عليه ، فينبغى أن يسأل الله العفو عنه .

كما روى أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم ، فدعا له بالمغفرة وقال : صرت مأجوراً بسببه ، فلا أجعله معاقباً بسببى .

وقد تقدمت هذه الحكاية فى فضل الحلم .

القسم الثانى من الكتاب

فى بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه

وقد ورد ذم الرياء فى الكتاب والسنة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ [الماعون : ٤ ، ٦] .

وقوله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وأما الأحاديث ، فقد روى عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عزوجل أنه قال : « من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فهو للذى أشرك ، وأنا منه برىء » (١) .

وفى حديث آخر : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : يا رسول الله : وما الشرك الأصغر ؟ قال : « الرياء ، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، هل تجدون عندهم » (٢) .

وقال بشر الحافى : لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلىّ من أن أطلبها بالدين .

واعلم : أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، فالمرائى يرى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام :

الأول : الرياء فى الدين ، وهو أنواع :

أحدها : أن يكون من جهة البدن ، بإظهار النحول والصفار ، ليريهم بذلك

---

(١) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٢/ ٣٠١ ومسلم بنحوه فى الزهد والرقاق ، باب من أشرك فى عمله غير الله حديث [٢٩٨٥] وابن ماجة فى الزهد [٤٢٠٢] وقال البوصيرى فى الزوائد : اسناده صحيح رجاله ثقات .

(٢) [صحيح] أحمد ٥/ ٢٢٨ و ٢٢٩ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٥٥٥] .

شدة الاجتهاد ، وغلبة الآخرة ، وكذلك يرائى بتشعث الشعر ، ليظهر أنه مستغرق فى هم الدين ، ولا يتفرغ لتسريح شعره .

ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، ولهذا قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره . وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء ، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين .

وأما أهل الدنيا ، فيراءون بإظهار السمن ، وصفاء اللون ، واعتدال القامة ، وحسن الوجه ، ونظافة البدن .

النوع الثانى : الرياء من جهة الزى ، كالإطراق حالة المشى ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشمير الثياب كثيراً ، وتقصير الأكمام ، وترك الثوب مُخَرَقاً غير نظيف .

ومن ذلك لبس المرقعة ، والثياب الزرق ، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم فى الباطن .

ومنه التقنع فوق العمامة ، لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة .

وهؤلاء طبقات ، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح ، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقةالوسخة الغليظة ، ليرائى بذلك ، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه ، لكان عنده بمنزلة الذبح ، لخوفه أن يقول الناس : قد بدا له من الزهد ، وقد رجع عن تلك الطريقة .

وطبقة أخرى : يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار ، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح ، ولو لبسوا المخرقة الدنية لازدرتهم الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فيطلبون الأثواب الدقيقة ، والأكسبة الرقيقة والفوط الرفيعة

فيلبسونها ، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغنى ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء ، فيلتمسون القبول عند الفرقين .

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفاً من السقوط فى أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك ، لعظم ذلك عليهم ، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح ، وكل مراء بزى مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الحسنة ، وأنواع التجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت ، وهم فى بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة .

النوع الثالث : الرياء بالقول ، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكر وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل المحاورة ، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف ، وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس ، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح فى الكلام ونحو ذلك .

النوع الرابع : الرياء بالعمل ، كمراءاة المصلى بطول القيام ، وتطويل الركوع والسجود ، وإظهار الخشوع ، ونحو ذلك .

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم ، بالتبختر ، والاختيال ، وتحريك اليدين ، وتقريب الخطى ، والأخذ بأطراف الذيل ، وإمالة العطفين ، ليدلوا بذلك على الحشمة .

النوع الخامس : المراءاة بالأصحاب والزائرين ، وكالذى يتكلف أن يستزير عالماً

أو عابداً ، ليقال : إن فلاناً قد زار فلاناً ، وإن أهل الدين يترددون إليه ، ويتبركون به ، وكذلك من يرائى بكثرة الشيوخ ، ليقال : لقى شيوخاً كثيرة ، واستفاد منهم ، فيباهى بذلك ، فهذه مجامع ما يرائى به المراءون ، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد .

ومنهم من يطلب مجرد الجاه ، وكم من عابد اعتزل فى جبل ، وراهب انزوى إلى دير ، مع قطع طمعهم من مال الناس ، لكنه يحب مجرد الجاه .

ومنهم من يكون قصده المال ، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت .

فإن قيل : هل الرياء حرام ، أم مكروه ، أم مباح ؟

فالجواب : أن فيه تفصيلاً ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، أو بغيرها ، فإن كان الرياء بالعبادات ، فهو حرام ، فإن المرائى بصلاته وحجته ، ونحو ذلك عاص آثم ، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده ، فالمرائى بذلك فى سخط الله .

وأما إن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال على ما تقدم ، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكذلك الجاه ، وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام فى قوله : ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٥] .

ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر ، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا فى المال .

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه ، ومن غير اغتنام بزواله وإن زال ، فلا ضرر فيه ، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وعلماء الدين بعده ، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ، ولا يوصف بالتحريم .

وتحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس ، إنما هو ليراه الناس ، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال : إنه منهى عنه .

وقد تختلف المقاصد بذلك ، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص فى حال .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنة ، ونعله حسنة ، فقال : «إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس» (١) .

ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه ، وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك .

فصل فى أن أبواب الرياء بعضها أشد من بعض

واعلم : أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض ، لأنه درجات .

أشدها وأغلظها أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً ، كالذى يصلى بين الناس ، ولو انفرد لم يصل .

الدرجة الثانية : أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله ، فهو قريب من القسم الأول فى كونهما ممقوتين عند الله تعالى .

الثالثة : أن يكون قصد الرياء ، وقصد الثواب متساويين ، بحيث لو انفرد كل واحد منها عن الآخر لم يبعثه على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ، ولا يسلم من الإثم .

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه ، ولو لم يطلع عليه أحد

---

(١) [صحيح] مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٣٩ ـ باب تحريم الكبر وبيانه : حديث [٩١] ، وأبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب اللباس : ٢٦ ـ باب ما جاء فى إسبال الإزار : حديث [٤٠٩١] ، والترمذى فى : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٦١ ـ باب ما جاء فى الكبر : حديث [١٩٩٩] ، وابن ماجة فى : المقدمة : حديث [٥٩].

يترك العبادة ، فهذا يثاب على قصده الصحيح ، ويعاقب على قصده الفاسد ، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها ، كالذى يصلى وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن ذلك ، فهذا أيضاً من الرياء المحظور ، لأنه يتضمن تعظيم الخلق ، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات .

بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلِّى وخفىٌ :

فالجلى : هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه .

وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجرده ، ولكن يخفف العمل الذى أريد به وجه الله تعالى ، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه ، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا فى التسهيل ، لكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومتى لم يؤثر الدعاء فى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أنه يسر باطلاع الناس على طاعته ، فرب عبد مخلص العمل ، ولا يقصد الرياء بل يكرهه ، ويتم العمل على ذلك ، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، فهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فيعلم أن الرياء كان مستكناً فى القلب استكنان النار فى الحجر ، فأظهر ذلك بكراهة ، بل قد يتحرك حركة خفيفة ، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح .

وقد يخفى ، فلا يدعو إلى إظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً ، ولكن بالشمائل كإظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد .

وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لا يريد الاطلاع عليه ، ولكنه مع ذلك إذا

رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا فى قضاء حوائجه ، ويسامحوه فى المعاملة ، ويوسعوا له المكان ، فإن قصر فى ذلك مقصر ، ثقل ذلك على قلبه ، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التى أخفاها .

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق ، لم يكن خالياً عن شوب خفى من الرياء ، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روينا عن وهب بن منبه ، أن رجلاً من العبّاد قال لأصحابه : إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن كان له حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه ، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكبه ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ، فقال العابد : ما هذا ؟ قيل : هذا الملك ، فقال لصاحبه : ائتنى بطعام ، فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك ، : أين صاحبكم ؟ قالوا : هذا ، فقال : كيف أنت؟ قال : كالناس فقال الملك : ما عند هذا خير ، وانصرف عنه ، فقال : الحمد لله الذى صرفه عنى وهو لى لائم .

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى فى القيامة بإخلاصهم .

وشوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع ، ففيه شعبة من الرياء ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل ، بل فيه تفصيل .

فإن قيل : فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذاعرفت طاعته ، فهل جميع ذلك مذموم ؟

فالجواب : أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم :

فالمحمود : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله ، فيسر بحسن صنع الله ونظر له ولطفه به ، حيث كان يستر الطاعة والمعصية ، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة ، وستر عليه المعصية ولا لطف أعظم من ستر القبيح ، وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بذلك ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم ، أو يستدل بإظهار الله الجميل ، وستر القبيح عليه فى الدنيا ، أنه كذلك يفعل به فى الآخرة ، فإنه قد جاء معنى ذلك فى الحديث(١) .

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم ، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه ، فهذا مكروه مذموم .

فإن قيل : فما وجه حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا اطلع عليه ، أعجبه ، فقال : « له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » (٢).

فالجواب : أن هذا الحديث ضعيف ، وقد رواه الترمذى ، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه : أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير ، لقوله عليه الصلاة السلام : «أنتم شهداء الله فى الأرض » (٣).

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة ، باب تحريم الغيبة حديث [٢٥٩٠] ولفظه قال ﷺ : « لايستر الله على عبد فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة »

(٢)[**ضعيف**] الترمذى فى : ٣٧ـ كتاب الزهد : ٤٩ ـ باب عمل السر : حديث [٢٣٨٤] ، وهو فى ضعيف الجامع [٤٧٨٧] .

(٣) البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز : ٨٥ ـ باب ثناء الناس على الميت : حديث [١٣٦٧] . ومسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز : ٢٠ ـ باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى : حديث [٩٤٩] وأحمد فى المسند [٣/ ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٤٥] ، والترمذى فى الجنائز رقم [١٠٥٨] والنسائى [٤ / ٤٩ ، ٥٠] وابن ماجة [١٤٩١] فى الجنائز .

وقد روى فى أفراد مسلم من حديث أبى ذر رضى الله عنه قيل : يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » [(١)] .

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه ، فهذا رياء .

فصل فى بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا ورد على العبد وارد الرياء ، فلا يخلو :

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله ، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه ، فهذا لا يحبط العمل ، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده ، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره ، فهذا مخوف ، والغالب عليه أنه كان فى قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء ، فإن سلم من الرياء نقص أجره ، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة .

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة ، كالصلاة التى عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور ، لم يؤثر فى العمل ، وإن كان الرياء باعثاً على العمل ، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه ، فهذا يحبط الأجر .

وأما ما يقارن العبادة ، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها ، وإن ندم فيها على فعله ، فالذى ينبغى له أن يبتدئها ، والله أعلم

باب فى دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب لمقت الله تعالى ، وأنه من المهلكات ، ومن هذا حاله ، فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته .

(١) مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٥١ ـ باب إذا أثنى على الصالح فهى بشرى ولا تضره : حديث [٢٦٤٢] ، وأحمد فى « مسنده » ٥/ ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٨ .

وفى معالجته مقامان :

أحدهما : فى قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه .

والثانى : فى دفع ما يخطر منه فى الحال .

والمقـام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة ، وإذا فصل ، رجع إلى ثلاثة أصول :

وهى حب لذة الحمد ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس .

ويشهد لذلك ما فى « الصحيحين » من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال :

جاء رجل إلى النبى ص فقال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : **« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله »** (١) .

فمعنى قوله : « يقاتل شجاعة » أى « : ليذكر ويحمد ، ومعنى قوله : « يقاتل حمية »أى : يأنف أن يقهر أو يذم ، ومعنى : « يقاتل رياء » أى : ليرى مكانه ، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة فى القلوب ، وقد لا يشتهى الإنسان الحمد ، ولكنه يحذر من الذم كالجبان بين الشجعان ، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم ، وقد يفتى الإنسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل ، فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك إلى الرياء .

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع ، إما فى الحال أو المآل ، فإن علم أنه لذيذ فى الحال ضار فى المآل ، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة ، كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان أن فيه سماً ، أعرض

---

(١) البخارى فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد والسير : ١٥ ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا : حديث [٢٨١٠] ، ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة : ٤٢ ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا : حديث [١٩٠٤] ، والترمذى فى فضائل الجهاد [١٦٤٦] ، وأبو داود فى الجهاد رقم [٢٥١٧] والنسائى [٦ / ٤٣] ، وابن ماجة رقم [٢٧٨٣] فى الجهاد وأحمد فى المسند [٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥] .

عنه فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة ، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه ، ومن المنزلة فى الآخرة ، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزى ، هذا ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإنّ رضى الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ومن طلب رضاهم فى سخط الله ، سخط الله عليه وأسخطهم عليه ، ثم أى غرض له فى مدحهم وإيثار ذم الله لأجل مدحهم ؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته ، وكذلك ذمهم لم يحذر منه ؟ ولا يضره شيئاً ولا يُعَجِّل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، فإن العباد كلهم عجزة ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ، فإذا قرر هذا فى نفسه ، فترت رغبته فى الرياء ، وأقبل على الله تعالى بقلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه .

وأما الطمع فيما فى أيدى الناس : فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأنه لا رازق سواه ، ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد ، لم يخل من المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد .

ومن الدواء النافع : أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه دواء فى الرياء مثل إخفاء الأعمال ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة ، فإذا صبر عليه مدة بالتكليف ، سقط عنه ثقله ، وأمده الله بالعون ، فعلى العبد المجاهدة ، ومن الله التوفيق .

المقام الثانى : فى دفع العارض من الرياء أثناء العبادة ، وذلك لابد من تعلمه أيضاً فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس ، واحتقار مدحهم وذمهم ، فإن الشيطان لا يتركه فى ثناء العبادة ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها ، دفع ذلك بأن يقول : ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ، فأى فائدة فى علم غيره ؟

فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد ، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت ، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة .

فصل فى بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول : فاعلم أن فى إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدة الاقتداء ، وترغيب الناس فى الخير .

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد .

والمظهر للعمل ينبغى أن يراقب قلبه ، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفى ، بل ينوى الاقتداء به ،ولا ينبغى أن يخدع نفسه بذلك ، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم ، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك معهم .

فأما من قوى وتم إخلاصه ، وصغر الناس فى عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، فلا بأس بالإظهار له ، لأن الترغيب فى الخير خير .

وقد روى ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم ، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر : لا تبكوا علىّ ، فإنى ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت .

وقال أبو بكر بن عياش رحمه الله لابنه : إياك أن تعصى الله تعالى فى هذه الغرفة ، فإنى ختمت فيها اثنتى عشرة ألف ختمه .

ونحو ذلك كثير من كلامهم ، والله أعلم .

وأما الرخصة فى كتمان الذنوب فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء ، وليس كذلك فإن الصادق الذى لا برائى إذا وقعت منه معصية ، كان له سترها ، لأن الله يكره ظهور المعاصى ويحب سترها .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات ، فليستتر بستر الله عزوجل »[1] .

فهذا وإن عصى بالذنب ، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله عز وجل ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان .

وينبغى أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ، فهذا أثر الصدق فيه .

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له ، من حيث إن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم ، وبهذه العلة أيضاً ينبغى أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر ، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان .

فصل فى ترك الطاعات خوفاً من الرياء

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين فهذا ينبغى أن يترك ، لأنه معصية لا طاعة فيه .

وإن كان الباعث على ذلك الدين ، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً ، فلا ينبغى أن يترك العمل لأن الباعث الدين .

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال : إنه مراء ، فلا ينبغى ذلك ، لأنه من مكائد الشيطان .

---

(١) [صحيح]الحاكم فى « المستدرك » ٤/ ٢٤٤ و ٣٨٣ ، والبيهقى [٨/ ٣٣٠] والطحاوى فى مشكل الآثار [١/ ٢٠] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٤٩] .

قال إبراهيم النخعى : إذا أتاك الشيطان وأنت فى صلاة فقال : إنك مراء ، فزدها طولاً .

وأما ما روى عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء ، كما روى عن إبراهيم النخعى أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ فى المصحف ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال : لا يرانى هذا أنى أقرأ كل ساعة ،فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا .

فصل فى بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق و ما لا يصح

قد يبيت الرجل مع المتهجدين ، فيصلون أكثر الليل ، وعادته قيام ساعة فيوافقهم ، أو يصومون فيصوم ، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط .

فربما ظن ظان أن هذا رياء ، وليس كذلك على الإطلاق ، بل فيه تفصيل ، وهو أن كل مؤمن يرغب فى عبادة الله تعالى ، ولكن تعوقه العوائق ، وتستهويه الغفلة ، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لنزول الغفلة واندفاع العوائق ، فإن الإنسان إذا كان فى منزله تمكن من النوم على فراش وطىء وتمتع بزوجته ، فإذا بات فى مكان غريب اندفعت هذه الشواغل ، وحصلت له أسباب تبعث على الخير ، منها مشاهدة العابدين .

وقد يعسر عليه الصوم فى منزله لكثرة المطاعم ، بخلاف غيره ، ففى مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة ، ويقول : إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً ، فلا ينبغى أن يلتفت إليه ، وإنما ينبغى أن ينظر إلى قصده الباطن ، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان .

ويختبر أمره بأن يمثل القوم فى مكان يراهم ولا يرونه ، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله ، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء ، وقس على هذا .

فهذه جملة آفات الرياء ، فكن بحاثاً عنها ، وتفقد نيتك ، فإن الرياء أخفى من دبيب النمل .

وينبغى للمريد أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله فى جميع طاعته .

وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه ، ولا ينبغى أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ، وأنا من المخلطين ، فيترك المجاهدة فى تحصيل الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج .

قال إبراهيم بن أدهم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان ، دخلت على صومعته فقلت له : منذ كم أنت فى صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : ما طعامك ؟ قال : كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الذين بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتونى فى كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتى ويطوفون حولها يعظمونى بذلك ، فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ، ذكرتها عزّ تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفى جهد ساعة لعز الأبد ، فوقَّر فى قلبى المعرفة ، فقال : أزيدك ؟ قلت : نعم ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى إلىّ ركوة فيها عشرين حمصة، ثم قال لى : ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى فقالوا : يا حنيفى ، ما الذى أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : شيئاً من قوته ، قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به ، قالوا ساوم به ، قلت : عشرون ديناراً ، فأعطونى عشرين ديناراً ، فرجعت إلى الراهب ، فقال : أخطأت ، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك ، هذا عز من لا يعبده ، فانظر كيف يكون عز من يعبده ، يا حنيفى أقبل على عبادة ربك .

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عزّ العظمة فى القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة فهذه آفة عظيمة ، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره ، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله ، والله تعالى أعلم .

كتاب ذم الكبر والعجب

وهما فصلان :

الفصل الأول فى الكبر :

قال الله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾[الأعراف : ١٤٦] ، وقال : ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** ﴾ [النحل : ٢٣].

وفى الحديث الصحيح من أفراد مسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » (١) .

وفى « الصحيحين » عنه ﷺ قال : « قالت النار : أوثرت بالمتكبرين » (٢) .

وعنه ﷺ أنه قال : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صورة الذر ، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عزوجل » (٣) .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : من كانت معصيته فى شهوة ، فأرج له التوبة ، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له ، فإذا كانت معصيته من كبر ، فأخشى عليه اللعنة ، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعنَ .

وفى « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » فقال أبو بكر : يا رسول الله إنّ أحد شقى إزارى ليسترخى ، إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لست ممن يصنعه خيلاء » (٤) .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٩٨ ـ كتاب التوحيد : ٢٥ ـ باب ما جاء فى قول الله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » : حديث [٧٤٤٩] ، ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : ١٣ ـ باب النار يدخلها المتكبرون : حديث : [٢٨٤٦] والترمذى فى : الجنة : حديث [٢٥٦١] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٢٧٦ و ٣١٤ و ٤٥٠ .

(٣) [متفق عليه] البخارى فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبى : ٤ ـ باب فضل أبى بكر بعد النبى : حديث [٣٦٦٥] ، ومسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس : ٩ ـ باب تحريم جرّ الثوب خيلاء : حديث [٢٠٨٥]

(٤) [حسن] الترمذى فى صفة القيامة ، باب رقم ٤٨ حديث [٢٤٩٤] وقال : حديث حسن .

واعلم : أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هى ثمرته ، فيظهر على الجوارح ، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه ، يعنى يرى نفسه فوق الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً .

وبهذا ينفصل عن العجب ، فإن العجب لا يستدعى غير المعجب ، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه ، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام حقر من دونه وازدراه ، وصفة هذا المتكبر ، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً .

وآفة الكبر عظيمة ، وفيه يهلك الخواص ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء .

وكيف لا تعظم آفته ، وقد أخبر النبى ﷺ ، أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

وإنما صار حجاباً دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين ، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، فلا يقدر على التواضع ، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب ، ولا على كظم وقبول النصح ، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم . فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه .

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له .

وقد تحصل المعرفة للمتكبر ، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .
﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون : ٤٧]،﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وآيات نحو هذا ، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله .

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم ، وذلك

أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى ، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه فى السجود .

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال : « الكبر : بطر الحق وغمط الناس »(١) ومعنى غمط الناس : الازدراء بهم واستحقارهم ، ويرى : غمص الناس بمعنى غمط الناس .

فصل فى تقسيم آفات الكبر

واعلم : أن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون الكبر مستقراً فى قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، فهذا فى قلبه شجرة الكبر مغروسة ، إلا أنه قد قطع أغصانها .

الثانية : أن يظهر لك بأفعاله من الترفع فى المجالس ، والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر فى حقه ، فترى العالم يصعر خده للناس ، كأنه معرض عنهم ، والعابد يعيش كأنه مستقذر لهم ، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ ، حين قال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

الدرجة الثالثة : أن يظهر الكبر بلسانه ، كالدعاوى والمفاخر ، تزكية النفس ، وحكايات الأحوال فى معرض المفاخرة لغيره ، وكذلك التكبر بالنسب ، فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً .

قال ابن عباس : يقول الرجل للرجل : أنا أكرم منك ، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وكذلك التكبر بالمال ، الجمال ، والقوة ، وكثرة الأتباع ، ونحو ذلك ، فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم .

(١) سبق تخريجه .

والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء ، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة ، وذكر العيوب .

وأما التكبر بالأتباع والأنصار ، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود ، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين .

وفى الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً ، فإن لم يكن فى نفسه كمالاً ، أمكن أن يتكبر به ، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور ، لظنه أن ذلك كمال .

واعلم :أن التكبر فى شمائل الإنسان ، كصعر وجهه ، ونظره شزراً ، وإطراق رأسه ، وجلوسه متربعاً ومتكئاً ، وفى أقواله ، حتى فى صوته ونغمته ، وصيغة إيراده الكلام ، ويظهر ذلك أيضاً فى مشيه وتبختره ، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته .

ومن خصال المتكبر : أن يحب قيام الناس له .

والقيام على ضربين :

الأول : قيام على رأسه وهو قاعد ، فهذا منهى عنه ، قال رسول الله ﷺ : «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » [1] . وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين .

الثانى : قيام عند مجىء الإنسان ، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك .

قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم

---

(١) [صحيح]البخارى فى الأدب المفرد [٩٧٧] وأبو داود فى الأدب ، باب فى قيام الرجل للرجل حديث[٥٢٢٩] و الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب الأدب : ١٣ ـ باب ماجاء فى كراهية قيام الرجل للرجل : حديث [٢٧٥٥] ، وهو فى « صحيح الجامع» رقم [٥٩٥٧] .

يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك[١] .

وقد قال العلماء : يستحب القيام للوالدين والإمام العادل ، وفضلاء الناس ، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل ، فإذا تركه الإنسان فى حق من يصلح أن يفعل فى حقه ، لم يأمن أن ينسبه إلى أهانته ، والتقصير فى حقه ، فيوجب ذلك حقداً .

واستحباب هذا فى حق القائم لا يمنع الذى يقام له أن يكره ذلك ، ويرى أنه ليس بأهل لذلك .

ومن خصال المتكبر : أن لا يمشى إلا ومعه أحد يمشى خلفه .

ومنها : أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس .

ومنها : أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه .

وقد روى أنس رضى الله عنه قال : كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فتنطلق به فى حاجتها[٢] .

وقال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبى رواد ، وإن فخذى لتمس فخذه فنحيت نفسى عنه ، فأخذ ثيابى إليه وقال : لم تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة وإنى لا أعرف منكم رجلاً شراً منى ؟!

ومنها : أن لا يتعاطى بيده شغلاً فى بيته ، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ .

ومنها : أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته ، وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئاً

---

(١) [صحيح] البخارى فى « الأدب المفرد » [٩٤٦] وأحمد [٣/١٣٢] ، والترمذى فى الأدب رقم [٢٧٥٤] والطحاوى فى شكل الآثار [٢ / ٣٩] وهو فى الصحيحة رقم [٣٥٨] .

(٢) [ضعيف] رواه أحمد فى المسند [٣ / ١٧٤] ، وابن ماجة فى الزهد رقم [٤١٧٧] وفى إسناده على بن زيد بن جُدعان قال الحافظ فى التقريب : ضعيف .

وحمله ، وكان أبو بكر رضى الله عنه يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها ، واشترى عمر رضى الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته ، واشترى على رضى الله عنه تمراً فحمله فى ملحفة ، فقال له قائل : أحمل عنك ؟ قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

وأقبل أبو هريرة رضى الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب ، وهو يومئذ خليفة مروان ، فقال لرجل : أوسع الطريق للأمير .

ومن أراد أن ينفى الكبر ، ويستعمل التواضع ، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ ، وقد سبقت الإشارة إليها فى كتاب « آداب المعيشة » .

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم : أن الكبر من المهلكات ، ومداواته فرض عين ، ولك فى معالجته مقامان :

الأول : فى استئصال أصله وقطع شجرته ، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه ، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، ويكفيه أن ينظر فى أصل وجوده بعد العدم من تراب ، فمن من نطفة خرجت من مخرج البول ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فقد صار شيئاً مذكوراً ، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس ولا يتحرك ، فقد ابتدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبفقره قبل غناه .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله : ﴿**مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**﴾ [عبس : ١٨ ، ١٩] ، ثم امتن عليه بقوله : ﴿ **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** ﴾ [عبس : ٢٠] وبقوله : ﴿**فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان: ٣] فأحياه بعد الموت ، وأحسن تصويره ، وأخرجه إلى الدنيا ، فأشبعه وأرواه ، وكساه وهداه وقواه .

فمن هذا بدايته ، فأى وجه لكبره وفخره ؟

على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق ، بل قد سلط عليه •

الأخلاط المتضادة ، والأمراض الهائلة ، بينما بنيانه قد تم ، إذ هو قد وهى وتهدم، ولا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بينما هو يذكر الشيء فينساه ، ويستلذ الشيء فيرديه ، ويروم الشيء فلا يناله ، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة .

هذا أوسط حاله ، وذاك أول أمره ، وأما آخر أمره ، فالموت الذى يعده جماداً كما كان ، ثم يلقى فى التراب فيصير جيفة منتنة ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، ويأكل الدود أجزاءه ، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاءه المتفرقة ، ويحضر عرصة القيامة ، فيرى أرضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، وسماء منشقة ، ونجوماً منكدرة ، شمساً مكورة ، وأحوالاً مظلمة وجحيماً تزفر ، وصحائف تنشر ، ويقال له : ﴿ **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [الإسراء: ١٤] .

فيقول : وما كتابى ؟ فيقال : كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل ، من قليل وكثير ، وقيام وقعود ، وأكل وشرب ، وقد نسيت ذلك ، وأحصاه الله تعالى ، فهلم إلى الحساب عليه ، وأعد جواباً له ، وإلا فأنت تساق إلى النار ، فما لمن هذه حاله التكبر ؟ فإن صار إلى النار ، فالبهائم أحسن حالاً منه ، لأنها تعود إلى التراب ، ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه ، كيف يتكبر ؟! ومن الذى يسلم من ذنب يستحق به العقوبة ، وما كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجها ألف سوط ، فحبس فى السجن ليخرج فيعاقب ، وهو منتظر أن يدعى به لذلك ، أفتراه يتكبر على أهل السجن ؟ وهل الدنيا إلا سجن ، وهل المعاصى إلا موجبة للعقاب؟

وأما معرفة ربه ، فيكفيه أن ينظر فى آثار قدرته وعجائب صنعته ، فتلوح له العظمة ، وتظهر له المعرفة ، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر .

ومن العلاج العملى التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده ، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين ، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ﷺ، وما

كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة .

المقام الثانى : فيما يعرض من التكبر بالأنساب ، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب ، فليعلم أن هذه تعزز بكمال غيره ، ثم يعلم أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وأباه البعيد تراب ، ومن اعتراه الكبر بالجمال ، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم ، ومن اعتراه من جهة القوة ، فليعلم أنه لو آله عرق ، عاد أعجز من كل عاجز ، وإن حمى يوم تُحَلِّلُ من قوته ما لا يعود فى مدة ، وإن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته ، وبقة لو دخلت فى أذنه لأقلقته .

ومن تكبر بسبب الغنى ، فإذا تأمل خلقاً من اليهود ، وجدهم أغنى منه ، فأفٍّ لشرف تسبق به اليهود ، ويستلبه السارق فى لحظة ، فيعود صاحبه ذليلاً .

ومن تكبر بسبب العلم ، فليعلم أن حجة الله على العالم أكد من الجاهل ، وليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره .

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق إلا بالله سبحانه ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده . وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وكذلك كل سبب يعالجة بنقيضه ويستعمل التواضع .

واعلم : أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط :

فطرفه الذى يميل إلى الزيادة تكبراً .

وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة .

والوسط يسمى تواضعاً ، وهو المحمود ، وهو أن يتواضع من غير مذلة ، فخير الأمور أوسطها ، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر ، ومن تأخر عنهم ، فهو متواضع ، لأنه قد وضع شيئاً من قدره ، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه ، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب ،

فقد تخاسس وتذلل ، فذلك غير محمود ، بل المحمود العدل ، وهو أن يعطى كل ذى حق حقه ، ولكن تواضعه للسوقة بالرفق فى السؤال واللين فى الكلام ، وإجابة الدعوة ، والسعى فى الحاجة ، ولا يحقره ، ولايستصغره ، والله أعلم .

الفصل الثانى فى العجب

روى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (١) .

وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهو متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٢) .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الهلاك فى شيئين : العجب والقنوط ، و إنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير ، والقانط لا يطلب ، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى .

قال مطرف رحمه الله : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحب إلىّ من أن أبيت قائماً ، وأصبح معجباً .

واعلم : أن العجب يدعو إلى الكبر ، لأنه أحد أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة ، وهذ مع الخلق .

فأما مع الخالق ، فأن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها ، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها ، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها .

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها .

---

(١) البخارى فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس : ٥ ـ باب من جرثوبه من الخيلاء : حديث [٥٧٨٩] . ومسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس : ١٠ ـ باب تحريم التبختر فى المشى : حديث [٢٠٨٨] ، والترمذى فى : القيامة [٢٤٩١] ، والنسائى فى : الزينة : باب التغليظ فى الإزار : حديث [١] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٦٦ و ٢٢٢ و ٢٦٧ .

(٢) سبق تخريجه .

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً ، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به والإدلال يوجب توقع الجزاء ، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .

فصل فى علاج العجب

اعلم : أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك ، فلا معنى لعجب عامل بعمله ، ولا عالم بعلمه ، ولا جميل بجماله ، ولا غنى بغناه ، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى ، وإنما الآدمى محل لفيض النعم عليه ، وكونه محلا له نعمة أخرى .

فإن قلت : إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك ، وكل ذلك من الله تعالى لا منك ، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه ، وهذا المفتاح بيد الله تعالى ، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تعطى مفتاحها .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »[1] .

واعلم : أن العجب يكون بالأسباب التى بها يقع الكبر ، وقد سبق ذكرها وعلاجها .

ومن ذلك العجب بالنسب ، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه ، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل ، وإن

(١) البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل : حديث [٦٤٦٣]، ومسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين : ١٧ ـ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله : حديث [٢٨١٦]، والنسائى [٨/ ١٢١] ، وأحمد فى « مسنده » ٢/ ٢٦٤ .

اقتدى بهم ، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم ، بل الخوف والإزراء على النفس .

وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة ، لا بنفس النسب ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال النبى ﷺ : « **يا فاطمة ، لا أغنى عنك من الله سيئاً** »[١] .

فإن قلت : إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته .

فالجواب : أن كل المسلمين يرجون الشفاعة ، وقد يشفع فى الشخص بعد إحراقه بالنار ، وقد يقوى الذنب فلا تنجى الشفاعة .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك** »[٢] .

ومثل المنهمك فى الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة ، كمثل المريض المنهمك فى الشهوات ، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق ، وذلك جهل ، فإن اجتهادالطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها .

ويوضح هذا أن سادات الصحابه رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة ، فكيف يتكل من ليس فى مثل مراتبهم ؟!

ومن ذلك العجب بالرأى الخطأ ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ [فاطر : ٨] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) البخارى فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد والسير : ١٨٩ ـ باب الغلول : حديث [٣٠٧٣] . ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة : ٦ ـ باب غلظ تحريم الغلول : حديث [١٨٣١] ، وأبو داود فى : الإمارة : حديث [٢٩٤٦] ، والنسائى فى : الزكاة : باب مانع الزكاة : حديث [١] ، والدارمى فى : الزكاة : حديث [١٦٦٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٤٢٦ و ٥ / ٢٢٧ و ٢٨٥ .

وعلاج هذا أشد من علاج غيره ، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح ، وكيف يترك ما يعتقده نجاة ؟! وإنما فى الجملة أن يكون متهماً لرأية أبداً، لا يغتر به ، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة أو دليل عقلى جامع لشروط الأدلة ، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة .

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر فى العلم أن لايخوض فى المذاهب ولكن يقف عند اعتقاد الجمل ، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وإن رسوله صادق فيماجاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير ، ويصرف زمنه فى التقوى ، وأداء الطاعات ، فمتى خاض فى المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته ، هلك .

كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته

ومن الناس من غرته الدنيا ، فقال : النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، و الآخرة نسيئة وهذا محل التلبيس ، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة ، إلا إذا كان مثل النسيئة ، ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس ، وإنما أراد من قال : النقد خير من النسيئة ، إذا كانت النسيئة مثل النقد ، وهذا غرور الكفار .

فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم ، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور ، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار ، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد .

ومن العصاة من يغتر ، فيقول : إن الله كريم ، وإنما نتكل على عفوه ، وربما اغتروا بصلاح آبائهم .

وقد قال العلماء : من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا الغفران مع الإصرار ، فهو مغرور .

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب ، وقد قضى بتخليد الكفار في النار ، مع أنه لا يضره كفرهم ، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا ، وهو سبحانه قادر على إزالتها ، ثم خوفنا من عقابه ، فكيف لا نخاف ؟!

فالخوف والرجا سائقان يبعثان على العمل ، وما لا يبعث على العمل فهو غرور **ويوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة ، وإيثار المعاصي** .

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا ، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا ، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون .

ولو كان الأمر يدرك بالمنى ، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم ؟! وهل ذم

أهل الكتاب بقوله : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾[الأعراف:١٦٩] إلا لمثل هذا الحال ؟!

وأما من اغتر بصلاح آبائه ، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه ، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ومحمد مع أمه ﷺ وعلى سائر النبيين .

ويقرب من هذا الغرور ، غرور أقوام لهم طاعات ومعاص ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح ، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغصب أضعاف ذلك ، ولعل الذى تصدق به من المغصوب ، ويتكل على تلك الصدقة ، وما هو إلا كمن وضع درهماً فى كفة وألفاً فى أخرى ، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف .

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته ، ولا يحاسب نفسه على سيئاته ، ولا يتفقد ذنوبه ، كالذى يستغفر الله ويسبحه مائة مرة فى اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين ، ويتكلم بما لا يرضى ، فهو ينظر فى فضائل التسبيح والاستغفار ، ولا ينظر فى عقوبة الغيبة والكلام المنهى عنه .

فصل الاغترار واقع بالعلماء والعباد

ويقع الاغترار فى الأغلب فى حق أربعة أصناف :

العلماء ، والعباد ، والمتصوفة ، والأغنياء .

الصنف الأول : العلماء

فأما أهل العلم ، فالمغترون منهم فرق :

منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم من الله بمكان ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة ، علموا أن المعاملة لا يراد بها ؟ إلا العمل ، ولولا العمل لم يكن له قدر . قال الله تعالى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، ولم يقل : قد

أفلح من تعلم كيف يزكيها ، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم ، فليذكر ما ورد فى العالم الفاجر ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[الأعراف : ١٧٦] ، ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[الجمعة : ٥] .

ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر ، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها ، كالكبر والحسد والرياء ، وطلب العلو ، وطلب الشهرة ، فهؤلاء زينوا ظاهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] .

فتعاهدوا الأعمال ، ولم يتعاهدوا القلوب ، والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً ، فنبت معه حشيش يفسده ، فأمر بقلعه ، فأخذ يجز رءوسه وأطرافه ويترك أصوله ، فلم تزل أصوله تقوى .

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة ، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم ، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة .

قال أحدهم :ما هذا بكبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، وإرغام المبتدعين ، فإنى لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، شمتت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلى ، وفى ذلى ذل الإسلام ، وينسى الغرور ، وأن أبليس هو الذى سول له هذا بدليل أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة .

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة ، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس حديث [٢٥٦٣] ، وابن ماجة فى الزهد رقم [٤١٤٣] وأحمد فى المسند [٢\٢٨٥] وهو فى صحيح الجامع [١٨٦٢] .

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ، ونزع خفيه وأمسكهما ، وخاض الماء ، ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليوم عظيماً عند أهل الأرض ، فصك فى صدره وقال : أوه ! لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل وأحقر الناس ، فأعزكم الله برسوله ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله .

وفى رواية عنه : لما قدم الشام ، واستقبله الناس وهو على بعيره . فقيل له : لو ركبت برذوناً تلقى به عظماء وجههم ؟ فقال عمر رضى الله عنه : لا أراكم ها هنا - إنما الأمر من ها هنا وأشار بيده إلى السماء - خلوا سبيل جملى .

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدين بالثياب الرفيعة ، والخيول الفارهة ونحو ذلك ، وإذا خطر له الرياء قال : إنما غرضى بهذا إظهار العلم والعمل ، لاقتداء الناس بى ليهتدوا إلى الدين ، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان ، وكذلك من يدخل منهم على سلطان ، ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ويقول : إنما غرضى بهذا أن أشفع فى مسلم أوأدفع عنه الضرر ، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك .

وقد ينتهى غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام،ويقول : هذا مال لا مالك له ، وهو لمصالح المسلمين ، وأنت إمام من أئمتهم ، فَيَغْتر بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه ، وربما كان دجالاً من الدجالين من جهة قوله : هذا مال لا مالك له .

وغاية الأمر وقوع الاختلاط فى الأموال ، وذلك لا يمنع كونها حراماً ، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال .

وفرقة أخرى أحكموا العلم ، وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات ، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك ، ولكن بقيت فى زوايا القلب

خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها ، فترى أحدهم يسهر ليله وينصب نهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها ، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى ، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت ، ولعله لا يخلو فى تصنيفه من الثناء على نفسه ، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة ، وإما ضمناً بالطعن فى غيره ليبين فى طعنه فى غيره أنه أفضل من ذلك الغير وأعظم منه علماً . فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التى لا يفطن لها إلا الأكياس الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويحرص على صلاحها .

ومن سرته حسنته وساءته سيئته ، فهو مرجو أمره ، بخلاف من يزكى نفسه ويظن أنه من خيار الخلق . فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم .

فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش ، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصى من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل ، والمشى إلى ما لا يجوز ، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات ، فهؤلاء مغرورن من وجهين : أحدهما من حيث العمل . والآخر من حيث العلم .

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك ، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وجعل يكرر ذلك ، وذلك غاية الغرور .

وسبب غروره ما سمع فى النقل من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى .

وقد قال الله تعالى : ﴿ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، والذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال ، ودفع القتل والجراحات والمال فى طريق الله تعالى آلة ، والبدن مركب .

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التى هى من الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى .

ومثال من اقتصر على ذلك . كمثل من اقتصر سلوك الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك أنه لابد من ذلك ، ولكن ليس من الحج فى شىء .

ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف ، ولم يهمه إلا طريق المجادلة ، والإلزام والإفحام ، ودفع الحق لأجل الغلبة ، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم ، وجميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف .

وأما أدلة الأحكام : فيشتمل عليها علم المذهب ، وهى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وأما حيل الجدل ، من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب ، والتغذية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام .

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين .

ثم هؤلاء طائفتان : ضالة ، ومحقة ، فالضالة التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة التى تدعو إلى السنة ، والغرور شامل لجميعهم .

أما الضالة : **فاغترارها ظاهر** ، **وأما المحقة فاغترارها من حيث إنها ظنت أن** الجدال أهم الأمور ، وأفضل القربات فى دين الله تعالى ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل ، فليس بكامل الإيمان ، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم فى تعلم الجدل والبحث عن المقالات

وعميت بصائرهم ، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول ، وأن النبى ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى ، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات ، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم ، وجوارحهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال ، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة جدل .

وقد روى فى الحديث : « ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل » (١) .

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص ، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها ، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه ، فهم أعظم الناس غرة .

ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب فى الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب .

ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن يكثر الصياح فى مجالسهم والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس .

ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم فى سماع الحديث ، وجمع رواياته ، وأسانيده الغريبة والعالية ، فَهَمُّ أحدهم أن يدور البلاد ، ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروى عن فلان ولقيت فلاناً ، ولى من الإسناد ما ليس لغيرى .

ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وزعموا أنهم علماء الأمة ، وأذهبوا أعمارهم فى دقائق النحو واللغة ، ولو عقلوا لعلموا أن مضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع عمره فى معرفة لغة الترك ، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل

(١) [حسن] الترمذى فى : ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن : ٤٤ ـ باب ومن سورة الزخرف : حديث [٣٢٥٣] ، ابن ماجة فى المقدمة رقم [٤٨] والحاكم [٢ / ٤٤٧ ، ٤٤٨] وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٢٥٢ و ٢٥٦ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٥٦٣٣] .

ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبين : غريب القرآن ، والحديث، من النحو ما يقوم به اللسان .

فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى ، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم .

ومثال التعمق فى ذلك ، مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن ، مقتصراً على ذلك ، وذلك غرور ، لأن المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى شرب السكنجبين لإزالة الصفراء ، فضيع عمره فى تحسين القدح الذى يشرب فيه ، فهو مغرور ، والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لا غير ، وتجاوز إلى العمل ، واجتهد فيه وفى تصفيته من الشوائب ، فهذا هوالمقصود .

وفرقة أخرى عظم غرورهم ، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق ، وظنوا أن ذلك ينفعهم ، بل ذلك غرور ، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى .

وكذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول لزوجته ، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة ، ونحو ذلك من أنواع الحيل .

الصنف الثانى : أرباب التعبد والعمل وهم فرق :

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل ، وربما تعمقوا فى استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة فى الوضوء ، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً ، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة فى التنجس ، ولا يقدر ذلك فى مطعمه ، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم ، لكان أشبه بسير السلف ، فإن عمر رضى الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع فى الحرام .

وقد صح أن النبى ﷺ توضأ من مزادة مشركة .

ثم منهم من يخرج إلى الإسراف فى الماء ، ويطول به الأمر ، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها .

ومنهم من غلبت عليه الوسوسة فى تكبيرة الإحرام فى الصلاة ، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام .

ومنهم من يتوسوس فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة ، ونحو ذلك ، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه ، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به ، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف فى تلاوة القرآن الكريم إلا ما جرت به العادة فى الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان ، فأخذ يؤدى الرسالة بالتأنق فى مخارج الحروف وتكراره ، وهو غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بالطرد والتأديب .

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن ، فهم يهذونه هذّاً وربما ختموا فى اليوم مرتين ، فلسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى ، ولا يتفكر فى معانى القرآن ولا يتعظ بمواعظه ، ولا يقف عند أوامره ونواهيه ، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط .

ومثال ذلك : مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ، بل اقتصر على حفظه وتكراره ، ظاناً أن ذلك هو المراد منه ، مع مخالفة أمر مولاه ونهيه .

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن ، معرضاً عن معانيه ، فينبغى أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم ، أو بالصوت ، أو المعانى .

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه ، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة

والفضول ، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار ، ولا خواطرهم عن الرياء .

ومنهم من اغتر بالحج ، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم ، وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج ، ويضيعون فى الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ولا يحترزون من الرفث والخصام ، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون .

وفرقة أخرى أخذوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونسوا أنفسهم .

ومنهم من يؤم فى مسجد ، ولو تقدم عليه أروع منه وأعلم ، ثقل عليه .

ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله ، ولو أذن غيره فى غيبته ، اشتد عليه ذلك وقال : قد زاحمنى فى مرتبتى .

ومنهم من يجاور بمكة أو المدينة وقلبه متعلق ببلاده ، وقول الناس : فلان مجاور بمكة أو المدينة ، ثم إنه يجاور ويطمع فى أوساخ الناس ، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات . وما من عمل إلا وفيه آفات ، فمن لم يعرفها وقع فيها ، ومن أراد أن يعرفها ، فلينظر فى كتابنا هذا ، فبينظر فى آفات الرياء الحاصل فى العبادات من الصوم والصلاة وفى جميع القربات فى الأبواب المرتبة فى هذا الكتاب ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق .

وفرقة أخرى زهدت فى المال ، وقنعت بالدون من اللباس والطعام ، وقنعت من المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهم مع هذا شديدو الرغبة فى الرياسة والجاه ، فقد تركوا أهون الأمرين وباءوا بأعظم المهلكين .

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ، ولم تعن بالفرائض ، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ، ولا يجد للفريضة لذة ، ولا يحرص على المبادرة إليها فى أول الوقت ، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزوجل : « ما تقرب المتقربون

إلىّ بمثل ما افترضت عليهم »[(١)] .

الصنف الثالث : المتصوفة

والمغرورن منهم فرق :

فرقة منهم اغتروا بالزى والنطق والهيئة ، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر ولم يتعبوا أنفسهم فى المجاهدة والرياضة ، ثم هم يتكلمون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا فى غرض ، وهؤلاء غرورهم ظاهر .

ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم فى الديوان ، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض ، فاشتاقت نفسها إلى ذلك فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعلمت زيهم وجميع شمائلهم ، ثم توجهت إلى العسكر فكتب اسمها فى ديوان الشجعان فلما حضرت فى ديوان العرض ، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة ، فلما جردت إذا هى عجوز ضعيفة زمنة فقيل لها : جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته ، خذوها ألقوها بين أيدى الفيل ، فألقيت إليه .

فهكذا يكون حال المدعين التصوف فى القيامة إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذى ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزى .

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاوزة المقامات والأحوال والوصول إلى القرب ، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء ، فترى أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء ، فضلاً عن العوام ، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة : ويردها كأنه يتكلم

(١) [صحيح] البخارى فى : ٨١ كتاب الرقاق : ٣٨ ـ باب التواضع : حديث [٦٥٠٢] ، وأحمد فى « مسنده » ٦ / ٢٥٦

عن الوحى ويحتقر في ذلك العلماء والعباد ، ويقول : إنهم محجوبون عن الله ، وإنه هو الواصل إلى الحق ، وإنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يحكم علما ولم يهذب خلقاً ، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان .

وفرقة منهم طووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام وبعضهم يقول : إن الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى ؟

وبعضهم يقول : لا قدر للأعمال بالجوارح ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى ، وواصلة إلى معرفته ، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربانية ، فنحن مع الشهوات لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها ، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء ، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين .

وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى ، وكل ذلك أغاليط ووساوس ، خدعهم الشيطان بها ، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به .

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق ، واشتغلوا بالمجاهدة ، وابتدأوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة ، فلما استنشقوا مبادئ ريح المعرفة ، تعجبوا منها ، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية ، ولو وقف مع كل أعجوبة تقيد بها ، قصرت خطاه وحرم الوصل إلى القصد ، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً ، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها ، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك .

الصنف الرابع : أرباب الأموال وهم فرق :

وهم فرق :

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم ، ويبق بعد الموت أثرهم ، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه فى الموضوع الذى أنفق عليه لشق عليه ، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله لما شق عليه ذلك ، فإن الله يطلع عليه ، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه .

وبعضهم يصرف المال فى زخرفة المسجد ، وتزيينه بالنقوش التى هى منهى عنها وشاغله للمصلين ، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين .

فأما إن كان المال الذى صرفه فى ذلك حراماً ، كان أشد فى الغرور .

قال مالك بن دينار رحمه الله : أتى رجل مسجداً ، فوقف على الباب وقال : مثلى لا يدخل بيت الله ، فكتب فى مكانه صديقاً .

فبهذا ينبغى أن تعظم المساجد ، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد ، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام ، أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى ، فغرور هذا من حيث إنه يرى المنكر معروفاً .

وفرقة أخرى يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا تحتاج إلى نفقة المال ، كالصيام والصلاة وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل مهلك ، وقد استولى على قلوبهم ، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم .

ومثالهم مثال من دخلت فى ثوبه حيّة ، فاشتغل عنها بطبخ السكنجبين لتسكن به الصفراء .

ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط ، فيخرج الردىء من المال ، أو

يعطى من الفقراء من يخدمه ، ويتردد فى حاجاته ، أو من يحتاج إليه فى المستقبل أو من له فيه غرض .

ومنهم من يسلم ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه ، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه ، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور ، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره .

وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم ، اغتروا بحضور مجالس الذكر ، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاظ ، وليس كذلك ، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً فى الخير ، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له ، وربما سمع أحدهم التخويف ، فلا يزيد على قوله : يا سلام سلم ، أو أعوذ بالله ، ويظن أنه قد أتى المقصود .

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ، ثم ينصرف فلا يغنى ذلك عنه . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها ، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك ، فهو حجة عليك .

فإن قيل : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه .

فالجواب : أن مدار أمر الآخرة على معنىً واحد ، وهو تقويم القلب ، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته ، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها ، وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان .

ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء :

العقل : وهو النور الأصلى الذى يدرك به الإنسان حقائق الأشياء .

والمعرفة التى يعرف بها الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته .

وفى كتاب المحبة : وشرح عجائب القلب ، والتفكر ، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس ، ووصف جلال الله سبحانه .

ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر فى كتاب « ذم الدنيا » وكتاب « ذكر الموت » فإذا حصلت هذه المعارف ، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها ، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى ، وينفعه فى الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب، صحت نيته فى الأمور كلها ، واندفع عنه كل غرور .

فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه ، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم ، ونعنى به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها ، والعلم بما يقربه ويهديه ، وجميع ذلك فى كتابنا هذا .

فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج إليه ، وما هو مستغن عنه ، ويتأدب بأدب الشرع .

ويعرف من ربع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى ، وهى الصفات المذمومة فى الخلق .

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لابد أن توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها ، فإذا أحاط بجميع ذلك ، أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور ، والله أعلم .

وإذا فعل جميع ذلك ينبغى أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى .

ولذلك قيل : والمخلصون على خطر عظيم .

وقال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت : فُتَّنى . فقال : **لا بعدُ** .

فلا ينبغى أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً .

نسأل الله تعالى السلامة من الغرور ، وحسن الخاتمة ، إنه قريب مجيب .

آخر الغرور . وبه تمّ ربع المهلكات ، ونشرع الآن فى ربع المنجيات .

الربع الرابع

ربع المنجيات

كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم : أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب .

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع .

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١] ، وقال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** ﴾ [التحريم : ٨] ، وقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[البقرة : ٢٢٢]

وقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة »(١) .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى الموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »(٢) .

(١) [صحيح] مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء : ١٢ ـ باب استحباب الاستغفار : حديث [٢٧٠٢/ ٤٢] ، وأحمد فى المسند [٤ / ٢١١] وأبو داود فى الصلاة رقم [١٥١٥] .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات : ٤ ـ باب التوبة : حديث [٦٣٠٨] ، ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة : ١ ـ باب فى الحض على التوبة : حديث [٢٧٤٧] ، والترمذى فى صفة القيامة [٢٤٩٨] ، وابن ماجه فى : الزهد : حديث [٤٢٤٩] ، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٨٣ .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها على الفور .

والتوبة واجبه على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، ولو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك ، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلابد منه .

ولهذا قال النبى ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » [١]، وكذلك أكرمه الله تعالى بقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[الفتح : ٢] ، فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾[الشورى : ٢٥] .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » [٢] والأحاديث فى ذلك كثيرة .

فصل فى بيان أقسام الذنوب

اعلم : أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة ، ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات :

---

(١) [صحيح]الترمذى فى : ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن : ٤٧ ـ باب « ومن سورة محمد » حديث [٣٢٥٩] ، وابن ماجة فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب : ٥٧ ـ باب الاستغفار : حديث [٣٨١٦] ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٢٤٨٣] .

(٢) [حسن]الترمذى فى : ٤٩ ـ كتاب الدعوات : ٩٩ ـ باب فى فضل التوبة : حديث [٣٥٣٧]، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ١٣٢ ، والحاكم [٤ / ٢٥٧] وأبو نعيم فى الحلية [٥ / ١٩] ، وابن ماجة فى الزهد رقم [٤٢٥٣] ، وابن حبان فى صحيحه [٢٤٤٩ موارد].

أحدها : صفات ربوبية ، ومنها يحدث الكبر والفخر ، وحب المدح والثناء ، والعز وطلب الاستعلاء ، ونحو ذلك ،وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها ، فلا يعدها ذنوباً .

الثانية : صفات شيطانية ، ومنها يتشعب الحسد ، والبغى والحيل والخداع والمكر ، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك .

الثالثة : الصفات البهيمية ، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات .

الرابعة : الصفات السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالقتل والضرب ، وأخذ الأموال ،وهذه الصفات لها تدرج فى الفطرة .

فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولاً . ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، فإذا اجتمعت هاتان استعملتا ا العقل فى الصفات الشيطانية ، من المكر والخداع والحيل ، ثم تغلب الصفات الربوبية .

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح ، فبعضها فى القلب ، كالفكر ، والبدعة ،والنفاق ، وإضمار السوء ، وبعضها فى العين، وبعضها فى السمع ، وبعضها فى اللسان ، وبعضها فى البطن والفرج ،وبعضها فى اليدين والرجلين و بعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك ، فإنه واضح ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين،وإلى ما بين العبد وبين ربه .

فما يتعلق بحقوق العباد ، فالأمر فيه أغلظ ، والذى بين العبد وبين ربه ، فالعفو فيه أرجى وأقرب ، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله ، فذلك الذى لا يغفر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدواوين

عند الله عزوجل ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله . أما الديوان الذى لا يغفره الله تعالى ، فالشرك ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة : ٧٢] . أما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عزوجل ، يغفر ذلك ، ويتجاوز إن شاء . أما الديوان الذى لا يترك منه شيئاً ، فظلم العباد بعضهم بعض ، فالقصاص لا محالة » [(١)].

قسمة أخرى :

اعلم : أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر الاختلاف فيها ، واختلفت الأحاديث فى عدد الكبائر .

والأحاديث الصحاح فى ذكرها خمسة :

الأول : حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » [(٢)].

الثانى : حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، سئل أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : ثم أى؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » [(٣)].

(١) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٦ / ٢٤٠ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٣٠٢٢] .
(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا : ٢٣ ـ باب قول الله « إن الذين يأكلون أموال الناس » حديث [٢٧٦٦] ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٣٨ ـ باب بيان الكبائر وأكبرها : حديث [٨٩]، وأبو داود فى : الوصايا : حديث [٢٨٧٤] ، والنسائى فى : الوصايا : باب اجتناب أكل مال اليتيم : حديث [١].
(٣) [متفق عليه] البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن : ٢ ـ باب قوله « والذين يدعون مع الله إلهاً آخر » : حديث [٤٧٦١]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٣٧ ـ باب كون الشرك أقبح الذنوب : حديث [٨٦] ، وأبو داود فى النكاح [٢٣١٠] والنسائى [٧ / ٨٩].

الثالث : حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ قال : «الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » [(١)].

الرابع : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور» أو قال : « شهادة الزور » [(٢)].

الخامس : حديث أبى بكرة أن النبى ﷺ ذكرت عنده الكبائر قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس ، فقال : «ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [(٣)].

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة ، والأحاديث فى الكبائر لا تدل على حصرها فيها ، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب ، ولكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر ، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر .

فروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : هى أربع .

فأما أصغر الصغائر ، فلا سبيل إلى معرفته ، وقد تكلم العلماء فى عدد الكبائر ، وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : هى سبع .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر : إنها سبع ، قال : هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : هى ما أوجب الحد فى الدنيا .

وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قوله : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾ [النساء : ٣١] .

---

(١) [صحيح] البخارى فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور : ١٦ ـ باب اليمين الغموس : حديث [٦٦٧٥] ، والترمذى فى : ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن : ٥ ـ باب « ومن سورة النساء » حديث [٣٠٢١] ، والنسائى فى : تحريم الدم : باب ذكر الكبائر : حديث [٢] ، والدارمى فى : الديات : حديث [٢٣٦٠] ، وأحمد فى « مسنده» ٢ / ٢٠١ .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٦ ـ باب عقوق الوالدين من الكبائر : حديث [٥٩٧٦] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٣٨ ـ باب بيان الكبائر وأكبرها : حديث [٨٧] ، وأحمد فى «مسنده» ٣ / ١٣١ و ٥ / ٣٦ و ٣٨ .

(٣) انظر تخريج الحديث السابق .

وقال سعيد بن جبير وغيره : هى كل ذنب أوعد الله عليه النار .

وقال أبو طالب المكى : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار ، أربعة فى القلب : الشرك ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربعة فى اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، اليمين الغموس ، والسحر .

وثلاثة فى البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا .

واثنتان فى الفرج : الزنا واللواطة .

واثنتان فى اليدين : القتل والسرقة .

وواحدة فى الرجلين : الفرار من الزحف .

وواحدة فى جميع البدن : وهى عقوق الوالدين .

وهذا يمكن أن يزاد عليه ، وينقص منه ، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم .

فصل فى كيفية توزيع الدرجات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم : أن الناس يتفاوتون فى الآخرة ، كما يتفاوتون فى الدنيا ، وينقسمون إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين .

ومثال ذلك أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعض أهله ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويخلى بعضهم ، فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون .

وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، ولا يقتل إلا جاحداً

لاستحقاق الملك ، معانداً له فى أصل الولاية ، ولا يعذب إلا من قصرّ فى خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلى إلا معترفاً له بالملك ، ولم يقصر ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون فى النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم ، ويشهد لذلك ما ورد فى الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف (١) ، ومنهم من يبقى فى النار سبعة آلاف سنة (٢) ، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير .

وأما اختلاف العذاب بالشدة ، فلا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ، ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب .

وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك فى النعيم ، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة .

فأما من جهة التفصيل ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها ، فيشبه أن يعفى عنه ، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر .

وهذا إما أن يلتحق بالمقربين ، أو بأصحاب اليمين ، وذلك بحسب إيمانه ويقينه ، فإن قل أو ضعف ، دنت منزلته ، وإن كثر وقوى ، علت منزلته .

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ، ودرجات العارفين فى المعرفة لا تنحصر ، لأن بحر المعرفة لا ساحل له ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، فأعلى درجات أصحاب اليمين ، أدنى درجات المقربين ، وهذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض .

(١) البخارى فى التوحيد ، باب قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » حديث [٧٤٣٩] ، ومسلم فى الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية حديث [١٨٣] .
(٢) قال الحافظ العراقى فى « المغنى » [٤ / ٢٤] أخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

فأما من ارتكب كبيرة ، أو أهمل أركان الإسلام ، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذى لم يتسخ أصلاً .

فأما إن مات قبل التوبة : فأمره خطر ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة

ثم إن عذاب الميت من غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار ، ثم ينزل البله المقلدون الجنة ، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين ، وما ذكرناه من مراتب العباد فى المعاد حكم ظاهر الأسباب ، ويضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ، ولا يقبل إصلاح العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف ، وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب غالباً ، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حبث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية ، وفى أرواح الأحياء غموض للأسباب التى رتبها المسبب ، وليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها وكذلك الفوز والهلاك فى الآخرة لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، وكذلك يجوز العفو عن المعاصى وإن كثرت سيئاته ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب ، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه ، فكيف على غيره ؟

وأما الناجون : ونعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين ، وأولاد الكفار ، والذين لم تبلغهم الدعوة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، ويصلح أن يكونوا على الأعراف .

وأما الفائزون : فهم العارفون ، وهم المقربون والسابقون ، وهؤلاء الذين لا

تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وليس حرصهم على الجنة ، بل على لقاء الله سبحانه وتعالى والنظر إليه .

ومثالهم مثال المحب ، فإنه فى تلك الحال غافل عن نفسه ، ولا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ولا همّ له سوى محبوبه ، فهؤلاء الواصلون إلى قرّة أعين ، ولا تخطر على قلب بشر ، فهذا القدر كاف فى بيان توزيع الدرجات على الحسنات .

فصل فى بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم : أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة .

وفى الحديث من رواية ابن عباس رضى الله عنه ، عن النبىﷺ أنه قال : « **لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار** »[١] .

واعلم : أن العفو عن الكبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها ، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد .

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات ، فإنها تؤثر فيه ، ولو جمعت تلك القطرات فى مرة وصبت عليه لم تؤثر ، ولهذا قالﷺ : « **أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل** »[٢] .

ومن الأسباب التى تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب ، فإن الذنب كلما استعظمه العبد ، صغر عند الله تعالى ، وكلما استصغره العبد ، كبر عند الله تعالى ، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، أخرجاه فى « الصحيحين »[٣] .

---

(١)[ضعيف] أورده فى « كنز العمال » رقم [١٠٢٣٨] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٦٣٠٨] .
(٢) سبق تخريجه
(٣) البخارى فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات : ٤ ـ باب التوبة : حديث [٦٣٠٨]، والترمذى فى : ٣٨ـ كتاب صفة القيامة : ٤٩ ـ باب حدثنا هناد : حديث [٢٤٩٧]، وأحمد فى « مسنده » ١/ ٣٨٣ .

وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى ، فإذا نظر إلى عظمة من عصى ، رأى الصغيرة كبيرة .

وفى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه : « **إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات** » [1] .

وقال بلال بن سعد رحمه الله : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت .

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها ، كما يقول : أما رأيتنى كيف مزّقت عرض فلان ، وذكرت مساوئه حتى خجلته ، أو يقول التاجر : أما رأيت كيف روجيت عليه الزائف ، وكيف خدعته وغبنته ، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر .

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها أن يأتى بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره ، وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « **كل أمتى معافىً إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يا فلان : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله عليه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه** » [2] .

ومنها : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به ، فإذا علم منه الذنب ، كبر ذنبه ، كلبسه الحرير ، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى

---

(١) البخارى فى : ٨١ـ كتاب الرقاق : ٣٢ـ باب مايتقى من محقرات الذنوب : حديث [٦٤٩٢]، والدارمى فى : الرقاق : حديث [٢٧٦٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٣/ ٣ و ١٥٧ و ٢٨٥ .

(٢) البخارى فى : ٧٨ـ كتاب الأدب : ٦٠ـ باب ستر المؤمن على نفسه حديث [٦٠٦٩] ، ومسلم فى : ٥٣ـ كتاب الزهد والرقائق : ٨ـ باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه : حديث [٢٩٩٠] .

الأعراض ، ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً فى العالم ، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه .

وفى الحديث : « ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »(١) .

فعلى العالم وظيفتان :

إحداهما : ترك الذنب ، والثانية : إخفاؤه إذا أتاه .

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتبعوا على الذنوب ، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا على الخير .

وينبغى للعالم أن يتوسط فى ملبسه ونفقته ، وليكن إلى التقلل أميل ، فإن الناس ينظرون إليه .

وينبغى له الاحتراز مما يقتدى به فيه ، فإنه متى ترخص فى الدخول على السلاطين وجمع الحطام ، فاقتدى به غيره ، كان الإثم عليه ، وربما سلم هو فى دخوله ، ولم يفهموا كيفية سلامه .

وقد روينا أن ملكاً كان يكره الناس على أكل لحم الخنزير ، فجئ برجل عالم ، فقال له صاحب الملك : قد ذبحت لك جدياً فكل منه ، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل ، فأمر بقتله ، فقال له الحاجب : ألم أقل لك إنه جدى ، فقال : ومن أين يعلم حالى من يقتدى بى .

---

(١) [صحيح]مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٢٠ ـ باب الحث على الصدقة حديث [١٠١٧] ، وأحمد فى «مسنده » ٤ / ٣٥٧ و ٣٥٩ ، والترمذى فى : العلم : حديث [٢٦٧٥] ، وابن ماجة فى : المقدمة حديث [٢٠٧] والنسائى [٥/ ٧٥ ، ٧٦] .

فصل في شروط التوبة

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه .

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته ، وأيّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ؟ وأي عقوبة أشد من النار ؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائته ، أو بغير شرطها ؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك ، فيقضيها كلها .

وكذلك إن كان عليه الصوم ، أو زكاة ، أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات ، يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصي : فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، فالتوبة منه الندم والاستغفار .

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] ، وقال النبي ﷺ : « **أتبع السيئة الحسنة تمحها** » [1] .

---

(١) [حسن] الترمذي في : ٢٨ ـ كتاب البر والصلة : ٥٥ ـ باب ماجاء في معاشرة الناس : حديث [١٩٨٧] ، والدارمي في : الرقاق : حديث [٢٧٩١] وأحمد في « مسنده » ٥ / ١٥٣ و ٢٣٦ ، وهو في « صحيح الجامع » رقم [٩٧] .

مثال ما ذكرنا : أن يكفر سماع الملاهى بسماع القرآن ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال . وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية الله تعالى ، لأنه نهى عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك فى المستقبل ، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم فى القسم الأول فليقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفر قتل النفوس بالعتق .

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد .

ومظالمهم إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأ أوصل الدية إلى مستحقها ، إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لو زنا ، أو سرق ، أو شرب الخمر ، أو باشر ما يجب فيه حد الله تعالى ، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الوالى حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى ، بدليل قصة ماعز والغامدية .

وكذلك حد القذف ، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه .

الثانى : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس فى المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه .

وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤد إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته .

هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته ، تصدق به عنه ، وإن اختلط الحلال بالحرام عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أن يطلب كل واحد منهم وليستحلة ، وليعرف قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنى بجاريته ، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولابد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة ، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات .

فصل فى شروط التوبة

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب ، ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً .

مثال ذلك المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه ، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول من الفاكهة ما دام فى مرضه ذلك ، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكن لا يكون إلا بالعزلة تائباً ما لم يتأكد عزمه فى الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول مرة إلا بالعزلة ،

والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوت حلال ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات .

قال بعضهم : من صدق فى ترك الشهوة ، وجاهد نفسه فيها سبع مرات ، لم يبتل بها ، وقال : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

الناس فى التوبة أربع طبقات :

الطبقة الأولى : تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه ، ولا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات ، فهذه هى الاستقامة فى التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات .

وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة ! وهؤلاء يختلفون ، فمنهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففترنزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها .

الطبقة الثانية : تائب قد سلك الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لاينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هى النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة . فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمى ، فقلما ينفك عنه ، **وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح** حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد .

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه ، إذ قال : ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ [النجم : ٣٢] ، وإلى هذه الرتبة الإشارة

بقوله ﷺ : « إن الله يحب المؤمن المُفتَّن التواب » (١) .

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس المسئولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ﴾ فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه ، فربما يختطف قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هى الأمارة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح ، فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار ، فلو قيل له : فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

---

(١) [موضوع] رواه عبد الله فى « زوائد المسند » ١ / ٨٠ و١٠٣ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٧٠٥] .

فصل فيما ينبغى للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغى له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، لتمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان بالقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، فالاعتراف بالظلم والاستغفار ، مثل أن يقول : رب ظلمت نفسى فاغفر لى .

روى فى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : «**ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، ويستغفر الله عزوجل ، إلا غفر له**»[1] .

وأما الجوارح فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

فصل فى دواء التوبة وطريق علاج عقدة الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء و لا يبطل الشيء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولاتضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .

والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع فى السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل ، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء .

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمور :

أحدها : أن المريض لا يدرى أنه مريض .

(١) [حسن] الترمذى فى : ٢ ـ كتاب الصالة : ١٨١ ـ باب ماجاء فى الصلاة عند التوبة : حديث [٤٠٦] ، وابن ماجة فى : إقامة الصلاة : حديث [١٣٩٥] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٢ ، وابن حبان [٢٤٥٤ موارد] .

والثانى : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان ، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هوحب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء .

فإن قيل : فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق ؟

فالجواب : أن ذلك يطول ، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك ، وهى أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر ما فى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وماورد فى الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء عليهم السلام ، والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب ، كحال آدم عليه السلام ، وما لقى فى عصيانه من الإخراج من الجنة ، وما جرى لدواد وسليمان ويوسف عليهم السلام ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد ، فينبغى أن يكثر من هذا على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف

عقوبة الدنيا لفرط جهله ، والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها ، كما قال النبى ﷺ: « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » [١] .

وقال الفضيل بن عياض : إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

وقال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة ، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صقل قلبه وذلك الران الذى ذكر الله عزوجل فى كتابه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين : ١٤] قال الترمذى : حديث حسن صحيح [٢].

وقال الحسن رحمه الله : الحسنة نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئة ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب ، كشرب الخمر ، والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة .

وينبغى أن يكون طبيباً يعلم الداء ، ويدرى كيف يصنع الدواء ، فإن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال : أوصنى ، قال : « لا تغضب » [٣]

وقال أخر : أوصنى ، فقال : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس » [٤] .

---

(١) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٥ / ٢٨٠ و ٢٨٢ ، وابن حبان [١٠٩٠ موارد] والحاكم [١ / ٤٩٣] وابن ماجة [٤٠٢٢] وقال البوصيرى فى الزوائد : إسناده حسن .

(٢) [صحيح] الترمذى فى : ٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن : ٧٤ ـ باب ومن سورة « ويل للمطففين » : حديث [٣٣٣٤] ، وابن ماجة [٤٢٤٤] وابن حبان [١٧٧١] والحاكم [٢ / ٥١٧] ، وأحمد فى المسند [٢ / ٢٩٧] .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أورده فى « كنز العمال » رقم [٤٤١٥٦] ، وقد تقدم بلفظ « أجمع اليأس . . . . الخ » . وهو فى ضعيف الجامع [٣٧٣٩] .

فكأنه تخايل فى الأول مخايل الغضب ، وفى الثانى مخايل الطمع .

وهذا الذى ذكرنا هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا فى كتاب « رياضة النفس » ولابد من الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلابد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة ، فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة .

والذى يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى ، والنظر إليه ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكر فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله .

فإن قيل : ما بال الإنسان يقع فى الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟

فعن ذلك أجوبة ، منها : أن العقاب الموعود ليس بحاضر .

ومنها : أن المؤمن إذا أذنب فلابد أن يعزم على التوبة ، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل ، وطول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوف بالتوبة ، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب .

ومنها : أنه يرجو عفو الله عنه ، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر فى نفسه أن كل ما هو آت قريب ، وأنه لا يأمن هجوم الموت ، ويعالج التسويف بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، والمسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه ، وهو البقاء ،

فلعله لا يبقى ، وإن بقى فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم ، وهل عجز عن الحال إلا لغبة الشهوة وهى غير مفارقة له غداً ؟ بل يتأكد بالاعتياد ، ومن هذا هلك المسوفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة ، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها فى حال ضعفها ، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت .

وأما انتظار عفو الله تعالى ، فعفو الله سبحانه ممكن ، إلا أن الإنسان ينبغى له الأخذ بالحزم ، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها ، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى خربة ، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق ، والله سبحان وتعالى أعلم .

كتاب الصبر والشكر

وهو شطران :

الأول فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك ، وقد ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن فى نحو من تسعين موضعاً ، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا** ﴾ [السجدة : ٢٤] وقال : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] وقال : ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل : ٩٦]، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر : ١٠] .

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى فى حديث قدسى : « الصوم لى وأنا أجزى به » (١) . وعد الله الصابرين بأنه معهم ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال : ﴿ **أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وأما الأحاديث ، ففى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » (٢) وفى حديث آخر : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » (٣) .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) البخارى فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة : ٥٠ ـ باب الاستعفاف عن المسألة : حديث [١٤٦٩] ، ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٤٢ ـ باب فضل التعفف : حديث [١٠٥٣] ، وأبو داود فى رقم [١٦٤٤] والترمذى [٢٠٢٤] ، والنسائى [٥/ ٩٥] ، ومالك فى : الصدقة : حديث [٧].

(٣)[ضعيف جداً] أورده فى « كنز العمال » رقم [٦٥٠١] وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٣٥٣٥] .

وقال الحسن : الصبر كنزٌ من كنوز الخير ، لا يعطيه الله عزوجل إلا لعبد كريم عنده . وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها ، وفيها : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

واعلم : أن الصبر من خاصية الإنسان ، ولا يتصور فى البهائم لنقصانها ، وغلبة الشهوات عليها من غير شىء يقابلها ، ولا يتصور الصبر أيضاً فى الملائكة لكمالها ، فإن الملائكة جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادقة ما يصدها عن حضرة الجلال .

وأما الإنسان فإنه يخلق فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم يظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، وليس له قوة الصبر ، فإذا تحرك العقل وقوى ، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة ، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمع ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه ، إلا أن الطبع يقتضى ما يجب ، وباعث الشرع والعقل يمنع ، والحرب بينهما قائمة ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوات ، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين ، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها ، التحق بأتباع الشياطين ، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة الهوى ، فهذه المقاومة من خاصية الآدميين .

فصل فى أقسام الصبر

اعلم أن الصبر على ضربين :

أحدهما : بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن ، وكتعاطى الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها .

الضرب الآخر : هو الصبر النفسانى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمى عفة ، وإن كان الصبر فى قتال سمى شجاعة ، وإن كان فى كظم غيظ ، سمى حلماً ، وإن كان فى نائبة مضجرة سمى سعة صدر ، وإن كان فى إخفاء أمر ، سمى كتمان سر ، وإن كان فى فضول عيش ، سمى زهداً ، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة .

وأما المصيبة ، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر ، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة فى الصبر ، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات .

ثم اعلم أن العبد لا يستغنى في كل حال من الأحوال ، وذلك أن جميع ما يلقى العبد فى الدنيا لا يخلو من نوعين :

النوع الأول :

ما يوافق هواه من الصحة ، والسلامة والمال ، والجاه ، وكثرة العشيرة والأتباع، وجميع ملاذ الدنيا ، فالعبد محتاج إلى الصبر فى جميع هذه الأمور ، فلا يركن إليها، ولا ينهمك فى التلذذ بها ، ويراعى حق الله تعالى فى ماله بالإنفاق، وفى بدنه بالمعونة للحق .

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك فى الملاذ والركون إليها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، حتى قال بعض العارفين : المؤمن يصبر على البلاء ، ولا يصبر على العافية إلا صدّيق .

وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [المنافقون: ٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ**

فِتْنَةٌ ﴾[الأنفال: ٢٨] ، ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[التغابن: ١٤]

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ، وإنما كان الصبر على السراء شديداً ، لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ .

النوع الثانى : المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام :

أحدها : الطاعات ، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية .

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً ، كالحج والجهاد .

ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته فى ثلاثة أحوال :

حال قبل العبادة ، وهى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء .

وحال فى نفس العبادة ، وهى أن لا يغفل عن الله تعالى فى أثناء العبادة ، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن ، فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ من العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل : وهى الصبر عن إفشائه ، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة ، وعن كل ما يبطل عمله ، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها .

القسم الثانى : الصبر عن المعاصى ، وما أحوج العبد إلى ذلك .

ثم أن كان الفعل مما تيسر فعله ، كمعاصى اللسان من الغيبة ، والكذب والمراء ونحوه ، كان الصبر عليه أثقل ، فترى الإنسان إذا لبس حريراً ، استنكر ذلك ،

ويغتاب أكثر نهاره ، فلا يستنكر ذلك ، ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ولم يقدر على الصبر ، لم ينجه إلا العزلة .

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت الاختبار ، كالمصائب مثل موت الأحبة ، وهلاك الأموال ، وعمى العين ، وزوال الصحة ، وسائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات ، لأن سنده اليقين .

وقد قال ﷺ : « **من يرد الله به خيراً يصب به** »(١) .

وقريب من هذا القسم ، الصبر على أذى الناس ، كالذى يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله ، والصبر على ذلك بترك المكافآت .

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾[آل عمران : ١٨٦]، وقال : ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** ﴾[الحجر ٩٧]، وقال : ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾[النحل: ١٢٦]

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين » (٢) .

---

(١) البخارى فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى : ١ ـ باب ما جاء فى كفارة المرض : حديث [٥٦٤٥]، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٣٧ ، ومالك [٢ / ٢٢٩] .

(٢) [موضوع] أورده فى « كنز العمال » رقم [٦٥١٥] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٣٥٣٢] .

والأحاديث فى فضائل الصبر كثيرة ، منها : ما أخرجاه فى « الصحيحين » عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عزوجل بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها »(١) .

وفى حديث آخر : « ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

وفى حديث آخر : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة ، فى جسده وفى ماله وفى ولده ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » (٣) .

وفى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة» قال الترمذى : حديث حسن صحيح (٤) .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى : ١ ـ باب ماجاء فى كفارة المرض : حديث [٥٦٤٠]، ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ١٤ ـ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه : حديث [٤٩/ ٢٥٧٢].

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٤٥ ـ كتاب المرض : ١ ـ باب ماجاء فى كفارة المرضى : حديث [٥٦٤١ ـ ٥٦٤٢] ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ١٤ ـ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه حديث [٢٥٧٣].

(٣) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٥٦ ـ باب ماجاء فى الصبر على البلاء : حديث [٢٣٩٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٨٧ و ٤٥٠ ، والحاكم [١ / ٣٤٦].

(٤) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٥٦ ـ باب ماجاء فى الصبر على البلاء : حديث [٢٣٩٨]، وابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن : ٢٣ ـ باب الصبر على البلاء : حديث [٤٠٢٣]، وأحمد فى «مسنده» ١ / ١٧٤ و ١٨٠ و ١٨٥ ، والدارمى [٢ / ٣٢٠] وابن حبان [٦٩٩ موارد] والحاكم [١ / ٤٠ ، ٤١].

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال : قال الله تعالى : « إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديواناً »(١) .

فصل فى آداب الصبر

ومن آداب الصبر استعماله فى أول صدمة ، لقوله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »(٢) حديث صحيح .

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة ، لحديث أم سلمة رضى الله عنها وهو من رواية مسلم(٣) .

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان ، فأما البكاء فجائز .

قال بعض الحكماء : الجزع لا يرد الفائت ، ولكن يسر الشامت .

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب ، كما فعلت أم سليم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها ، وحديثها مشهور فى « صحيح مسلم »(٤) .

وقال ثابت البنانى : مات عبد الله بن مطرف ، فخرج مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد ادهن ، فغضبوا ، وقالوا : يموت عبد الله ، ثم تخرج فى ثياب من هذه مدهناً ؟! قال : أفأستكين لها ، وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال ، كل

---

(١)[ضعيف] قال العراقى فى « المغنى »[٤ / ٧٢] : رواه ابن عدى فى « الكامل » من حديث أنس بسند ضعيف«إتحاف السادة المتقين » ٩ / ١٤٢ .

(٢) البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز : ٤٢ ـ باب الصبر عند الصدمة الأولى : حديث [١٣٠٢] ، ومسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز : ٨ ـ باب فى الصبر على المصيبة : حديث [٦٢٦] ، وأبو داود فى : الجنائز : حديث [٣١٢٤] ، والترمذى فى : الجنائز : حديث [٩٨٧ و ٩٨٨] ، والنسائى فى : الجنائز : باب الأمر بالاحتساب ، حديث [٣] ، وأحمد فى « مسنده » ٣ / ١٣٠ و ١٤٣ و ٢١٧ .

(٣) مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز : ٢ ـ باب مايقال عند المصيبة حديث [٩١٨] ، ومالك فى الموطأ [١ / ٢٣٦] وأبو داود فى الجنائز رقم [٣١١٩] .

(٤)[صحيح] رقم [٩١٨] فى الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة .

خصلة منها أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦ ، ١٥٧] .

وقال مطرف : ما شيء أعطى به فى الآخرة قدر كوز من ماء ، إلا وددت أنه أخذ منى فى الدنيا .

وكان صلة بن أشيم فى مغزى له ومعه ابنه ، فقال : أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم فقتل ، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية ، فقالت : مرحباً ، إن كنتن جئتن تهنئننى ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن .

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها ، فكتمانها من نعم الله عزوجل الخفية .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فيقول : انظروا ما يقوله لعواده ، فإن هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه ، رفعا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم ، فيقول : لعبدى إن أنا توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه خطاياه » [١] .

وقال على رضى الله عنه : من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك .

وقال الأحنف : لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة ، ما ذكرتها لأحد .

وقال رجل للإمام أحمد : كيف تجدك يا أبا عبد الله ؟ قال : بخير فى عافية .

---

(١) [ضعيف] مالك فى : ٥٠ ـ كتاب العين : ٣ ـ باب ماجاء فى أجر المريض : حديث [٥] ، عن عطاء مرسلاً .

فقال له : حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا فى عافية فحسبك ، لا تخرجنى إلى ما أكره .

وقال شقيق البلخى : من شكا مصيبة به إلى غير الله ، لم يجد فى قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً .

وقال بعض الحكماء : كنوز البر كتمان المصائب ، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها ، وحكاياتهم مشهورة فى ذلك .

منها : ما روى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر ، وسوى عليه ثم استوى قائماً ، فأحاط به الناس ، فقال : رحمك الله يا بنى ! قد كنت براً بأبيك ، والله ما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً ، ولا أرجى بحظى من الله تعالى فيك منذ وضعتك فى هذا المنزل الذى صيرك الله إليه .

فإن قيل : إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب ، فلا قدرة للآدمى على ذلك ، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم ، فهو أبعد .

الجواب : أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه ، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب ، وهو انزعاج الباطن ، وإنما ينهى عن المكتسب ، كشق الجيوب ولطم الخدود ، والقول باللسان ، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم ، فذلك فرح شرعى لا طبعى ، إذ الطبع لابد له من كراهة المصائب .

ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه ، فسعى فى طلب حوائجها ، وأنفق عليها مالاً ، فلما تمت ، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية ، فأما طبعه فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً ، ولو أن ملكاً قال لرجل فقير : كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار ، لأحب كثرة الضرب ، لا لأنه لا يؤلم ولكن لما يرجو من عاقبته ، وإن أنكاه الضرب ، فذلك السلف تلمحوا الثواب ، فهان عليهم البلاء .

فصل فى بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم : أن الذى أنزل الدواء ووعد بالشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به ، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج : مضادة العلة .

ونضرب لك مثالاً ، فنقول : إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع ، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ، ولا عينه ولا قلبه ، فعلاج ذلك ثلاثة أشياء :

أحدها : مواظبة الصوم ، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام .

الثانى : قطع أسبابه المهيجة ، فإنه يهيج بالنظر ، والنظر بالقلب ، والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذا العزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب .

الثالث : تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى ، وذلك بالنكاح ، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام ، ففى المباحات غنية عنه ، وهذا هو العلاج الأرفع فى حق أكثر الناس ، لأن قطع الغذاء يضعف ، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا .

وينبغى للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة ، فإن من عوّد نفسه مخالفة الهوى ، غلبها متى أراد .

واعلم : أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة كف الباطن من حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل ، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه ، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق ، وجعل الهم هماً واحداً ، وصرف الفكر إلى ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى ، وجميع أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا

استولى ذلك على قلبه ، ودفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة ، من القراء ، والأذكار ، والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور ، فإن الفكر الباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، فهذا الذى يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد .

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال ، فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ، ويكثر الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الصيد ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبه من جذبات الرحمن عزوجل ، فإنها توازى أعمال الثقلين ، وليس ذلك إلى اختيار العبد ، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذ ب إلى أسفل سافلين ، لا يجذب إلى أعلى عليين ، وكل منهوم بالدنيا هو مجذوب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة ، هو المراد بقوله ﷺ : «إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » (١) .

فالذى علينا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة ، كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ، ويضع فيها البذر ، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر ، ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلى سنة عن مطر وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات .

فينبغى أن يكون قد طهر القلب من حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب ريح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع عند ظهور الغيم ، وكذلك انتظار تلك النفحات فى الأقات الشريفة ، وعند اجتماع الهمم ونشاط القلوب ، كيوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وفى رمضان ، والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره .

---

(١) [ضعيف] الطبرانى ١٩ / ٢٣٤ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [١٩١٧] .

الشطر الثانى من الكتاب
فى الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها

قال الله تعالى : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران : ١٤٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾[النساء : ١٤٧] ، وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ : ١٣]، وقطع بالمزيد مع الشكر فقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم: ٧]، مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾[التوبة: ٢٨] ، وقوله : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾[الأنعام :٤١] ، وقوله : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾[البقرة : ٢١٢] ، ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[النساء : ٤٨] ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾[التوبة : ١٥].

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال فى الطعن على بنى آدم : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[الأعراف : ١٧].

وروى أن النبى ﷺ قام حتى تفطرت قدماه ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » (١).

وعن معاذ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ: « إنى أحبك فقل : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » (٢) .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن : ٢ ـ باب قوله « ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك » حديث [٤٨٣٧] ، ومسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين : ١٨ ـ باب إكثار الأعمال : حديث [٢٨٢٠] ، والترمذى فى : الصلاة : حديث [٤١٢] ، والنسائى فى : قيام الليل : باب الاختلاف على عائشة فى إحياء الليل : حديث [٦] ، وابن ماجة فى : إقامة الصلاة : حديث [١٤١٩ و ١٤٢٠] ، وأحمد فى « مسنده » ٤ / ٢٥١ و ٢٥٥ .

(٢) [صحيح] أبو داود فى الصلاة ، باب فى الأستغفار حديث [١٥٢٢] والنسائى [٣ / ٥٣] وأحمد فى المسند [٥ / ٢٤٥ ، ٢٤٧] وهو فى صحيح الجامع [٧٩٦٩] .

فصل فى كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح

والشكر يكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح .

أمـا بـالقلـب : فهو أن يقصد الخير ، ويضمره للخلق كافة .

وأمـا باللسان : فهو إظهار الشكر لله بالتحميد .

وأما بالجوارح : فهو استعمال نعم الله فى طاعته ، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، فهذا يدخل فى جملة شكر هذه الأعضاء .

والشكر باللسان : إظهار الرضى عن الله تعالى ، وهو مأمور به . قال رسول الله ﷺ : « التحدث بالنعم شكر ، وتركها كفر »[(١)] .

وروى أن رجلين من الأنصار التقيا ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف أصبحت؟ فقال : الحمد لله . فقال النبى ﷺ : « قولوا هكذا »[(٢)] .

وروى أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فرد عليه ، ثم قال له عمر : كيف أصبحت ؟ قال : أحمد الله ، فقال عمر : ذاك الذى أردت .

وقد كان السلف يتساءلون ، ومرادهم استخراج الشكر لله ، فيكون الشاكر مطيعاً ، والمستنطق مطيعاً .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلى : إن الرجل إذا سلم على الرجل ، وسأله كيف أصبحت ؟ فقال له الآخر : أحمد الله إليك ، قال : يقول الملك الذى عن يساره للذى عن يمينه : كيف تكتبها ؟ قال : أكتبه من الحامدين . فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل : كيف أصبحت : يقول : أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه .

(١) [حسن] أحمد فى « مسنده » ٤ / ٢٧٨ و ٣٧٥ ، وابن أبى الدنيا فى « الشكر » [٦٤] وهو فى «صحيح الجامع » رقم [٣٠١٤] .
(٢) لم أقف عليه .

فصل في فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله

اعلم : أن فعل الشكر وترك الكفران ، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه فى محابه ، ومعنى الكفران نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال ، أو استعماله فيما يكرهه .

ولتمييز ما يحبه الله مما يكرهه مدركان :

أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات .

والثانى : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير عزيز ، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطرق على الخلق ، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد ، فمن لا يطلع على حكم الشرع فى جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً .

وأما الثانى : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه إذ ما خلق الله تعالى شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية

أم الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً ، والليل سباتاً ، فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكمة فيها ، وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار .

وأما الحكمة فى خلق الكواكب : فخفية لا يطلع عليها كل الخلق ، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم ، نحو كونها زينة للسماء ، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة ، وكذلك أعضاء الحيوان ، ومنها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً ، كالعلم بأن العين للإبصار ، واليد للبطش ، والرجل للمشى .

فأما الأعضاء الباطنة ، كالمرارة والكلية والكبد ، وآحاد العروق ، والأعصاب

وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة ، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس ، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله تعالى ، فكل من استعمل شيئاً فى جهة غير الجهة التى خلق لها ذلك الشىء على غير الوجه الذى أريد به ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه ، فمن ضرب غيره بيده بغير حق ، فقد كفر نعمة الله تعالى فى اليد ، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويتناول ما ينفعه ، لا ليؤذى بها غيره ، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم ، فقد كفر نعمتها ، ونعمة الشمس أيضاً ، إذ الإبصار يتم بها ، فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ، ويتقى بهما ما يضره فيهما .

واعلم : أن المراد من خلق الخلق ، وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته ، والأنس به فى الدنيا ، والتجافى عن غرور الدنيا ، ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق الأعضاء الباطنة والظاهرة المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فكل من استعمل شيئاً فى غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لابد منها ، لإقدامه على تلك المعصية .

ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء ، حتى يعتبر بها ، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم ، فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة فى أعينهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما ، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة ، فى مطعمه ومشربه ، وملبسه ، ومركبه ، وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل

يركبه ، وآخر يملك الجمل، وربما استغنى عنه ، ويحتاج إلى الزعفران ، فلابد بينهما من معاوضة ، ولابد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يعطى مثله فى الوزن والصورة .

وكذا من يشترى داراً بثياب ، أوعبداً بخف ، أو دقيقاً بحمار ، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما ، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير ، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر ، فيقال : هذا الجمل يساوى مائة ، هذا القدر من الزعفران يساوى مائة ، فحصل التساوى بينهما حينئذ ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين ، إذ لا غرض فى أعيانهما ، فإنه لو كان فى أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر ، فخلقهما الله لتتداولهما الأيدى ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، وجعلهما عزيزين فى أنفسهما ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما ، فكأنه ملك كل شيء .

إذا عرفت حكمتهما ، فكل من عمل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما ، ولا يليق بحكمتهما ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين فى سجن يمتنع من الحكم بسببه ، لأنه ضيعهما ومنع الأيدى من تداولهما . ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهى لا يدرك بعين البصر ، بل بعين البصيرة ، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسوله ﷺ ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما .

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد فى الحياكة والكنس والأعمال التى يقوم

بها أخس الناس ، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة فى حفظ المائعات ، ولا تكفى تلك الأعيان عنهما ، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء ، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له : « من شرب فى إناء ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » [1] وكذلك كل من عامل بالربا فى الدراهم والدنانير ، فقد أخرجهما عن مقصودهما ، فهذا مثال لحكمة خفية من حكم النقدين .

فينبغى أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال فى غيره من جميع أمورك ، فى حركتك ، وسكونك ، ونطقك ، وسكوتك فى كل فصل صادر منك ، إما شكراً أو عكسه ، وهو الكفر ، وبعض ذلك تصفه بالكراهة ، وبعضه بالحظر .

ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى ، وقد أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال ، بعضها شريفة ، كأخذ المصحف ، وبعضها خسيسة ، كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار ، أزلت النجاسة باليمين ، فقد عكست المقصود وخصصت الشريف بما هو خسيس ، فظلمته .

وكذلك فى الرجلين ، إذا ابتدأت باليسرى فى لبس الخف ، فقد ظلمت اليمنى لأن الخف وقاية الرجل ، وقس على ذلك .

وكذلك نقول : من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح ، فقد خالف الحكمة فى خلق الأشجار ، لأنها خلقت للمنفعة بها ، فإن كان كسره لغرض صحيح ، فلا بأس ، وإن فعل ذلك فى ملك غيره ، فهو ظالم ، وإن كان محتاجاً ، إلا أن يأذن صاحبه .

---

(١) [متفق عليه]البخارى فى : ٧٤ـ كتاب الأشربة : ٢٨ ـ باب آنية الفضة : حديث [٥٦٣٤] ومسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس : ١ ـ باب تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة فى الشرب وغيره : حديث [٢٠٦٥] ، وابن ماجة فى : الأشربة : حديث [٣٤١٣و ٣٤١٥] ، والدارمى فى : الأشربة حديث [٢١٢٩] ، ومالك فى : صفة النبى : حديث [١١] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٩٨ و ٣٠١ و ٣٠٢ .

فصل فى بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

اعلم : أن كل مطلوب يسمى نعمة ، ولكن النعمة فى الحقيقة هى السعادة الأخروية ، وتسمية ما عداها نعمة تجُوز ، والأمور إلينا تنقسم أربعة أقسام :

أحدها : ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعاً ، كالعلم ، وحسن الخلق ، وهو النعمة الحقيقية .

الثانى : ما هو ضار فيهما جميعاً ، وهو البلاء حقيقة .

القسم الثالث : ما ينفع فى الحال ، ويضر فى المآل ، كالتلذذ ، واتباع الشهوات فهو بلاء عند ذوى الأبصار ، والجاهل يظنه نعمة .

ومثاله : الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً ، فإذا علم ذلك عده بلاءً .

القسم الرابع : الضار فى الحال ، النافع فى المآل ، وهو نعمة عند ذوى الألباب، بلاء عند الجهال .

ومثاله : الدواء الشنيع مذاقه فى الحال ، الشافى فى المآل من الأسقام ، فالصبى الجاهل ، إذا كُلف شربه ظنه بلاء ، العاقل يعده نعمة ، وكذلك إذا احتاج الصبى إلى الحجامة ، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها ، لما يلحظ فى عقابتها من الشفاء ، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها ، ولكونها جاهلة بالمصلحة فى ذلك ، فالصبى يتقلد منة أمه بجهله ، ويأنس إليها دون أبيه ، ويقدر أباه عدواً ، ولو عقل لعلم أن الأم هى العدو الباطن فى صورة صديق ، لأن منعها أياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحجامة ، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان صديق نفسه ، ولكن النفس صديق جاهل ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو .

فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم : أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية .

أما الغاية فهى سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى سعادة الحقيقية .

وأما القسم الثانى : فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة ، وهى أربعة أقسام :

أعلاها : فضائل النفس ، كالإيمان ، وحسن الخلق .

الثانى : فضائل البدن ، من القوة والصحة ونحوهما .

الثالث : النعم المطيفة بالبدن ، من المال والجاه والأهل .

الرابع : الأسباب التى جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل ، من الهداية والإرشاد والتسديد ، والتأييد ، وكل هذه نعم عظيمة .

فإن قيل : ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة فى المال والجاه ونحوهما ؟

قلنا : هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح ، والآلة المستعملة للمقصود

أما المال ، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية ، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح ، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات فى طلب القوت ، فيشغله عن تحصيل العلم وعن الذكر ، والفكر ، ونحو ذلك .

وأما الجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا ينفك عن عدو يؤذيه، وظالم يهوش عليه ، فيشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تدفع الشواغل بالعز والجاه .

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها ، فهى نعم ، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك .

وقد قال النبى ﷺ : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ** »[(١)].

ولما سئل : مَنْ خير الناس ؟ قال : « **من طال عمره وحسن عمله** »[(٢)] .

وأما والمال والجاه ، وإن كانا نعمتين ، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم ، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق .

وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد ، فلا خفاء فى كونها من أعظم النعم ، فلا يستثنى أحدعن الحاجة إلى التوفيق ، ولذلك قيل :

إذ لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فصل من نعم الله الأسباب التى يتم بها الأكل

واعلم : أنا قد ذكرنا جملة من النعم ، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة فى الرتبة الثانية ، فلو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة ، لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التى يتم بها الأكل على سبيل التلويح ، لا على سبيل الاستقصاء ، فنقول : من جملة نعم الله عليك أن يخلق لك آلة الإحساس ، وآلة الحركة فى طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى الحواس الخمس ، التى هى آلة للإدراك .

---

(١) البخارى فى : كتاب الرقاق : باب ماجاء فى الصحة والفراغ حديث [٦٤١٢] ، والترمذى فى : كتاب الزهد : باب الصحة والفراغ : حديث [٢٣٠٤] ، وابن ماجة فى : كتاب الزهد باب الحكمة : حديث [٤١٧٠] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٢٥٨و٣٤٤ ، والحاكم [٤ / ٣٠٦].

(٢)[صحيح] : رواه أحمد فى « المسند » [٤ / ١٨٨ ، ١٩٠] والترمذى فى الزهد ، باب ما جاء فى طول عمر المؤمن حديث [٢٣٢٩] والدارمى فى : الرقاق : حديث [٢٧٤٢] والحاكم فى «مستدركه » ١ / ٣٣٩ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وهو فى صحيح الجامع رقم [٣٢٩٧] .

فأولها : حاسة اللمس ، وهو أول حس يخلق للحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة ، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد ، ولكن لا تدرى من أى ناحية جاءت الرائحة ، فيحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذى شممت رائحته ، وربما لم تعثر ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته فتقصدها بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب ، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب ، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب ، فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات ، ولا يكفى ذلك ، لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك ، بخلاف الشجرة ، فإنه يصب فى أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى ، هى أشرف من الكل ، وهو العقل ، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها وما يضر فى المآل ، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع به فى الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أدنى فوائد العقل ، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة ، فهى بعض الإدراكات .

ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك ، فإن البصر واحد من الحواس ، والعين آلة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة : بعضها رطوبات ، وبعضها أغشية مختلفة ، لكل واحدة من الطبقات العشر ، صفة وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وتدبير ، وتركيب لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء كلهم ، فهذا فى حس واحد ، وقس حاسة السمع وسائر الحواس ، ولا يمكن أن يستوفى ذلك فى مجلدات ، فكيف ظنك بجميع البدن ؟!

ثم انظر بعد ذلك فى خلق الإرادة والقدرة ، وآلات الحركة من أصناف النعم ،

وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام ، ولم يخلق لك فى الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة ، كان البصر معطلاً ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته ، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى تناول الغذاء .

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام ، لأسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، وكذلك القول فى شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل .

ثم خلق لك الأعضاء التى هى آلات الحركة فى تناول الغذاء وغيره ، ومنها اليدان وهما مشتملتان على مفاصل لتتحرك فى الجهات وتمتد وتثنى ، ولا تكون كخشبة منصوبة .

ثم جعل رأس اليد عريضاً ، وهو الكف ، وقسمه خمسة أقسام ، وهى الأصابع وجعلها مختلفة فى الطول والقصر ووضعها فى صفين ، بحيث يكون الإبهام فى جانب ، ويدور على الأصابع البواقى ، ولو كانت مجتمعة متراكمة ، لم يحصل تمام الغرض ، ثم خلق لها أظافر ، وأسند إليها رءوس الأصابع ، لتقوى بها ، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد ، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك ، فجعل لك الفم واللحيين خلقهما من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وقسمهما بحسب ما يحتاج إليه الطعام ، فبعضها قواطع كالرباعيات ، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس ، وجعل اللحى الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابتاً لا يتحرك ، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى ، وإن كل رحى صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى ، ألا هذه الرحى التى هى صنع الله سبحانه وتعالى ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى ، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التى يحتوى عليها .

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف فى جوانب الفم ، يرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ، كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى ، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق .

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس ، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة .

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها ، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام .

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، فإنه لايمكن إيصاله باليد ، فهيأ الله تعالى المرىء والحنجرة ، وجعل رأسها ينفتح لأخذ الطعام ، ثم ينطبق حتى يقلب الطعام ، فيهوى فى دهليز المرىء إلى المعدة ، فإذا ورد الطعام إلى المعدة ، وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح أن يصير لحما وعظما ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً ، فيجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام ، فتحوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، وينضج بالحرارة التى تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة ، وهى الكبد من جانبها الأيمن ، والطحال من جانبها الأيسر ، والترب من أمامها ، ولحم الصلب من خلفها ، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد ، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر .

ثم يتفرق فى الأعضاء ، ويبقى منه ثقل ثم يندفع .

ولو استوفينا الكلام فى ذلك لطال .

وفى الآدمى من العضلات والعروق ما لا يحصى ، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ ، ولا شىء منها إلا وفيه حكمة ، وكل ذلك من الله سبحانه ، ولو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يا مسكين .

فانظر إلى نعم الله تعالى عليك ، لتقوى على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل ، وهى أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل ، وتتعب فتنام ، وتشتهى فتجامع ، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار ، فكيف تقوم بشكر الله تعالى ؟! وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى ، فقس على ذلك .

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه أقل من قطرة فى بحر ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾[إبراهيم : ٣٤] .

فصل فى عجائب الأغذية والأدوية

واعلم :أن الأطعمة كثيرة مختلفة ، ولله تعالى فى خلقها عجائب لا تحصى .

وهى تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها .

فنتكلم عن بعض الأغذية فنقول : إذا كان عندك شىء من الحنطة ، فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً ، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف ، حتى يفى بتمام حاجتك ، وهو زرعها ،وهو أن تجعلها فى أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، ثم لا يكفى الماء والتراب ، إذ لو تركت فى الأرض ندية صلبة لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها فى أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء ، وتصرفه بقهر على الأرض ، حتى ينفذ فيها ، ثم كل ذلك لا يغنى ،فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ، فإنه لو كان فى البرد المفرط لم ينبت .

ثم انظر إلى الماءالذى تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى ؟ فجّر العيون وأجرى منها الأنهار ، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء ، أرسل إليها الغيوم ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم ،وهى سحب

ثقال . ثم يرسله على الأرض مدراراً فى وقت الحاجة .

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء ، وتنفجر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره .

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها ، مع بعدها عن الأرض ، مسخنة لها فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إليه ، والحر عند الحاجة إليه .

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير ، وكل كوكب خلق فى السماء ، فهو مسخر لنوع فائدة ، كما سخرت الشمس والقمر ، ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر بإحصائها ، وكذلك الشمس ، فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى .

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد فى كل مكان ، سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم الحرص على جمع المال ، مع أنه لا يغنيهم فى غالب الأمر شىء ، بل يجمعون الأموال ، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق ، أو يموتون فى بعض البلاد ، فتأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم ، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح فى ركوب البحار ، وركوب الأخطار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك .

واعلم : أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم ، ولا يتصور النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إن عرفو نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه : الحمد لله ، والشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهى طاعة الله تعالى .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب :

أحدها : أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق فى جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به ، فلا يعده نعمة فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، ولو حبسوا فى حمام أو بئر ماتوا غماً ، فإن ابتلى أحدهم بشىء من ذلك ثم نجا ، قدّر ذلك نعمة يشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ،ثم ترد إليهم فى بعض الأحوال ، فالنعم فى جميع الأحوال أولى بالشكر ، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى ، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة ، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً فإذا ترك ضربه ساعة ، شكر وتقلد ذلك منة ، وإن ترك ضربه أصلاً ، غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا على المال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم .

● كما روى أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة ، وأظهر شدة اغتمامه بذلك ، فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً .

● وحكى عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى فى المنام كأن قائلاً يقول له : أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال : لا ، قال فسورة هود ؟ قال : لا ، قال فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ؟ فأصبح وقد سرى عنه .

● ودخل ابن السماك على الرشيد فى عظة ، فبكى ثم دعا بماء فى قدح فقال :

يا أمير المؤمنين ! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفديها ؟ قال : نعم ، قال : فاشرب رياً ، بارك الله فيك ، فلما شرب قال له : يا أمير المؤمنين : أرأيت لو منعت إخراج هذا الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدى ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه !

وهذ يبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم ، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة .

واعلم : أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى نعم الله كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس ، بل يشاركة فى ذلك كثير منهم ، من ذلك العقل ، فما من عبد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس وقلما يسأل الله العقل ، وإذا كان ذلك اعتقاده ، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك .

ومن ذلك الخلق ، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، ويرى نفسه بريئاً منها ، فينبغى أن يشكر الله تعالى على ذلك ، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره .

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه ، حيث أظهر الجميل وستر القبيح ، ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته ، أو أخلاقه أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو جاهه ، أو سائر محابه أموراً ، لو سلب ذلك وأعطى ما خصص به من ذلك غيره ، لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحياً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمة ، وذكراً لا أنثى ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإن كل هذه خصائص .

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره ، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه ، إما على الجملة ، أو فى أمر خاص ، فإن لله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه ، وإن كان يرى أن يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم ، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير ممن فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه ؟!

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل ممن فضل عليه » [(١)]. وقد رواه الترمذى بلفظ آخر : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم »[(٢)] .

فإن من اعتبر حال نفسه ، وفتش على ما خص به ، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة ، لا سيما من خص بالإيمان ، والقرآن ، والعلم ، والسنة ، ثم الفراغ ، والصحة والأمن وغير ذلك .

وقد روى فى بعض الأحاديث « من قرأ القرآن فهو غنى »[(٣)] . وفى لفظ : «القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه » [(٤)] .

(١) [متفق عليه]البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٣٠ ـ باب لينظر إلى من هو أسفل منه : حديث [٦٤٩٠] ، ومسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد : فى المقدمة : حديث [٢٩٦٣] ، وأحمد فى « مسنده» ٢ / ٣١٤ .

(٢) [صحيح] مسلم فى الزهد والرقائق فى فاتحته حديث [٢٩٦٣ / ٩] وأحمد فى المسند [٢ / ٢٥٤] الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٥٨ ـ باب حدثنا سويد : حديث [٢٥١٣] ، وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤١٤٢] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٤٨٢ .

(٣) [ضعيف]ابن عدى [٤ / ١٣٣٢] وفى إسناده يزيد بن إبان الرقاشى قال الحافظ فى التقريب [٧٦٨٣] زاهد ضعيف ، وفيه أيضا شريك بن عبد الله النخعى قال الحافظ [٢٧٨٧] صدوق يخطىء كثيراً تغير حفظه منذ وُلى القضاء بالكوفة وكان عادلاً فاضلاً عابداً ، شديداً على أهل البدع .

(٤) انظر الضيفة [١٥٥٨] وهو فى ضعيف الجامع [٤١٣٤] .

[ضعيف]الطبرانى فى « الكبير» رقم [٧٣٨] ، وأبو يعلى فى « مسنده» رقم [٢٧٧٣] كلاهما من طريق شريك القاضى وهو ضعيف ، وانظر « الضعيفة » رقم [١٥٥٨] ، «ضعيف الجامع» رقم [٤١٣٤]

وفى حديث آخر : « من أصبح آمناً فى سربه ، معافىً فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » [(١)] .

وقال بعضهم :

إذا ما القوت يأتى لـ ... ـك و الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن ... فلا فارقك الحزن

فإن قيل : فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى ؟

فالجواب : أما القلوب المبصرة ، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله عز وجل ، وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء ، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء ، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم ، ثم يتأمل صحته وسلامته ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون ، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات ، ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ، ليتدارك من عصا عصيانه ، وليزيد فى الطاعة من أطاع ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فإذا شاهد المقابر ، وعلم أحب الأشياء إليهم ، فليصرف بقية عمره فى طاعة الله تعالى وشكره فى الإمهال ، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله ، وهو التزود للآخرة .

ومما ينبغى أن يعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت .

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم .

(١) حسن] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣٤ ـ باب حدثنا عمرو : حديث [٢٣٤٦] ، وابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٩ ـ باب القناعة : حديث [٤١٤١] ، البخارى فى « الأدب المفرد » [٣٠٠] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٦٠٤٢] .

فصل فى بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول : قد ذكرت أن لله تعالى فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر ، وإن كان البلاء موجوداً ، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر ؟! فإن الصبر يستدعى ألماً ، والشكر يستدعى فرحاً ، وهما متضادان .

فاعلم أن البلاء موجود ، كما أن النعمة موجودة ، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه ، مثل الكفر ، فإنه بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعاصى ، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء ، فيكون كمن به علة وهو يتألم بها بسبب غشيته ، والعاصى يعرف عصيانه ، فعليه ترك المعصية ، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه ، لم يؤمر بالصبر على ذلك ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه ، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر ، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان ، حتى يقصد قتله بسبب ماله ، والصحة أيضاً كذلك ، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء ، وقد يكون على العبد فى بعض الأمور بلاء وفيه نعمة .

مثال ذلك ، جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه ، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له ، إذ لو اطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره ، إذ لو عرف منه ذلك ، أبغضه وآذاه ، فكان ذلك وبالاً عليه .

ومن ذلك إبهام القيامة ، وليلة القدر ، وساعة الجمعة ، وكل ذلك نعمة ، لأن الجهل يوفر الدواعى على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل ، فكيف فى العلم ؟!

وقد قلنا : إن لله سبحانه فى كل موجود نعمة ، حتى إن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم ، وقد تكون نعمة فى حق غيره ، كألم الكفار فى النار فى الآخرة ، فإنه نعمة فى حق أهل الجنة ، إذ لو لم يعذب قوم ، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار ، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس ، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة ، ولا بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل نبت ، لأنها عامة ، فلذلك لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها ، فإذا صح قولنا : إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة ، إما على جميع العباد أو على بعضهم ، ففى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غيره ، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة ، فإن الإنسان قد يفرح بالشىء الواحد من وجه ، ويغتنم به من وجه ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح .

واعلم : أن فى كل فقر ، ومرض ، وخوف ، وبلاء فى الدنيا خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها :

أحدها : أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها ، لأن مقدرات الله تعالى لا تتناهى ، فلو أضعفها الله عزوجل على العبد ، فما كان يمنعه ؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم .

الثانى : أن المصيبة لم تكن فى الدين .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علىّ فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه .

قال رجل لسهل بن عبد الله : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى ، فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ، ماذا كنت تصنع ؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر .

الثالث : أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف ، ومصيبة الآخرة دائمة ، وإن لم تدم ، فلا سبيل إلى تخفيفها ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا لم يعاقب ثانياً ، كذا ورد فى الحديث عن النبى ﷺ .

وفى « صحيح مسلم » : « إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له ، حتى النكبة ينكبها ، والشوكة يشاكها »(١) .

الرابع : أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب ، ولم يكن بد من وصولها إليه ، فقد وصلت واستراح منها ، فهى نعمة .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة ، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى ، فإنه لو خلى واللعب ، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب ، فكان يخسر طول عمره ، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء ، قد يكون سبباً لهلاكه ، فالملحدون غداً يتمنون أن كانوا مجانين وصبياناً ، ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى ، فما من شىء من هذه الأسباب يوجد من العبد ، إلا ويتصور أن يكون له فى ذلك خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله عزوجل ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه ، فإن حكمة الله تعالى واسعة ، وهو أعلم بمصالح العباد منهم ، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه كما يشكر الصبى بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب .

والبلاء تأديب من الله تعالى ، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد

وفى الحديث : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له »(٢) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) [صحيح]رواه أحمد فى المسند [٣ / ١١٧] وصححه الهيثمى فى المجمع [٧ / ٢١٠] وهو عند أبى يعلى من طريق ثعلبة [٧ / ٢٣١] رقم [٤٢١٨] وابن حبان رقم [١٨١٤] موارد وإسناده جيد ومعناه فى صحيح مسلم رقم [٢٩٩٩] .

وأيضـاً ، فاعلـم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا بها فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها ، فصارت سجناً له ، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن .

وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر ، فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكر على سبب الفرح ، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء ، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وقد روى أن أعرابياً عزى ابن عباس رضى الله عنه بأبيه فقال :

اصبر نكن بك صـابرين فإنما ... صبر الرعية عند صبر الراس

خير من العباس صـبرك بعده ... والله خير منك للعبـاس

فقال ابن عباس رضى الله عنه : ما عزانى أحد أحسن من تعزيته .

وقد سبق ذكر أنواع البلاء ، وثواب الصبر عليها .

فإن قال قائل : الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على البلاء فى الدنيا خير من النعيم ، فهل لنا أن نسأل الله عزوجل البلاء ؟

فالجواب : أنه لا وجه لذلك ، فإن فى الحديث من رواية أنس ، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله ﷺ: « هل كنت تدعو بشىء ، أو تسأله »؟ قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة ، فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ: « سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه ، فهلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا

عذاب النار » [(١)] .

ومن حديث أنس رضى الله عنه أيضاً ، أن رجلاً قال : يا نبى الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه الغد ، فقال : يا رسول الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه اليوم الثالث . فقال : « سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، فإن أعطيت العفو والعافية فى الدنيا والآخرة فقد أفلحت » [(٢)] .

وفى الصحيحين » أنه ﷺ قال : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » [(٣)] .

وقال مطرف : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر .

فصل فى بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس : هل الصبر أفضل من الشكر ، أو العكس ؟ وفى ذلك كلام طويل ، ذكره المصنف رحمه الله ، وتلخيص القول فيه : أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات .

فأقل درجات الصبر ، ترك الشكوى مع الكراهة ، ووراءها الرضى ، وهو مقام وراء الصبر ، ووراء ذلك الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضا .

ودرجات الشكر كثيرة ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته

---

(١) [صحيح] مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء : ٧ ـ باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا : حديث [٢٦٨٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٣ / ١٠٧ .

(٢) [ضعيف] الترمذى فى الدعوات حديث [٣٥١٢] وابن ماجة فى الدعاء ، باب الدعاء بالعفو والعافية حديث [٣٨٤٨] والبيهقى فى الدعاء [١٢٩٨] وفيه سلمة بن وردان المدنى قال الحافظ فى التقريب : ضعيف وهو فى ضعيف الجامع [٣٢٦٩] .

(٣) البخارى فى : ٨٢ ـ كتاب القدر : ١٣ ـ باب من تعوذ بالله من درك الشقاء : حديث [٦٦١٦] ، ومسلم فى الذكر والدعاء حديث [٢٧٠٧] وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٤٦ .

بتقصيره عن الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر ، وحسن التواضع فى النعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ، لقوله ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »(١) . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر ، وهى درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخرة ؟

لكن نقول : إذا أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف المال إلى الطاعة ، فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضاً ، وفيه فرح بنعمة الله عزوجل ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التنعم المباح ، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار .

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر هنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له فى المباحات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص ، لأن السابق إلى أفهام الناس ، من نعمة الأموال ، والغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ، فإذن الصبر الذى يتعمده العامة أفضل من هذا الشكر الذى يفهمونه ، ومتى لحظت المعنى الذى ذكرناه ، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً فى بعض الأحوال ، فرب فقير

---

(١) [صحيح] أبو داود فى : ٣٥ـ كتاب الأدب : ١٢ .ـ باب فى شكر المعروف : حديث [٤٨١١]، والترمذى فى البر والصلة ، حديث [١٩٥٤ ، ١٩٥٥] ، والبخارى فى « الأدب المفرد» [٢١٨] وابن حبان [٢٠٧٠ موارد]، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٠٣ و ٣٨٨ و ٣٩٥ ، وهو فى «صحيح الجامع » رقم [٧٧١٩] .

صابر أفضل من غنى شاكر كما ذكر ، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير الذى لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، ويصرف الباقى فى الخيرات أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة ، فهذا أفضل من الفقير الصابر والله سبحانه وتعالى أعلم .

كتاب الرجاء والخوف

اعلم : أن الرجاء والخوف جناحان ، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود ولابد من بيان حقيقتهما وفضليتهما ، وسببهما ، وما يتعلق بذلك ، ونحن نذكرهما فى شطرين :

الأول : فى الرجاء .والثانى : فى الخوف .

الشطر الأول : الرجاء .

واعلم : أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمى حالاً ، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة ، كصفرة الذهب ، وإلى سريعة ، كصفرة الوجل ، وإلى ما بينهما كصفرة المرض ، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام ، وإنما سمى غير الثابت حالاً ، لأنه يحول عن القلب .

واعلم : أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود فى الحال وإلى موجود فيما مضى .

فالأول : يسمى وجداً وذوقا وإدراكاً .

والثانى : يسمى ذكراً ، وإن كان قد خطر ببالك شىء فى الاستقبال ، وغلب على قلبك ، سمى انتظاراً وتوقعاً ، فإن كان المنتظر محبوباً ، سمى رجاء ، وإن كان مكروهاً ، سمى خوفاً .

فالرجاء : هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المتوقع لابد له من سبب حاصل ، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ، ولا معلوم الانتفاء ، سمى تمنياً ، لأنه انتظار من غير سبب ، ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد

فيه ، فأما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها ، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها ، ولكن يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار ومساقي الماء إليها .

وأن القلب المستغرق بالدنيا ، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر .

ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحداً إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب ، وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة .

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ، ولا عفن ، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة ، نقّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع ، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة ، إلى أن يتم الزرع غايته، فهذا يسمى انتظاره رجاء .

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء لم يتعاهدها أصلاً، ثم انتظر الحصاد ، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً ، لا رجاء .

وإن بث البذر في أرض طيبة ، ولكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار ، سمي انتظاره تمنياً لا رجاءً .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره ، وهو فضل الله سبحانه ، بصرف الموانع المفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه ماء الطاعات ، وطهر القلب

من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت ، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، كان ذلك حمقاً وغروراً . قال الله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف :١٦٩] وذم القائل :﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٦] .

وروى شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله عزوجل الأمانى »[1] .

وقال معروف الكرخى رحمه الله : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق .

ولذلك قال الله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

المعنى : أولئك يستحقون أن يرجوا ، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضاً قد يرجون ذلك .

واعلم : أن الرجاء محمود ، لأنه باعث على العمل ، واليأس مذموم ، لأنه صارف عن العمل ، إذ من عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء مغور ، وأن البذر لا ينبت ، ترك تفقد الأرض ، ولم يتعب فى تعاهدها .

(١) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٤ / ١٢٤ ،والحاكم [٤ / ٢٥١] وصححه والترمذى فى صفة القيامة [٢٤٥٩] وابن ماجة فى الزهد [٤٢٦٠] والبغوى فى شرح السنة [٤٠١٢] والبيهقى فى الشعب [١٠٥٤٦] وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٤٣٠٥] .

وأما الخوف ، فليس بضد الرجاء ، بل رفيق له ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عزوجل ، والتنعم بمناجاته ، والتلطف فى التملق له ، فإن هذه الأحوال لابد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك ، أو شخصاً من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله سبحانه وتعالى ؟ فمتى لم يظهر استدل به على حرمان مقام الرجاء ، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات ، فهو مغرور .

فصل فى فضيلة الرجاء

روى فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « قال الله عزوجل : أنا عند ظن عبدى بى » (١) وفى رواية أخرى « فليظن بى ما شاء » (٢) .

وفى حديث آخر من رواية مسلم : أن النبى ﷺ قال : « لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٣) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى ، قال : يا رب : كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى .

---

(١) البخارى فى : كتاب التوحيد : باب قول الله ـ تعالى ـ « ويحذركم الله نفسه » : حديث [٧٤٠٥] ، ومسلم فى : كتاب التوبة : باب فى الحض على التوبة حديث [٢٦٧٥]

(٢) [صحيح] ابن حبان فى صحيحه [٧١٧موارد] وأحمد فى المسند [٣/ ٤٩١] والحاكم [٤/ ٢٤٠] وصححه ووافقه الذهبى والدارمى [٢/ ٣٩٥] .

(٣) [صحيح] مسلم فى : كتاب الجنة : باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت : حديث [٢٨٧٧]، وأبو داود فى الجنائز ، حديث [٣١١٣] ، وابن ماجة فى الزهد [٤١٦٧] وأحمد فى المسند [٣/ ٢٩٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٥] .

وعن مجاهد رحمه الله قال : يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار ، فيقول : ما كان هذا ظني فيقول : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تغفر لى ، فيقول : خلوا سبيله .

فصل فى دواء الرجاء والسبب الذى يحصل به

اعلم :أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان :

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة .

وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله .

فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة ، فلا ينبغى أن يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف ، فإن أدوية الرجاء تقلب فى حقه سموماً ، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة ، مضر لمن غلبت عليه الحرارة .

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً ، ناظراً إلى مواضع العلل ، معالجاً كل علة بما يليق بها ، وهذا الزمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف ، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان المقصود استمالة القلوب إليه ، لإصلاح المرضى .

وقد قال على رضى الله عنه :إنما العالم الذى لا يُقنِّط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم مكر الله .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن من أسباب الرجاء ، ما هو من طريق الاعتبار ، ومنها ما هو من طريق الإخبار ، أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ذكرناه من أصناف النعم فى كتاب الشكر ، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده فى الدنيا ، وعجائب حكمته التى راعاها فى فطرة الإنسان ، وأن لطفه الإلهى لم يقتصر عن عباده فى دقائق مصالحهم فى الدنيا ، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات فى الرتبة ، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد ؟! فإن من لطف فى الدنيا لطف فى الآخرة ، لأن مدبر الدارين واحد .

وأما استقراء الآيات والأخبار ، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٤] .

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه ، وإنما خوف بها أولياءه ، فقال : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ [الزمر : ١٦] وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] ، وقال : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل ، ١٤ ، ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : ٦] .

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن إبليس قال لربه عزّ وجل : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ، فقال الله عزوجل : فبعزتى وجلالى ، لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم » رواه مسلم(٢) .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ قال :

---

(١) [حسن] أحمد فى « مسنده » ٣ / ٢٩ ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو صدق ، خلط بعد احتراق كتبه كما قال الحافظ فى التقريب وفيه أيضاً دراج صدق فى حديثه عن أبي الهيثم ضعف وقد راوه عن أبى الهيثم لكن للحديث شاهد عند أحمد أيضا [٤ / ٤١] ورواه الحاكم [٤ / ٢٦١] وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة : ٢ ـ باب سقوط الذنوب بالاستغفار : حديث [٢٧٤٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٠٩ ، والحاكم [٤ / ٢٤٦] .

« سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل أحداً الجنة عمله »قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته » (١) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله عزوجل يوم القيامة : يا آدم : قم فابعث بعث النار فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك ، يا رب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ يشيب المولود ﴿ **وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾[الحج : ٢] » . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوهم ، وقالوا : يا رسول الله ! وأينا ذلك الواحد؟ فقال ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد »فقال الناس : الله أكبر ، فقال النبى ﷺ : « والله إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة والله إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، والله إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبر الناس ، فقال : « ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض » (٢) .

فانظر كيف جاء بالتخويف ، فلما أزعج جاء باللطف ، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى ، فينبغى أن تزعج فإذا اشتد قلقها فينبغى أن تسكن ليعتدل الأمر .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليغفرن الله عزوجل يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر .

وروىأن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يضفه وقال : إن

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) البخارى فى : ٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء : ٧ ـ باب قصة يأجوج ومأجوج : حديث [٣٣٤٨]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٩٦ ـ باب قوله « يقول الله لآدم » : حديث [٢٢٢]، والترمذى فى : تفسير القرآن : حديث [٣١٦٨] ، وابن ماجه فى : الزهد : حديث [٤٢٨٣] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٣٨٦ و ٣ / ٣٣ .

أسلمت أضفتك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم ، منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه ، فرده وأخبره فى الحال ، فتعجب من لطف الله تعالى فأسلم .

فهذه الأسباب التى تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين ، فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغى أن يسمعوا شيئاً من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك ، كعبد السوء الذى لا يستقيم إلا بالعصا .

الشطر الثانى من الكتاب فى :

الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم : أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال .

مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل .

ويجوز العفو ، ولن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ،وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه .

وأخْوَف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال النبىﷺ : « أنا أعرفكم

بالله ، وأشدكم له خشية »[١] . وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشى ، وقد يفضى إلى الموت ، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل .

وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصى وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل .

قال بعضهم : «من خاف أدلج »[٢] وقال آخر : ليس الخائف من بكى ، إنما من ترك ما يقدر عليه .

ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له الشغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع فى مخالب سبع ضار لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقُوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وصفاته ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

(١)[متفق عليه] البخارى فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح : ١ ـ باب الترغيب فى النكاح : حديث [٥٠١٣] ، ومسلم فى الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته حديث [٢٣٥٦] وأحمد فى «المسند» [٦ / ٤٥] .

(٢) هذا الحديث عن رسول الله ﷺ رواه الترمذى فى صفة القيامة [٢٤٥٠] وقال : حسن غريب والحاكم [٤ / ٣٠٧] ومسند عبد بن حميد [٢ / ١٥٦] وفى إسناده يزيد بن سنان التميمي قال الحافظ فى «التقريب» ضعيف لكن للحديث شاهد عند الحاكم [٤ / ٣٠٨] وأبو نعيم فى الحلية [٨ / ٣٧٧] وصححه الألبانى بشاهده هذا فى الصحيحة [٢٣٣٥] وهو فى صحيح الجامع [٦٢٢٢] .

وأقل الدرجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمى ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

فصل الخوف سوط الله تعالى

اعلم :أن الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى .

والخوف ، له إفراط ، وله اعتدال ، وله قصور .

والمحمود من ذلك الاعتدال ، وهو بمنزلة السوط للبهيمة ، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وليس المبالغة فى الضرب محمودة ، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود ، وهو كالذى يخطر بالبال عند سماع آية ، أو سبب هائل ، فيورث البكاء ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ، رجع القلب إلى الغفلة فهو خوف قاصر قليل الجدوى ، ضعيف النفع ، وهو كالقضيب الضعيف الذى يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها ، وهذا هو الغالب على الناس كلهم ، إلا العارفين والعلماء ، أعنى العلماء بالله وبآياته ، وقد عز وجودهم ، وأما المرتسمون برسوم العلم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف .

وأما القسم الأول :وهو الخوف المفرط ، فهو كالذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، فهو أيضاً مذموم ، لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج المرض والوله والموت ، وليس ذلك محموداً ، وكل ما يراد لأمر ، فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه ، فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة والفكر ، والذكر ، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى الحياة ، مع

صحة البدن وسلامة العقل ، فإذا قدح في ذلك شيء ، كان مذموماً .

فإن قيل : فما تقول فيمن مات من الخوف ؟

فالجواب : أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف ، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة ، كان أفضل ، فإن السعادة طول العمر فى طاعة الله تعالى ، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران .

بيـان أقسـام الخـوف

اعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدارج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة ، وأعلى من هذا خوف السابقة لأن الخاتمة فرع السـابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يُسأل عما يفعل .

وقد قال : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » (١) .

ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر .

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها ، مخوفة .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٥ / ٢٣٩] قال الهيثمى فى المجمع [٧ / ١٢٠] وفيه البراء بن عبد الله الغنوى ، قال ابن عدى : وهو أقرب عندى إلى الصدق منه إلى الضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح إلا أن الحسن لم يسمع من معاذ ، والبراء قال فيه الحافظ فى [التقريب] : ضعيف .

فصل فى فضيلة الخوف والرجاء
وما ينبغى أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، وهى لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] .

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه ، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » (١) .

وفى حديث آخر : « لن يغضب الله على من كان فيه مخافة » .

وقال النبى ﷺ: قال الله عزوجل : « وعزتى وجلالى ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا ، أمنته يوم القيامة »(٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية الله ، و عين باتت تحرس فى سبيل الله »(٣) .

واعلم :أن قول القائل : أيما أفضل الخوف ، أو الرجاء ، كقوله : أيما أفضل الخبز أو الماء ؟

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا ، نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء دواءان يُداوى

(١) [ضعيف] الخطيب فى « تاريخه » ٤ / ٥٦ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٣٩١] .

(٢) [صحيح بشواهده]رواه أبو نعيم فى « الحلية » [٦ / ٩٨] وابن حبان [٢٤٩٤موارد] وحسنه .

(٣) [صحيح] الترمذى فى : كتاب فضائل الجهاد : باب ماجاء فى فضل الحرس فى سبيل الله : حديث [١٦٣٩] ،وأبو يعلى فى «مسنده» رقم [١٥٩١] ، جـ ١٠ / ٣٠٨ وهو فى «صحيح الجامع» رقم [٤١١٣] .

بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ،ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ، كما يقال : الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع ، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء ،ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل هذا الاعتبار ، لأن المعاصى والاغترار من الخلق أغلب .

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل ، لأن الرجاء يستقى من بحر الرحمة ، والخوف يستقى من بحر الغضب .

وأما المتقى ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ، لاعتدلا .

قال بعض السلف : لو نودى : ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودى : ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل .

وهذا ينبغى أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقى .

فإن قيل : كيف اعتدال الخوف والرجاء فى قلب المؤمن ، وهوعلى قدم التقوى ؟

فينبغى أن يكون رجاؤه أقوى .

فالجواب : أن المؤمن غير متيقن صحة عمله ، فمثله مثل من بذر بذراً ولم يجرب جنسه فى أرض غريبة ، والبذر الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب وخفايا خبثه وصفائه من النفاق ، وخبايا الأخلاق غامضة ، والصواعق أهوال سكرات الموت ، وهناك تضطرب العقائد ، وكل هذا يوجب الخوف عليه ، وكيف لا يخاف المؤمن ؟

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة رضى الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما أن تلتبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هوالذى يبعث على العمل ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا .

وأما عند نزول الموت : فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه ، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغى لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه ، حسن الظن به .

وقد قال سليمان التيمى عند الموت لمن حضره : حدثنى بالرخص ، لعلى ألقى الله وأنا أحسن الظن به .

فصل فى بيان الدواء الذى يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين :

أحدهما أعلى من الآخر . مثاله أن الصبى إذا كان فى بيت ، فدخل عليه سبع ، أو حية ، ربما لم يخف منه ، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها ، هرب الصبى ، وخاف موافقة لأبيه ، فخوف الأب عن معرفة ، وخوف الولد من غير معرفة ، بل هوتقليد لأبيه .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه ، وهذا خوف عامة الخلق ، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة .

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر ، والتفكر فى عذاب الآخرة ، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ، أو سماع أخبارهم .

المقام الثاني : الخوف من الله تعالى ، وهو خوف العلماء العارفين . قال الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وصفاته سبحانه تقتضى الهيبة والخوف ، فهم يخافون البعد والحجاب .

قال ذوالنون : خوف النار عند خوف الفراق ، كقطرة فى بحر ، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف ، ولكن بمجرد التقليد ، فهو يضاهى خوف الصبى من الحية ، تقليداً لأبيه ، فلذلك يضعف ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب ، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام ، بالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات ، واجتناب المعاصى ، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى ، خافه بالضرورة ، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخاف بالضرورة .

ومن قصر ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى ، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء .

وفى « صحيح مسلم » من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : دعى رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك الشر ولم يعمله ، قال : « أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله عزوجل خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً ، خلقهم وهم فى أصلاب آبائهم » [(١)] .

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهوشديد التخويف ، قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] ، فإنه علق المغفرة على أربعة شروط ، يبعد تصحيحها .

(١) [صحيح] مسلم فى القدر : باب معنى « كل مولود يولد على الفطرة » حديث [٢٦٦٢] . وأبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب السنة : ١٨ ـ باب فى ذرارى المشركين : حديث [٤٧١٣] ، والنسائى [٤ / ٥٧] وابن ماجة فى : المقدمة : حديث [٨٢] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٢٠٨ .

ومن المخوفات قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[العصر : ١ ، ٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط ، بها يقع الخلاص من الخسران ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[السجدة : ١٣]

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع فى التحيل ، فأما ما حق فى القدم ، فلا يمكن تداركه ، فليس إلا التسليم ، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه ، وروح قلوبهم بالرجاء ، لاحترقت من نار الخوف .

وقال أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ : ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه .

ولما حضرت سفيان الثورى الوفاة : جعل يبكى ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله : أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض وقال : لذنوبى أهون عندى من هذا ، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت .

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

ويروى أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الجوع والعرى ، فأوحى الله عزوجل إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرنى حتى تسألنى الدنيا؟! فأخذ التراب فوضع على رأسه وقال : بلى قد رضيت ، فاعصمنى من الكفر .

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم ، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء ؟!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق .

قال بعضهم : لو أعلم أنى برىء من النفاق ، كان أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد ، إنما أرادوا نفاق الأعمال ، كما ورد فى الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » (١) .

وسوء الخاتمة على رتبتين :

إحداهما أعظم ، وهى أن يغلب على القلب ، العياذ بالله ، شك أو جحود ، عند سكرات الموت وأهواله ، فيقتضى ذلك العذاب الدائم .

والثانية دونها ، وهى أن يسخط الأقدار ، ويتكلم بالاعتراض ، أو يجور فى وصيته ، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب .

وقد روى أن الشيطان لا يكون فى حال أشد على ابن آدم من حال الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا ، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه .

وقد روى عن النبى ﷺ ، أنه كان يدعو : « اللهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » (٢) .

قال الخطابى : وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة ، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت ، فلا يرضى بقضاء الله عز وجل .

والأسباب التى تفضى إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك . أما الختم على الشك والجحود ، فسببه

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : الإيمان : باب علامة المنافق : حديث [٣٣] ، ومسلم فى : الإيمان ، باب بيان خصال المنافق : حديث [٥٩] ، والترمذى [٢٦٣١] والنسائى [٨ / ١١٧] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٥٧ .

(٢) [صحيح] أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة : ٣٦٣ ـ باب الاستعاذة حديث [١٥٥٢] ، والنسائى فى : ٥١ ـ كتاب الاستعاذة : ٦٠ ـ باب الاستعاذة من التردى والهدم : حديث [١] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٥٦ ، ٣ / ٤٢٧ .

البدعة ، ومعناها أن يعتقد فى ذات الله تعالى ، أو صفاته ، أو أفعاله خلاف الحق ، إما تقليداً أو برأيه الفاسد ، فإذا انكشف الغطاء عند الموت ، بان له بطلان ما اعتقده ، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له .

ومن اعتقد فى الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير ، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى .

وأما الختم على المعاصى ، فسببه ضعف الإيمان فى الأصل ، وذلك يورث الانهماك فى المعاصى ، والمعاصى مطفئة لنور الإيمان ، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، فإذا جاءت سكرات الموت ، وازداد ذلك ضعفاً ، لاستشعاره فراق الدنيا ، فإن السبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة ، وهو حب الدنيا ، والركون إليها ، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد فى قلبه حب الله تعالى أغلب من حب الدنيا ، فهو أبعد من هذا الخطر ، وكل من مات على محبة الله تعالى ، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم ، فضلاً عما يستحقه من الإكرام .

ومن فارقه الروح فى حال خطر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه فى فعله ، أو كان مصراً على مخالفته ، قدم على الله قدوم من قدم به قهرا ، فلا يخفى ما يستحقه من النكال .

فمن أراد طريق السلامة ، تزحزح عن أسباب الهلاك ، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال ، يقلقل قلوب الخائفين .

وقد ورد فى « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، أن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمن أهل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار » (١) .

---

(١) البخارى فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى : ٣٩ ـ باب غزوة خيبر : حديث [٤٢٠٢] . ومسلم فى : ١ كتاب الإيمان : ٤٧ ـ باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه : حديث [١١٢] ، وأحمد فى «مسنده» ٥ / ٣٣٥ .

وروى : « إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء ، قالت الملائكة : سبحان الله ! نجا هذا العبد من الشيطان : يا ويحه ! كيف نجا» ؟ ![1]

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة . فاحذر أسبابها ، وأعد ما يصلح لها ، إياك والتسويف بالاستعداد ، فإن العمر قصير ، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك ، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك ، والإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه .

واعلم : أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح ، إلا أن تقنع بما يقيمك ، وترفض طلب الفضول ، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك ، فإنك متحقق أن الأنبياء كانوا أعقل منك ، فتفكر فى اشتداد خوفهم ، لعلك تستعد لنفسك .

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى فى صفتهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل : ٥٠] .

وقد روينا عن النبى ﷺ أنه قال : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته »[2] وذكر تمام الحديث .

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينه مثل الأنهار ، فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك ، فيقول الله : لكن الذين يحلفون باسمى كاذبين لا يعلمون ذلك .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كان ليلة أسرى بى ، رأيت جبريل عليه السلام كالشن البالى من خشية الله تعالى »[3] .

---

(١) لم أقف عليه .
(٢) الخطيب فى « تاريخه » ١٢ / ٣٠٧ ، و« كنز العمال » رقم [٢٩٨٣٦] .
(٣) لم أقف عليه .

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبى ﷺ وهو يبكى فقال له : « ما يبكيك ، قال : ما جفت لى عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه ، فيلقينى فيها » .

وعن يزيد الرقاشى قال [١] : إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة ، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى ، فيقول لهم الرب عزوجل : يا ملائكتى ما الذى يخسفكم وأنتم عندى ؟ فيقولون : يا رب ! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً ، لا انبسطوا فى فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر .

وقال محمد بن المنكدر [٢] : لما خُلقت النار ، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خُلق آدم عادت .

وروى أنه لما ظهر إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله تعالى إليهما : « ما هذا البكاء ؟ قالا : يا رب ! ما نأمن من مكرك ، فقال تعالى : هكذا فكونا » .

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب : بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائه عام ، وما رفع رأسه إلى السماء بعدما أصاب الخطيئة .

وقال وهيب بن الورد [٣] : لما عاتب الله تعالى نوحا عليه السلام فى ابنه فقال : ﴿ **إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود : ٤٦]، بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينية أمثال الجداول من البكاء .

---

(١) قال الحافظ فى التقريب : زاهدٌ ضعيف .

(٢) قال الحافظ فى التقريب : ثقة فاضل .

(٣) قال الحافظ فى التقريب : ثقة عابد .

وقال أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ : كان يُسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله عزوجل .

وقال مجاهد : لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة ، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ، ثم نادى يا رب : قرح الجبين ، وجمدت العين ، وداود لم يرجع إليه فى خطيئته شىء ، فنودى : أجائع أنت فتطعم أم مريض فتشفى ؟ أم مظلوم فتنصر ، فنحب نحيباً هاج كل شىء نبت ، فعند ذلك غفر له .

وقيل : كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض ، وما به إلا شدة الفرق من الله عزوجل .

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً .

وبكى يحيى بن زكريا عليهماالسلام حتى بدت أضراسه ، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه .

ذكـر خـوف نبينـا (ﷺ)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺقط مستجمعاً ضاحكاً حتى رأى لهواته إنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك فى وجه ، فقلت : يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر و أراك إذا رأيته عُرفت الكراهة فى وجهك ! فقال : « يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » . أخرجاه فى « الصحيحين » [1] .

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٦٨ ـ باب التبسم والضحك : حديث [٦٠٩٢] ، ومسلم فى : ٩ ـ كتاب صلاة الاستسقاء : ٣ ـ باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم : حديث [٨٩٩/١٦] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٥٠٩٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٦ / ٦٦ ، والحاكم فى « مستدركه » ٢ / ٤٥٦ .

وكان ﷺ يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[١] .

ذكر خوف أصحابه رضى الله عنهم

روينا عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد[٢] : وقال : يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تأكل . وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضى الله عنهم .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً . وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال : يا ليتنى كنت هذه التبنة ، يا ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً ، يا ليت أمى لم تلدنى ، وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء .

وقال عثمان ـ رضى الله عنه ـ : وددت أنى إذا مت لا أبعث .

وقال أبو عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ : وددت أنى كنت كبشاً فذبحنى أهلى فأكلوا لحمى ، وحسوا مرقى .

وقال عمران بن حصين : يا ليتنى رماداً تذروه الرياح .

وقال حذيفة ـ رضى الله عنه ـ : وددت أن لى إنساناً يكون فى مالى ، ثم أغلق علىّ بابى ، فلا يدخل علىّ أحد حتى ألحق بالله عز وجل .

وكان مجرى الدمع فى خد ابن عباس رضى الله عنه كالشراك البالى .

وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : يا ليتنى كنت نسياً منسياً .

وقال على ـ رضى الله عنه ـ : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى

---

(١) [صحيح] أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة : ١٦٠ ـ باب البكاء فى الصلاة : حديث [٩٠٤] ، والنسائى فى : ١٣ ـ كتاب السهو : ١٨ ـ باب البكاء فى الصلاة : حديث [١٢٠٧] ، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ٢٥ ، ٢٦ ، وابن حبان [٥٢٢ موارد] .

(٢) رواه مالك فى الموطأ ٥٦ ـ كتاب الكلام : ٥ ـ باب ما جاء فيما يخاف من اللسان بسند صحيح وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠ / ٣٠٢] ورجاله رجال الصحيح .

اليوم شيئاً يشبههم . لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله تعالى ، يراوحون بين جباههم ، أقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزوجل ، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان : وددت والله أنى شجرة أكلتنى ناقة ، ثم قذفتنى بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إنى أخاف الداهية الكبرى .

وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفر وتغير ، فيقال : ما لك ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر .

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاضُ الطير ، ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته ، وبكى ليلة فبكى أهل الدار ، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : يأبى أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدى الله تعالى ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ثم صرخ وغشى عليه .

ولما أراد المنصور بيت المقدس ، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له : أخبرنى بأعجب ما رأيت من عمر ، فقال : بات ليلة على سطح غرفتى هذه وهو من رخام ، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب ، فصعدت فإذا هو ساجد ، وإذا دموع عينه انحدر من الميزاب .

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلى أنهما بكيا الدم .

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكرى : دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس وتفرغ لنفسه ، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة ، وذكر الموت . قال : فجعل يشهق حتى خرجت نفسه .

وقال مسمع : شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ ، فمات يومئذ فى ذلك المجلس أربعة أنفس .

وكان يزيد بن مرشد يبكى كثيراً ويقول : والله لو تواعدنى ربى أن يسجننى فى الحمام ، لكان حقى أن لا أفتر من البكاء ، فكيف وقد تواعدنى أن يسجننى فى النار إن عصيته ؟!

وقال السرى السقطى : إى لأنظر كل يوم إلى أنفى مخافة أن يكون قد اسود وجهى .

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا ، فالقلب الصافى تحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ .

قال بعض السلف : قلت لراهب : أوصنى ، فقال : إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام ، فهو خائف حذر يخاف أن يغفو فيفترسنه ، أو يسهو فينهشنه ، فهو مذعور فافعل ، قلت : زدنى . فقال : الظمآن يجزيه من الماء أيسره .

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام ، فهو حقيقة فى حق المؤمن ، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته ، رآه مشحوناً بالسباع والهوام كالغضب ، والحقد ، والحسد والكبر ، والعجب ، الرياء ، وغير ذلك ، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن ، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها ، فإذا انكشف الغطاء ووضع فى القبر ، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه ، وإنما هى صفاته الحاضرة الآن ، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل ، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه ، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام .

آخر كتاب الخوف .

كتاب الزهد والفقر

واعلم : أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وبعضها أسباب كل طاعة ، وقد سبق ذم الدنيا فى ربع المهلكات ، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها ، فإنه رأس المنجيات ومقاطعتها ، إما تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ، ويسمى ذلك زهداً ، ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الإعانة علي الفوز والنجاة ، ونحن نذكر الفقر ، والزهد ، ودرجاتهما ، وأقسامهما ، وما يتعلق بهما فى شطرين :

الشطر الأول من الكتاب فى الفقر :

اعلم : أن الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه ، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود ، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى .

وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره :

الأولى : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه بغضاً له واحترازاً من شره وشغله ، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً .

الحالة الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً .

الثالثة : **أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ** من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً .

الرابعة : أن يكون تركه للطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه ، ولو وجد سبيلاً

إلى طلبه بالتعب لطلبه ، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص .

الخامسة : أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال ، كالجائع ، والعارى الفاقد للمأكول والملبوس ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً ، كيفما كانت رغبته فى الطلب ضعيفة أو قوية .

وأعلى هذه الخمسة : الحالة الأولى ، وهى : الزهد ، ووراءها حالة أخرى أعلى منها ، وهى أن يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فإن وجده لم يفرح به ، ولم يتأذ إن فقده ، كما روينا عن عائشة رضى الله عنها أنها جاءها مال فى غرارتين ، ففرقته فى يومها ، فقالت لها جاريتها : أما استطعت أن تشترى لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكرتنى لفعلت .

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى . لا فى يد نفسه .

وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً ، ومتى كان الزاهد فى الدنيا لا يرغب فى وجودها ، ولا عدمها ، فهو فى غاية الكمال .

قال أحمد بن أبى الحوارى لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التى أهديتها لى ، فإن الشيطان يوسوس لى أن اللص قد أخذها ، فقال أبو سليمان : هذا من ضعف الزهد ، وهو قد زهد فى الدنيا ما عليه من أخذها ، فالهرب من المال والزهد فيه فى حق الضعفاء كمال ، فأما فى حق الأنبياء والأقوياء ، فسواء عليهم وجوده وعدمه ، وقد يظهر القوى النفار من المال ليقتدى به الضعفاء فى الترك ، والله أعلم .

فصل فى فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالى فى معرض المدح فى حق الفقراء : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣]. وقال :﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ [الحشر:٨] .

وأما الأخبار فكثيرة ، منها : قوله ﷺ : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، إلا أن أصحاب الجد محبوسون . . . »(١) وذكر تمام الحديث ، وهو فى « الصحيحين » .

وفيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً »(٢) .

وفيهما من حديث عائشة رضى الله عنها قالت :« ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض» (٣) .

وفى أفراد مسلم من حديث عمر رضى الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلاً يملأ بطنه (٤) .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :« يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام »(٥) قال الترمذى : حديث صحيح .

(١) البخارى فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح : ٨٨ ـ باب حدثنا مسدد : حديث [٥١٩٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٥ / ٢٠٥ ، ٢١٠ .

(٢)[متفق عليه] البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ١٧ ـ باب كيف كان عيش النبى : حديث [٦٤٦٠] ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٤٣ ـ باب فى الكفاف والقناعة : حديث [١٠٥٥] ، وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤١٣٩] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٤٤٦ و ٤٨١ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .

(٥)[صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣٧ ـ باب ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم : حديث [٢٣٥٣] ، وابن ماجة فى الزهد [٤١٢٢] وابن حبان [٢٥٦٧ موارد] وأبو نعيم فى الحلية ٧ / ٩١ ، وأحمد فى المسند [٢ / ٥١٢ ، ٥١٣] .

وقال ﷺ لعائشة رضى الله عنها : « إياك ومجالسة الأغنياء » (١) .

وقال : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله عزوجل إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك علىّ ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة ، اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهى ، فخذ بيده فهو لك » (٢) .

وقيل لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته .

وقال أبو الدرداء : حساب ذى الدرهمين أشد حساباً من ذى الدرهم .

وكان الفقراء يتقدمون فى مجلس سفيان الثورى على الأغنياء .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها ، وقال : تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء !؟ لا أفعل .

وقال النبى ﷺ : « طوبى لمن هُدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ، وقنع بما آتاه الله عزوجل » (٣) .

وقد ذكرنا فى القناعة وذم الحرص والطمع فى كتاب ذم المال ما يغنى عن الإعادة ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر .

وأما التفضيل بين الغنى والفقير ، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ، ولكن

---

(١) [ضعيف] الترمذى فى : ٢٥ ـ كتاب اللباس : ٣٨ ـ باب ماجاء فى ترقيع الثوب : حديث [١٧٨٠] ، وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان قال : وسمعت محمداً يقول : صالح بن حسان منكر الحديث وصالح بن حسان قال الحافظ فى : التقريب : متروك .

(٢) قال العراقى فى « المغنى » [٤ / ١٩٧] أخرجه أبو الشيخ فى « كتاب الثواب » من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٣) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣٥ ـ باب ماجاء فى الكفاف والصبر عليه : حديث [٢٣٤٩] ، وأحمد فى « مسنده » ٦ / ١٩ ، وهو فى صحيح الجامع » رقم [٣٩٣١] .

لابد من تفصيل ، فنقول : إنما يتصور الشك والخلاف فى فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى شاكر ينفق ماله فى الخيرات ، أو فقير حريص مع غنى حريص ، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله فى الخير أفضل من الفقير الحريص ، فإن كان متمتعاً بالمال فى المباحات ، فالفقير القنوع أفضل منه .

وكشف الغطاء فى هذا أن ما يراد لغيره ، ولا يراد لعينه ، ينبغى أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى ، والفقر ليس مطلوباً لعينه ، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم التشاغل عنه .

وكم من غنى لا يشاغله الغنى عن الله تعالى ، كسليمان عليه السلام ، وكذلك عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما .

وكم من فقير شغله فقره عن المقصود ، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به وإنما الشاغل له حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى ، فإن المحب للشىء مشغول به ، سواء كان فى فراقه ، أو فى وصاله ، بل قد يكون شغله فى الفراق أكثر .

والدنيا معشوقة الغافلين ، فالمحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها . وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر ، فالفقير عن الخطر أبعد ، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تجد ، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم ، جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر . وقد تقدم ما يدل على فضله .

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ، ومؤمن فقير ، كانا فى الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ، وحبس الغنى ما شاء الله تعالى أن يحبس ، ثم أدخل الجنة ، فلقيه

الفقير، فقال : أى أخى : ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك ، فقال : أى أخى : حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ، وما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض ، لصدرت عنه رواءً » (١) .

واعلم : أن فراق المحبوب شديد ، فإذا أحببت الدنيا ، كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، وكل من فارق محبوباً كان أذاه فى فراقه بقدر حبه له وأنسه به ، فينبغى أن تحب من لا يفارقك ، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التى تفارقك .

فصل فى آداب الفقير فى فقره

ينبغى له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر .

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً ، ويكون متوكلاً على الله سبحانه ، واثقاً به ومتى عكس الحال ، وكان يشكو إلى الخلق ، ولا يشكو إلى الله تعالى ، كان الفقر عقوبة فى حقه ، فلا ينبغى له إظهار الشكوى ، بل التعفف ، والتجمل . قال الله تعالى ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

وينبغى للفقير أن لا يتواضع لغنّى لأجل غناه ، ولا يرغب فى مجالسته .

وينبغى له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ، ولا يمنع بذل ما فضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل . وروى أبو ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ من مُقِلٍّ إلى فقير فى السر » (٢) .

---

(١) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ١ / ٣٠٤ ، وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ١٠ / ٢٦٣ ، وقال : رواه أحمد وفيه دويد غير منسوب فإن كان هو الذى روى عن سفيان فقد ذكره العجلى فى كتاب الثقات ، وإن كان غيره لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح غير مسلم بن بشير وهو ثقة وقال الشيخ شاكر فى تعليقه على المسند اسناده مشكل عندى .

(٢) [ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٥ / ١٧٩ وفى اسناده عبيد بن الخشخاش قال الحافظ : لين ، وفيه أيضا أبى عمر الدمشقى قال الحافظ ضعيف والحديث رواه ابن حبان [٩٤ موارد] وقال الهيثمى فى موارد الظمآن : فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى ، قال أبو حاتم و غيره : كذاب .

بيـان آدابه فى قبـول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغى أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطى ، وغرضه فى الأخذ .

الأول : أما فى نفس المال ، فينبغى أن يكون خالياً عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه .

وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه ، وما يستحب .

وأما غرض المعطى ، فلا يخلو ، إما أن يكون طلباً للمحبة ، وهو الهدية ، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة .

الثانى : أن يكون غرض المعطى الثواب ، والزكاة والصدقة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه ، هل هو مستحق أم لا ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وإن كان صدقة ، فكان المعطى إنما يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفاً لمعصية فى السر ، يعلم أن المعطى لو علم بذلك ، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه ، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن .

الثالث : أن يكون غرض المعطى الشهرة والرياء والسمعة ، فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ، ولا يأخذه ، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد ، وأما غرضه فى الأخذ ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه ؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه وإن كان محتاجاً إليه ، وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها ، فالأفضل له الأخذ ، لما روى عن عمر رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك » أخرجاه فى « الصحيحين » [(١)].

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة : ٥١ ـ باب من أعطاه الله شيئاً من غير مسألة : حديث [١٤٧٣]، ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٣٧ ـ باب إباحة الأخذ لمن أعطى من غير مسألة : حديث [١٠٤٥] والنسائى فى : الزكاة : باب من آتاه الله مالاً من غير مسألة : حديث [٣، ٤، ٥] ، أوحمد فى « مسنده » ١ / ١٧ و ٢١ .

وفى حديث آخر : « من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة ، فليقبله ، ولا يرده ، فإنما هو رزق ساقه الله إليه » (١) .

فصل فى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فى السؤال

اعلم : أنه قد ورد فى السؤال أحاديث فى النهى عنه ، وفى الترخيص فيه .

أما الترخيص : فكقوله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » (٢) وفى بعض الأحاديث : « ردوا السائل ولو بظلف محرق » (٣). ولو كان السؤال حراماً ، لما جاز إعانة المعتدى على عدوانه ، والإعطاء إعانة .

وأما أحاديث النهى عن السؤال : فروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عزوجل وليس فى وجهه مزعة لحم » أخرجاه فى « الصحيحين » (٤) .

وفيهما أيضاً : أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » واليد العليا المعطية ، والسفلى السائلة (٥) .

---

(١) [صحيح] : رواه أحمد فى المسند [٤ / ٢٢٠ ، ٢٢١] بسند صحيح وابن حبان فى صحيحه [٨٥٤ موارد] وصححه الحاكم [٦٢/٢] ووافقه الذهبى وهو فى الصحيحة [١٠٠٥] .

(٢) [صحيح] أبو داود فى : ٤ ـ كتاب الزكاة : ٣٣ ـ باب حق السائل : حديث [١٦٦٥] ، وأحمد فى « مسنده » رقم [١ / ٢٠١] ، وقال الحافظ العراقى : اسناد جيد ورجاله ثقات وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على المسند وهو فى ضعيف الجامع [٤٧٤٦] .

(٣) [صحيح] النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة : ٧٠ ـ باب ردّ السائل : حديث [١] ، وأحمد فى « مسنده » [٤ / ٧٠] ، ومالك فى الموطأ [٢ / ٢٢٠] وابن حبان [٨٢٥ موارد] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٣٥٠٢] .

(٤) [صحيح] البخارى فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة : ٥٢ ـ باب من سأل الناس تكثراً : حديث [١٤٧٤] ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٣٥ ـ باب كراهة المسألة للناس : حديث [١٠٤٠] ، والنسائى فى : الزكاة : باب المسألة : حديث [٢] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ١٥ و ٨٨ .

(٥) [صحيح] البخارى فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة : ١٨ ـ باب لا صدقة إلاَّ عن ظهر غنى : حديث [١٤٢٩] ، ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة : ٣٢ ـ باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى : حديث [١٠٣٣] ، والنسائى فى : الزكاة : باب اليد السفلى : حديث [١] ، وأحمد فى « مسنده » ٤ / ٢٢٦ .

وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه أنه ﷺ قال : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً فى وجهه . . . »[1] إلى آخره ، وهو حديث حسن ، وفى المعنى أحاديث كثيرة .

وكشف الغطاء فى هذا أن نقول : السؤال فى الأصل حرام ، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور :

أحدها : الشكوى .

والثانى : إذلال نفسه ، وما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه .

والثالث : إيذاء المسئول غالباً .

وإنما يباح السؤال فى حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة . أما المضطر ، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً ، وكسؤال العارى الذى ليس له ما يواريه .

وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها ، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهى إلى حد الضرورة ، فكذلك من يقدر على المشى لكن بمشقة ، ويجوز له أن يسأل أجرة يكترى بها للركوب ، وتركه أولى . ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم ، فله أن يسأل مع الكراهة ، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة .

وينبغى فى مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى ، ولا يسأل سؤال محتاج ، بل يقول : أنا مستغن بما أملكه ، وإنما النفس تطالبنى ، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى .

---

(١) [صحيح] أبو داود فى : ٤ ـ كتاب الزكاة : ٢٣ ـ باب من يعطى من الصدقة : حديث [١٦٢٦]، والترمذى فى الزكاة رقم [٦٥٠] والنسائى [٥ / ٩٧] وابن ماجة فى الزكاة [١٨٤٠] والدارمى [١٦٤٠] والحاكم فى المستدرك [٣ / ١٨٨] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٦٢٧٩] .

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه ، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم ، فيخرج بذلك من الذل .

وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياء ، لم يجز له الأخذ ، ويجب رده إلى صاحبه .

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه ، من بيت يكنه ، وثوب يستره ، وطعام يقيمه .

ويراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق في شيء من ذلك ، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم ، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته ، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه ، أو خاف أن يعجز عن السؤال ، أبيح له السؤال أكثر من ذلك .

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته ، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي في تقدير الغنى بخمسين درهماً ، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة ، فأما ذو العائلة فلا .

بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافي يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أُعطي لا يأخذ ، فهذا من الروحانيين .

وفقير لا يسأل ، وإن أُعطي أخذ ، فذاك من أهل حظيرة القدس .

وفقير إذا احتاج سأل ، فكفارة مسألته صدقه في السؤال .

قال الشيخ جمال الدين رحمه الله : قلت : وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال ، لم يجز له أن يسأل ، فإن كان يندفع على مضض نظرت ، فإن كان مثله لا يحتمل ، ولا يخاف منه التلف ، فالسؤال مباح وتركه فضيلة وإن كان مثله لا يحتمل ، وجب عليه أن يسأل .

قال سفيان الثوري رحمه الله : من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

الشطر الثانى من الكتاب :

وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم : أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شىء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً فى نفسه ، لم يُسَمَّ زاهداً ، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً .

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزهد بمن ترك الدنيا ، ومن زهد فى كل شىء سوى الله تعالى ، فهو الزاهد الكامل ، ومن زهد فى الدنيا مع رغبته فى الجنة ونعيمها فهو أيضاً زاهد ، ولكنه دون الأول .

واعلم : أنه ليس من الزهد ترك المال ، وبذله على سبيل السخاء والقوة ، واستمالة القلوب ، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة .

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب ، والآخرة كالدر يبقى ، قويت رغبته فى بيع هذه بهذه . وقد دل على ذلك قوله تعالى :﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[النساء ٧٧]، وقوله : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] .

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى :﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه ١٣١].

وقال النبى ﷺ : « من أصبح وهمه الدنيا ، شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح

وهمه الآخرة ، جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة »(١) .

وقال الحسن : يحشر الناس عراةً ما خلا أهل الزهد ، وقال : إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فأهينوها ، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها .

وقال الفضيل : جعل الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

وكان بعض السلف يقول : الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن .

فصل فى درجات الزهد وأقسامه

من الناس من يزهد فى الدنيا وهو له مُشته ، لكنه يجاهد نفسه ، وهذا سمى : المتزهد ، وهو مبدأ الزهد .

الدرجة الثانية : أن من الناس من يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك ، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه ، فيكاد يعجب بنفسه ، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه ، كما يترك درهماً لأخذ درهمين ، وهذا أيضاً نقصان .

الدرجة الثالثة : وهى العليا أن يزهد طوعاً ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً ، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشىء ، فيكون كمن ترك خرقه ، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أخس من خرقة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال فى الزهد .

واعلم : أن مثل من ترك الدنيا ، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه ،

(١) [صحيح] رواه ابن ماجة فى الزهد ، باب الهم بالدنيا حديث [٤١٠٥] وابن حبان [٧٢ موارد] وأحمد فى المسند [٥ / ١٨٣] وقال البوصيرى فى الزوائد : إسناده صحيح رجاله ثقات وهو فى صحيح الجامع رقم [٦٥١٦] .

فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل ، فقرب من الملك ، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلب فى باب الله عز وجل ، ويمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة ، فمن تركها لينال عز الملك ، فكيف يلتفت إليها ؟ ثم إن نسبتها ، أعنى ما سلم لكل شخص منها ولو عمرّ ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، لأن الفانى لا نسبة له إلى الباقى ، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة ؟

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه ، فعلى ثلاث درجات :

أحدها : الزهد للنجاة من العذاب ، والحساب ، والأهوال التى بين يدى الآدمى وهذا زهد الخائفين .

الدرجة الثانية : الزهد للرغبة فى الثواب ، والنعيم الموعود به ، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم .

الدرجة الثالثة : وهى العليا . هو أن لا يزهد فى الدنيا للتخلص من الآلام ، ولا للرغبة فى نيل اللذات ، بل لطلب لقاء الله تعالى ، وهذا زهد المحسنين العارفين ، فإن لذة النظر إلى الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى لذات الجنة ، كلذة ملك الدنيا ، والاستيلاء عليها ، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به .

فصل فى بيان تفضيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه .

فأما الأول :- وهو المطعم - فاعلم أن همة الزهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ .

وفى الحديث « إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين »[(١)].

وقالت عائشة رضى الله عنها لعروة : كان يمر بنا هلال ، وهلال ، وهلال ، ما يوقد فى بيت رسول الله ﷺ نار ، قال : قلت : يا خالة : فعلى أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : الماء والتمر [(٢)].

والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة .

وقد كان كثير من الزهاد يخشون المطعم ، وكان فيهم من لا يطيق ذلك ، فكان الثورى حسن المطعم ، وربما حمل فى سفرته اللحم المشوى والفالوذج .

وفى الجملة فالزاهد يقصد به بدنه ، ولا يزيد فى التنعم ، إلا أن الأبدان تختلف ، فمنها ما لا يحتمل التخشن .

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال يتقوتة ، فلا يخرجه ذلك من الزهد ، فقد كان السبتى يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته .

وورث داود الطائى عشرين ديناراً ، فأنفقها فى عشرين سنة .

الثانى :الملبس ، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة ، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل ، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة ، وكان أكثر لباس السلف خشناً ، فصار لبس الخشن شهرة .

وقد روى عن أبى بردة قال : أخرجت إلينا عائشة رضى الله عنها كساء ملبداً ، وإزاراً غليظاً ، وقالت : قبض رسول الله ﷺ فى هذين أخرجاه فى «الصحيحين» [(٣)] .

---

(١) [حسن] أحمد فى « مسنده » ٥ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٢٦٦٨] .

(٢) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٦ / ٧١ ، ٨٦ والبخارى فى الأطعمة ، باب ما كان النبى ﷺ وأصحابه يأكلوا حديث [٥٤١٣] ومسلم فى الزهد والرقائق حديث [٢٩٧٢] .

(٣) البخارى فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس : ١٩ ـ باب الأكسية والخمائص : حديث [٥٨١٨] ، ومسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس والزينة : ٦ ـ باب التواضع فى اللباس : حديث [٢٠٨٠] ، وأبو داود فى اللباس رقم [٤٠٣٦] والترمذى فى اللباس [١٧٣٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٢٢ .

وعن الحسن قال : خطب عمر رضى الله عنه وهو خليفة ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة .

الثالث : المسكن ، فللزاهد فيه ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، بل يقنع بزوايا المساجد ، كأصحاب الصفة .

وأوسطها : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، مثل كوخ من سعف ، أو خص وما أشبه ذلك .

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية ، ومتى طلب السعة وعلو السقف ، فقد جاوز حد الزهد فى المسكن ، وقد توفى رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة .

قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ، نلت السقف .

وفى الحديث : « إن المسلم ليؤجر فى كل شىء ينفقه إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب » (١) .

وقال إبراهيم النخعى - رحمه الله - : إذا كان البنيان كفافاً ، فلا أجر ولا وز .

وفى الجملة : إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الزهد .

الرابع : أثاث البيت ، فينبغى للزاهد أن يقتصر فيه على الخوف ، ويستعمل الإناء الواحد فى مقاصده ، فيأكل فى القصعة ، ويشرب فيها ، ومن خرج إلى كثرة العدد فى الآلة ، أو فى نفاسة الجنس ، خرج عن الزهد .

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ . ففى « صحيح مسلم » من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير

---

(١) البخارى فى : ٧٥ - كتاب المرضى : ١٩ - باب تمنى المريض الموت : حديث [٥٦٧٢] ، وابن ماجة فى : ٣٧ - كتاب الزهد : ١٣ - باب فى البناء والخراب : حديث [٤١٦٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٥ / ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٦١ .

وإذا الحصير قد أثر فى جنبه ، فنظرت فى خزانة رسول الله ﷺ ، فإذا أنا بقبضة من شعير ، نحو الصاع . وفى رواية البخارى : فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر . والحديث مشهور فى « صحيح مسلم » (١).

وقال على ـ رضى الله عنه ـ : تزوجت فاطمة وما لى ولها فراش إلا جلد كبش كنا ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه الناضح بالنهار ، وما لى خادم غيرها ، ولقد كانت تعجن ، وأن قُصَّتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذى بها .

ودخل رجل على أبى ذر رضى الله عنه ، فجعل يقلب بصره فى بيته ، فقال : يا أبا ذر ! ما أرى فى بيتك متاعاً ولا أثاثاً ، فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا ، فقال : إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

الخامس : المنكح ، لا معنى للزهد فى أصل النكاح ، ولا فى كثرته .

قال سهل بن عبد الله : حبِّب إلى رسول ﷺ النساء (٢).

وكان على رضى عنه من أزهد الصحابة ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سرية .

وكان أبو سليمان الدارانى يقول : كل ما شغلك عن الله ، من أهل ومال وولد، فهو مشئوم .

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول : من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه ، تعين عليه النكاح ، فأما من لا يخاف ، فهل النكاح فى حقه أفضل أو التعبد ؟ فيه اختلاف بين العلماء ، والناس مختلفون فيه ، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة ، فلا يقدح ذلك فى دينه ، ولا يتشتت قلبه ، بل يجمع

---

(١) مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق : ٥ ـ باب فى الإيلاء : حديث [١٤٧٩] .

(٢) [صحيح] «ولفظه حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة »أخرجه أحمد فى المسند [٣/ ١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥] ، والنسائى [٧/ ٦١] فى عشرة النساء ، والحاكم [٢/ ١٦٠] وصححه ووافقه الذهبى ، وهو فى صحيح الجامع [٣١٢٤] .

النكاح همه ، ويكف بصره ، ويرد فكره ، فهذا غاية فى الفضيلة ، وعليه يحمل حال رسول الله ﷺ، وحال على رضى الله عنه ، ومن جرى مجراهما ، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح ، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود .

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة ، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل ، والنفقة عليها أقل ، والاهتمام بأمرها يسير ، بخلاف المستحسنة ، فإنها تشتت القلب وتشغله ، وتريد زيادة فى النفقة ، وربما لم يكن .

وقد قال مالك بن دينار : يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحى فتقول : أريد مرطاً فتمرُطُ دينه .

السادس : المال : وهو ضرورى فى المعيشة ، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت ، وكان فى الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف .

وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين ، قام .

وكان سعيد بن المسيب يتجر فى الزيت ، وخلف أربعمائة دينار ، قال : إنما تركتها لأصون بها عرضى ودينى .

السابع : الجاه . ولابد للإنسان من جاه حتى قلب خادمه ، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه فى القلب ، فينبغى أن يتحرز من شر ذلك .

وفى الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا ، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال ، فيقولون : لا نأخذه ، نخاف أن يفسد علينا ديننا .

فصل فى بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال ، وإظهار التخشن ، سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من راهب قد لازم الدير ، وقلل المطعم وقوّاه على ذلك حب المحمدة ، كما سبق ذكره فى كتاب الرياء .

ولابد من الزهد فى فضول الأموال والجاه جميعاً ، حتى يكمل الزهد فى حظوظ النفس ، فأول معرفة الزهد مشكل .

وقد قال ابن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، وينبغى أن يعوّل فى هذا على ثلاث علامات :

الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ [الحديد : ٢٣] ، وهذا علامة الزهد فى المال .

الثانى : أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، وهذه علامة الزهد فى الجاه .

الثالث : أن يكون أنسه بالله ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة .

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى ، فهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح ، إذا دخل الماء خرج الهواء ، فلا يجتمعان .

قيل لبعضهم : إلام أفضى بهم الزهد ؟ قال : إلى الأنس بالله .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها ، والزاهد يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها .

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه .

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢] وقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وفي الحديث : أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم ، ثم قال : « هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » أخرجاه في « الصحيحين »[(١)]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[(٢)] وكان من دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك » [(٣)] .

والتوكل ينبني على التوحيد ، والتوحيد طبقات :

منها : أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فيصدق بهذا اللفظ ، لكن من غير معرفة دليل ، فهو اعتقاد العامة .

الثانية : أن يرى الأشياء المختلفة ، فيراها صادرة عن الواحد ، وهذا مقام المقربين

---

(١) [متفق عليه] البخاري في : ٨١ـ كتاب الرقاق : ٢١ـ باب « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » : حديث [٦٤٧٢] ، **ومسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان : ٩٤ـ باب الدليل على دخول طوائف من** المسلمين الجنة بغير حساب : حديث [٢١٨] ، والترمذي في : القيامة : حديث [٢٤٤٦] ، وأحمد في «مسنده» ١ / ٢٧١ و ٤٠١ و ٤٠٣ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) [ضعيف] أورده في « كنز العمال » رقم [٣٦٥٤ ، ٣٧٧٧] ، وهو في « ضعيف الجامع » رقم [١١٨٩] .

الثالثة : أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله ، لم ينظر إلى غيره ، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل ، لأنه فى الحقيقة هو الفاعل وحده ، فسبحان الله والكل مسخرون له ، فلا يعتمد على المطر فى خروج الزرع ، ولا على الغيم فى نزول المطر ، ولا على الريح فى سير السفينة ، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور .

ومن انكشف له الحقائق ، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها ، ولابد لها من محرك، فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتضرب عنقه ، فوقع له الملك بالعفو عنه ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد [1] والقلم الذى كتب به التوقيع ويقول : لولا هذا القلم ما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهذا غاية الجهل ، ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه ، شكر الكاتب دون القلم ، وكل المخلوقات فى قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم فى يد الكاتب ، فسبحان مسبب الأسباب الفعّال لما يريد .

فصل فى بيان أحوال التوكل وأعماله وحده

اعلم : أن التوكل مأخوذ من الوكالة ، يقال : وكل فلان أمره إلى فلان ، أى فوض أمره إليه ، واعتمد فيه عليه .

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل ، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء : الشفقة ،والقوة ، والهداية . فإذا عرفت هذا ، فقس عليه التوكل على الله سبحانه ، وإذا ثبت فى نفسك أنه لا فاعل سواه ، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء علمه علم ، ولا وراء رحمته رحمة ، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك ، فسببه أحد أمرين :

(١) الورق والقرطاس « المعجم الوجيز » ص [٥٣٦] .

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال .

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين ، فإنه من كان يتناول عسلاً ، فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه منه ، وتعذر عليه تناوله .

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبرأو فراش أو بيت ، ونفر طبعه من ذلك وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً فى الحال ، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات ،وذلك جبن فى القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه و قد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت وحده مع غلق الباب وإحكامه .

فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب ،وقوة اليقين جميعاً ، فإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التى تسمى توكلاً ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى خلق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته ، كحالة فى الثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهى أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه ، وأول سابق إلى لسانه : ياأماه فمن كان تألهه إلى الله ، ونظره إليه واعتماده عليه ، كَلُف به كما يكلف الصبى بأمه ، فيكون متوكلاً حقاً .

والفرق بين هذا وبين الأول ، أن هذا متوكل قد فنى فى توكله عن توكله ، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه ، ولا مجال فى قلبه لغيره .

وأما الأول ، فهو متوكل بالتكليف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، بل له

التفات إليه وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده .

الدرجة الثالثة : وهى أعلى منهما ، أن يكون بين يدى الله تعالى مثل الميت بين يدى الغاسل ، ولا يفارقه إلاأنه لا يرى نفسه ميتاً ، وهذا يفارق حال الصبى مع أمه فإنه يفزع إلى أمه ، ويصيح ويتعلق بذيلها .

وهذا الأحوال توجد فى الخلق ، إلا أن الدوام يبعد ، ولا سيما المقام الثالث .

فصل فى بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة ، وكلحم على وَضَم[1] ، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام فى الشرع .

والشرع قد أثنى على المتوكلين ، وإنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه إلى مقاصده ، وسعى العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب ، أو حفظ موجود كالادخار ، وإما لدفع ضر لم ينزل ، كدفع الصائل ، أو لإزالة ضرر قد نزل كالتداوى من المرض ، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة :

الفن الأول : فى جلب المنافع ، فنقول : الأسباب التى بها تجلب المنافع على ثلاث درجات :

أحدها : سبب مقطوع به كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، مثاله : أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع ، فلا تمد يدك إليه وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ، ومد اليد إلى الطعام سعى ، وكذلك مضغه وابتلاعه ، فهذا جنون محض ، وليس من التوكل فى شىء ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام ، أو يخلق فى

---

(١) وضم : هو الخشبة أو البارية . التى يجعل عليها اللحم ، تقيه من الأرض . « النهاية » ٥ / ١٩٨ - ١٩٩ .

الطعام حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله .

وكذلك لو لم تزرع ، وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر ، أو تلد الزوجة من غير وقاع ، فكل ذلك جنون ، وليس التوكل فى هذا المقام ترك العمل ، بل التوكل فيه بالعلم والحال .

أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام ، واليد ، والأسباب ، وقوة الحركة ، وأنه الذى يطعمك ويسقيك .

وأما الحال : فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى ، لا على اليد والطعام ، لأنه ربما جفت يدك ، وبطلت حركتك ، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام ، فمد اليد إلى الطعام لا ينافى التوكل .

الدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها . مثاله من يفارق الأمصار ، ويخرج مسافراً إلى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادراً ، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد ، فهذا كالمجرب على الله تعالى ، وفعله منهى عنه ، وحمله للزاد مأمور به ، فإن رسول الله ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة .

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع ، لم يخرج عن التوكل ، لكنه ربما دخل فى أهل الحرص إذا طلب فضول العيش .

وترك التكسب ليس من التوكل فى شىء ، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة ، وتعللوا بالتوكل .

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : المتوكل الذى يلقى حبه فى الأرض ويتوكل على الله .

الفن الثانى : فى التعرض للأسباب بالادخار ، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه ، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل ، خصوصاً إذا كان له عائلة .

وفى « الصحيحين » [(١)] من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ كان يبيع نخل بنى النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم .

فإن قيل : فقد نهى رسول الله ﷺ بلالاً أن يدخر [(٢)]

فالجواب : أن الفقراء كانوا عنده كالضيف ، فما كان ينبغى أن يدخر فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصفّة كان مقتضاها عدم الادخار ، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب فى دعوى الحال لا على الادخار الحلال .

الفن الثالث : مباشرة الأسباب الدافعة للضرر ، ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر ، فلا يجوز النوم فى الأرض المسبعة ، أو مجرى السيل ، أوتحت الجدار الخراب ، فكل ذلك منهى عنه .

وكذلك لا ينتقص التوكل لبس الدرع ، وإغلاق الباب ، وشد البعير بالعقال . قال الله تعالى : ﴿ **وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٠٢] .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل : قال : « **اعقلها وتوكل** » [(٣)]

ويتوكل فى ذلك كله على المسبب لا على السبب ، ويكون راضياً بكل ما يقضى الله عليه ، ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق ، أو أخذ يشكو ما

---

(١) [**متفق عليه**] البخارى فى المغازى ، باب حديث بنى النضير ، رقم [٤٠٣٣] ومسلم فى الجهاد والسير ، باب حكم الغيىء ، حديث [١٧٥٧] .

(٢) [**حسن**]رواه البزار[١ / ٣٠٢] والطبرانى فى الكبير [١٠٢٠] قال الهيثمى فى المجمع [١٠ / ٢٤١] واسناده حسن

(٣) [**حسن**]الترمذى فى : ٣٨ـ كتاب صفة القيامة : ٦٠ ـ باب حدثنا عمرو : حديث [٢٥١٧] ، وابن حبان [٢٥٤٩ موارد] ، والحاكم [٣/ ٦٢٣] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٠٦٨] .

جرى عليه ، فقد بان بعده عن التوكل .

وليعلم أن القدر له كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح ، قال : لولا أنه علم أن الغذاء ينفعنى ما قدمه ، وإن منعه فرح ، قال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذينى لما منعنى .

واعلم : أن كل من لا يعتقد فى لطف الله تعالى ما يعتقده المريض فى الطبيب الحاذق الشفيق ، لم يصح توكله ، فإن سرق متاعه رضى بالقضاء ، وأحل الآخذ ، شفقة على المسلمين . فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق ، وأخذ ماله ، فقال : إن لم يكن غمك كيف صار فى المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك ، فما نصحت المسلمين .

الفن الرابع : السعى فى إزالة الضرر ، كمداواة المريض ونحو ذلك .

اعلم : أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

إلى مقطوع به ، كالماء المزيل لضرر العطش ، والخبز المزيل لضرر الجوع ، فهذا القسم ليس تركه من التوكل فى شىء .

القسم الثانى : أن يكون مظنوناً ، كالفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، ونحو ذلك . فهذا لا يناقض التوكل ، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوى [(١)] .

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام توكلاً ، كما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قيل له : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : رآنى الطبيب ، قيل : فما قال لك ؟ قال : إنى فعال لما أريد .

قال المصنف ـ رحمه الله ـ: والذى ننصره أن التداوى أفضل ، وتحمل حال أبى بكر رضى الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء ، أو يكون قد علم

---

(١) **[صحيح]** أبو داود فى الطب ، باب فى الرجل يتداوى حديث [٣٨٥٥] ، والترمذى فى الطب [٢٠٣٨] ، وابن ماجة فى الطب [٣٤٣٦] وابن حبان [١٣٩٥ موارد] ، والحاكم [٤ / ١٩٨ ، ٣٩٩] والبخارى فى « الأدب المفرد » [٢٩١] ، وأحمد فى المسند [٤ / ٢٧٨] .

قرب أجله بأمارات .

واعلم : أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى .

القسم الثالث : أن يكون السبب موهوماً ، كالكى ، فيخرج عن التوكل ، لأن النبى ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون .

وقد حمل بعض العلماء الكى المذكور فى قوله : « لا يكتوون » على ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون فى زمن العافية لئلا يمرضوا ، فإن النبى ﷺ كان يرقى الرقية بعد نزول المرض ، وقد كوى أسعد بن زرارة[1] رضى الله عنه .

وأما شكوى المريض ، فهى مخرجة عن التوكل ، وقد كانوا يكرهون أنين المريض ، لأنه يترجم عن الشكوى ، فكان الفضيل يقول : أشتهى مرضاً بلا عوّاد .

وقال رجل للإمام أحمد : كيف أنت ؟ قال : بخير . قال حممت البارحة .

قال : إذا قلت لك : أنا بخير فلا تخرجنى إلى ما أكره .

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده ، فإنه لا يضره . وقد كان بعض السلف يفعل ذلك ، ويقول : إنما أصف قدرة الله فىّ ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة ، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها ، ولا يكون ذلك شكوى .

وقد روينا أن النبى ﷺ قال : « إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم »[2] .

آخر التوكل .

---

(١) [صحيح] ابن ماجة فى الطب ، باب من اكتوى حديث [٣٤٩٢] وأحمد فى « المسند» [٤ / ٦٥] ، و مالك فى الموطأ فى العين ، باب تعالج المريض [٢ / ٧٢٠] وقال الهيثمى فى المجمع [٥ / ٩٨] : رجاله ثقات .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى : ٣ ـ باب أشد الناس بلاءاً الأنبياء : حديث [٥٦٤٨] ، ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ١٤ ـ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه : حديث [٢٥٧١] ، والدارمى فى : الرقاق : حديث [٢٧٧١] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٣٨١ و ٤٤١ و ٤٥٥

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

اعلم : أن المحبة لله تعالى هى الغاية القصوى من المقامات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق ، والأنس ، والرضا ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها ، كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها .

واعلم : أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض ، ومن شواهد المحبة قوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] هذا دليل على إثبات الحب لله ، وإثبات التفاوت فيه .

وفى الحديث الصحيح : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : « ما أعددت لها ؟ » : قال يا رسول الله : ما أعددت لهظا من كثرة صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت » فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها[1] .

وروى أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه ، فقال له : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ؟

فقال : يا ملك الموت اقبض .

وقال الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ: من عرف ربه أحبه ، ومن أحب غير الله تعالى ، لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته ، فأما حب

---

(١) البخارى فى : ٧٨ـ كتاب الأدب : ٩٦ ـ باب علامة حب الله : حديث [٦١٧١] . ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٥٠ ـ باب المرء مع من أحب : حديث [٢٦٣٩] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٥١٢٧] ، والترمذى فى : الزهد : حديث [٢٣٨٦] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٣٩٢ و ٣ / ١٠٤ و ١١٠ .

الرسول ﷺ ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، ولا محبوب فى الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه .

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب :

أحدها : أن الإنسان يحب نفسه ، وبقاءه ، وكماله ، ودوام وجوده ،ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان ، وهذا جبلة كل حى لا يتصور أن ينفك عنها، وهذا يقتضى غاية المحبة لله عزوجل ، فإن الإنسان إذا عرف ربه وعرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله ، وأنه المخترع له ، والموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ، ولذلك قال الحسن البصرى : منعرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا، زهد فيها .

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ،ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه .

السبب الثانى : أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وأعانه على جميع أغراضه ، فإنه محبوب عنده لا محالة .

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك فى كتاب الشكر ، ولكنا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وأن المحسن فى الحقيقة هو الله تعالى .

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك ، ومكنك

فيها لتتصرف كيف شئت ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه بماله ، وبقدرته على المال ، وبداعيته الباعثة له على مصرف المال ، فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه ، وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه ودنياه فى الإحسان إليك ، ولولا ذلك ما أعطاك ، فكأنه صار مقهوراً فى التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره وسخره لك ، فهو جار مجرى خازن أمير أموه أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعها عليه الأمير ، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير ، لأنه مضطر إلى طاعته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه ، لم يبذل حبه من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعى ، ويلقى فى نفسه أن حظه فى بذل ذلك فيبذله ، فينبغى للعارف أن لا يحب إلا الله ، إذ الإحسان من غيره محال .

السبب الثالث : أن المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب فى الطباع ، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس ، متلطف بهم ، وهو فى قطر بعيد ، فإنك تحبه ، وتجد فى نفسك ميلاً كثيراً إليه ، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك ، وهذا ما يقتضى حب الله تعالى ، بل يقتضى أن لا يحب غيره ، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب ، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافه ، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم وترفيههم ، إلى غير ذلك من النعم التى لا تحصى ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعدُّوا نعمت الله لا تُحْصُوها ﴾ [الإسراء : ٨٥] فكيف يكون غيره محسناً ؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى .

وكذلك نقول : كل من كان متصفاً بالعلم ، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة ، فإن ذلك يوجب له المحبة . فصفات الصديقين الذين تحبهم

القلوب طبعاً ، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه ، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث . ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى ، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته سبحانه وتعالى .

أما العلم : فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى يحيط بالكل ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وقد خاطب الخلق كلهم فقال : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ولو اجتمع أهل السماوات والأرض ، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفضيل خلق نملة ، أو بعوضة ، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم ، بتعليمه علموه ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً صفة كمال ، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، وجدت أعظم الأشخاص قوة ، وأوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور ، وهو مع ذلك لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولا على حفظ لسانه من الخرس ، ولا آذانه من الصمم ، ولا بدنه من المرض ، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات ، وما هو قادر عليه من نفسه وغيره ، فليست قدرته من نفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ، ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه .

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين : ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي**

الأَرْضِ ﴾[الكهف : ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى ، فنواصى الخلق جميعهم فى قبضته وقدرته ، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه ، فلا قادر إلا هو ، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن تصور أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه ، فلا يستحق ذلك سواه ، ولا يتصوركمال التقديس والنزيه إلا له سبحانه ، فهو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لا ضد له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ،وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً .

فصل (فى بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه) والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلا من حرُم هذه اللذة

اعلم : أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة غريزة لذة ، ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً ، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع ، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام، ولذة البصر والسمع فى الإبصار والإسماع .

وكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى وقد تسمى العقل ، وتسمى البصيرة الباطنة ،وتسمى نور الإيمان واليقين ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها ، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة ، وذاك لذتها .

وليس يخفى أن الذى يُنسب إلى العلم والمعرفة ،ولو فى شىء خسيس يفرح به

وأن من ينسب إلى الجهل ولو فى شىء خسيس يغتم به ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته ، فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء ، وغزارة العلم ، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالشعر والنحو ، كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السماوات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم ، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها .

وليت شعرى ، هل فى الوجود شىء أجلّ وأعلى وأشرف وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟! وهل يتصور أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لايحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين ؟!

فينبغى أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس ، فإن المعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة ، وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب ، شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء ، وإن كان علىّ الهمة ، كامل العقل ، فإنه يختار الرياسة ، ويهون عليه الجوع ، والصبر على ضرورة القوت أياماً .

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من المطعومات الطيبة ، وكما أن لذة الرياسة وأغلب اللذات على من جاوز نقصان الهمة ، فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويحتقر

الخلق ، لعلمه بفناء رياسته ، وكون ذلك مشوباً بالكدر ، مقطوعاً بالموت ، وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق عنهم ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السماوات والأرض ، يرتع فى رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ هى أبدية سرمدية ، لا يقطعها الموت ، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ، إذ محلها الروح ، وإنما الموت يغير أحوالها ، أما أن يعدمها فلا .

والعارفون درجات عند الله تعالي متفاوتون ، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر ، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيها قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله عزوجل خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى ؟!

وقال بعض أصحاب معروف : قلتُ له : أى شيء أهاجَكَ على العبادة ؟ فسكت .

فقلت : ذكر الموت ؟ فقال : وأى شيء الموت ؟ قلت : ذكر القبر ، وقال : وأى شيء القبر ؟ قلت : خوف النار ورجاء الجنة ، فقال : وأى شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده ، إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك .

وقال أحمد بن فتح : رأيت بشر بن الحارث في منامى فقلت له : ما فعل معروف الكرخى ؟ فحرك رأسه ثم قال : هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب ، إن معروفا لم يعبد الله شوقاً إلي جنته ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله إلي الرفيق الأعلي ، ورفع الحجب بينه وبينه .

فمتي حصلت محبة الله تعالي لشخص ، صار قلبه مستغرقاً بها ، ولا يلتفت

إلى جنة ، ولا يخاف من نار ، فإنه قد بلغ النعيم ليس فوقه نعيم . قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره   وصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذه لذة القلب فى معرفة الله تعالى ، وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، وأما القلب فلذته فى لقاء الله تعالى فقط .

واعلم :أن لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا ، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما يغلب عليها من الصفات البشرية ، لا تنتهى إلى المشاهدة ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار .

والقول فى سبب كونه حجاباً يطول ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا ، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار ، تجلى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم فى الدنيا .

فكل من لا يعرف الله تعالى فى الدنيا ، لا يراه فى الآخرة ،وما يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا زرع ، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة ، والعيش عيش الآخرة . ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾[العنكبوت : ٦٤] .

وعيش الآخرة بقدر المعرفة ، ولهذا جاء فى الحديث : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله »[1]وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر ، والمواظبة على المجاهدة ،والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، فقد عرف بما ذكرنا معنى المحبة ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ولذتها ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال .

(١) سبق تخريجه .

فصل في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس في الحب وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

واعلم : أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً فى الآخرة أقواهم حباً لله تعالى و فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ، ودرك سعادة لقائه ، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ، تمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر ، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة ، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة .

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه ، فلذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بشيئين :

أحدهما : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، فأحد أسبابه ضعف حبه ، وقوة حب الدنيا ، وبقدر ما يزنس القلب ينقص أنسه بالله ، والدنيا والآخرة ضرتان ، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك .

السبب الثانى لقوة المحبة : معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع الدنيا من القلب إلا الفكر الصافى ، والذكر الدائم ، والتشمير فى الطلب ، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه : وأقل أفعاله الأرض وما عليها ، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السماوات .

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذى هى مركوزة فيه وهى فى السماء الرابعة [1] والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السماوات ، ثم السماوات السبع فى الكرسى كحلقة ملقاة

---

(١) لم يثبت فى هذا خبر تصح نسبته إلى النبى ﷺ إنما هو ضرب من الاجتهاد الإنسانى الذى يخضع للمقاييس العلمية الدقيقة ويحكم عليها بموجبها من صواب أو خطأ .

فى فلاة[١] ، والكرسى فى العرش كذلك .

ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض ، فانظر فيه بعقل حاضر ، كيف خلقه الله عزوجل على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، وزاد الجناحين ، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ، ودبره فى سائر أحواله ، ومن القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة ، وانظر كيف خلق له الطيران ، يطير إذا طلب ، وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم .

وانظر إلى النحل فى تناولها الأزهار من الأنوار ، واحترازها عن الأقذار ، وطاعتها إلى كبيرها ، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً ، وإلى اختيارها الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتاً مربعاً ، ولا مستديراً ولا مخمساً ، بل مسدساً لخاصية فى الشكل المسدس ، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه ، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، فلا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ، ثم تتراص الجملة منه ، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس ، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه ، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فانظر فى هذا وأشباهه تزدد المعرفة به ، فتزداد المحبة .

وأما السبب فى تفاوت الناس فى الحب .

فاعلم أن الناس مشتركون فى أصل الحب ، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة ،

---

(١) [ضعيف] ابن حبان فى العلم ، باب السؤال للفائدة [٩٤ موارد] وقال الهيثمى : فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى ، قال أبو حاتم وغيره كذاب ورواه أيضاً محمد بن أبى شيبة فى «كتاب العرش» بسند ضعيف وهو فى الصحيحة [١٠٩] وقد رجع شيخنا الألبانى عن تصحيحه .

فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت أسماعهم ، والعلم البصير يطلع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله ، فتزداد عظمة الله فى قلبه ، فيزداد حباً له ، وتجر المعرفة التى هى معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له .

وأما السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى : فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه ، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشىء من الحواس الخمس ، فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر ، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا .

وجميع ما فى العلم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ، ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وجلاله ، إذ كل ذرة تنادى بلسان حالها : أنه ليس وجودها بنفسها ، وأنها تحتاج إلى موجد لها ، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية ، كالخفاش بالنسبة إلى النهار ، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، وليس عدم إبصاره بالنهار بالنسبة إلى النهار لخفائه ، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش ، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى به عن البصائر والأبصار ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى ، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله تعالى ، إنما يدركها الإنسان فى حال الصبا قبل حضور العقل عنده ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً ، وهو مستغرق الهم ، مشغول به ، وقد أنس بمدركاته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس .

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً ، أو نباتاً ، أو من أفعال الله تعالى عجيباً خارقاً للعادة ، انطلق لسانه بالتعجب ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! وهو يرى طول النهار نفسه ، وجميع أعضائه ، وجميع الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة ، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها .

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً ، ثم انقشعت غشاؤة عينه ، فامتد بصره إلى السماء والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان دفعة واحدة ، لخيف على عقله أن ينبهر ، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب ، وشهادتها لخالقها ، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات ، هو الذى سد على الخلق فى سبيل الاستضاءة بنور المعرفة ، والسباحة فى بحارها الواسعة ، والله أعلم وأحكم .

فصل فى بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

قد تقدم الكلام فى المحبة وإثباتها بالأدلة ، وأن الشوق ثمرة من ثمارها ، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه .

واعلم :أن الشوق لا يتصور إلا لشىء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه .

فأما ما لا يدرك أصلاً ، فلا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية ، وإنما يكون ذلك فى الآخرة .

واعلم : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ، ويبقى أمور لا نهاية لها ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة ، وينتهى الشوق الأول فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ومشاهدة ، ولا يتصور أن يتصور أن يسكن قلب المشتاق فى الدنيا .

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين ، فقال يوماً : يا ربّ ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ، فقد أضر بى القلق . قال : فرأيته عزوجل فى النوم ، فقال : يا إبراهيم ! أما استحييت منى ؟ تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت : يا رب : تهت فى حبك فلم أدر ما أقول .

فهذا الشوق يسكن فى الآخرة . وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له ، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به فهو مشغول بلذة ما ظهر له ، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين ، حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك ، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

ومن شواهد الأخبار ، ما روى أن رسول الله ﷺ علم رجلاً دعاء ، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم ، فذكر فيه : « أسألك اللهم الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك »(1) .

وفى التوارة : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً .

وفى بعض ما أوحى الله عزوجل إلى بعض عباده : إن لى عباداً من عبادى ، يحبونى وأحبهم ، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلىّ ، ويذكرونى وأذكرهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال : يا رب ! وما علامتهم ؟ قال : يرعون الظلال بالنهار ، كما يرعى الراعى الشفيق غنمه ؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام، وفرشت الفرش وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا أقدامهم ، وافترشوا

---

(1) [صحيح] النسائى فى : ١٣ ـ كتاب السهو : ٦٢ ـ باب نوع آخر ـ أى من الدعاء ـ : حديث[١٢٩٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٥ / ١٩١ ، وابن حبان [٥٠٩ موارد] وقال الهيثمى : اسناده قوى وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٣٠١] .

وجوههم وناجونى بكلامى ، وتملقونى بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملونّ من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى .

فصل فى بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالى للعبد ، فاعلم :

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة : ٢٢٢] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾[الصف : ٤] . ونبه على أنه لا يعذب من يحبه ، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله : ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[المائدة : ١٨] . وشرط المحبة غفران الذنوب فقال : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آلعمران : ٣١] .

وفى الحديث الصحيح ، من رواية أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول : « ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . . . . » إلى آخره . وهو حديث مشهور(١) .

ومن علامة حب الله تعالى للعبد ، قول النبى ﷺ : « إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه » (٢) .

ومن أقوى العلامات ، حسن التدبير له ، يربيه من الطفولة على أحسن نظام ، ويكتب الإيمان فى قلبه ، وينور له عقله ، فيتبع كل ما يقربه ، وينفر عن كل ما يبعد

(١) سبق تخريجه .

(٢) [ضعيف]الترمذى فى الزهد ، باب ما جاء فى الصبر على البلاء رقم [٢٣٩٦] وابن ماجة فى الفتن [٤٠٣١] ولفظه « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم » أورده فى « كنز العمال » رقم [٦٨١٦] ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢٩٥].

عنه ، ثم يتولا بتيسير أموره ، من غير ذل للخلق ، ويسدد ظاهره وباطنه ، يجعل همه هماً واحداً ، فإذا زادت المحبة ، شغله به عن كل شيء .

وأما محبة العبد لله تعالى ، فاعلم :

أن المحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى ، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان ، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى ، ما لم يمتحنها بالعلامات ، ويطلبها بالبراهين ، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى فى الجنة ، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته ، ولا ينافى كراهة الموت ، فإن المؤمن يكوه الموت ، ولقاء الله بعد الموت .

ومن السلف من أحب الموت ، ومنهم من كرهه ، إما لضعف محبته ، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا ، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب .

ومنهم من يرى نفسه فى ابتداء مقام المحبة ، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى ، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره ، ويعدل له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه ، فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال المحبة ، وعلامة هذا : الدأب فى العمل ، واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها : أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه ، فيجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل .

ومن أحب الله فلا يعصيه ، إلا أن العصيان لا ينافى أصل المحبة ، إنما يضاد كمالها ، فكم من إنسان يحب ويأكل ما يضره ، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب ، فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوماً ، فحده ، فلعنه رجل

وقال : ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله ﷺ : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله»[1] فلم تخرجه المعصية عن المحبة ، وإنما تخرجه عن كمال المحبة .

ومن العلامات أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى ، ولا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ، ومن ذكر ما يتعلق به .

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره ، وحب القرآن الذى هو كلامه ، وحب رسول الله ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقال بعض السلف : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة ، فكنت أدمن قراءة القرآن ، ثم لحقتنى فترة فانقطعت ، فرأيت فى المنام قائلاً يقول :

إن كنت تزعـم حبى   فَلِـمَ هجرتَ كتـابى
أما تدبرت مـا فيــه   مــن لطيف عتابـى

ومنها : أن يكون أنس بالخلوة ، ومناجاة الله تعالى ، وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته .

روى أن عابداً عبد الله فى غيضة دهراً ، فنظر إلى طائر قد عشش فى شجرة يأوى إليها ، ويصفر عندها . فقال : لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق ، لأحطنك درجة لا تنالها بشىء من عملك أبداً .

---

(١) البخارى : ٨٦ـ كتاب الحدود ، ٥ ـ باب ما يكره من لعن شارب الخمر حديث [٦٧٨٠] ، وعبد الرزاق رقم [١٣٥٥٢ و ١٧٠٨٢] .

فإذن علامة المحبة : كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة ، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة .

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة عين تدفع جميع الهموم ، بل يستغرق الحب والأنس قلبه ، حتى لا يفهم أمور الدنيا ، ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان .

ومنها : أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى ، ويتنعم بالطاعة ، ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها .

قال ثابت البنانى رحمه الله : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

وقال الجنيد : علامة المحبة دوام النشاط ، والدءوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه، وكل هذا موجود المثال فى المشاهدات ، فإن المحب لا يستثقل السعى فى مراد محبوبه ويستلذ خدمته بقلبه ، وإن كان شاقاً على بدنه ، وكل حب قاهر لا محالة ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ، ترك الكسل فى خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه .

ومنها أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم شديداً على أعدائه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾[الفتح : ٢٩] ، ولا تأخذه فى الله ، لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب له صارف ، فهذه ، علامات المحبة ، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته ، وصفا فى الآخرة شربه . ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم فى الآخرة بقدر حبه ، فيمزج شرابه بشىء من شراب المقربين ، كما قال عزوجل : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ** ﴾إلى قوله : ﴿ **يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾[المطففين : ٢٢ ، ٢٨] فقوبل الخالص بالصرف ، والمشوب بالمشوب . ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾[الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ومنها : ما يكون فى حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم ، فإن الخوف لا يضاد المحبة ، ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعضها أشد من بعض فأولها : خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد .

ومنها : كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيماً للمحبوب ، وإجلالاً له ، وهيبة وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، وقد يقع المحب فى دهش وسكر ، فيظهر عليه الحب من غير قصد ، فهو فى ذلك معذور ، كما قال بعضهم .

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم

فصل فى بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عزوجل

اعلم : أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره ، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة .

قال عبدالواحد بن زيد : قلت لراهب : لقد أعجبتك الخلوة ، فقال : لو ذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك ، قلت : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود ، خلصت المعاملة ، قلت : متى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم ، فصار هماً واحداً فى الطاعة .

فإن قيل : ما علامة الأنس ؟ قيل : علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرم بهم ، وإن خالط ، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن ، منفرد بالقلب .

واعلم : أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، قد يثمر نوعاً من الانبساط والإدلال ، وقد يكون ذلك منكراً فى الصورة ، فما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، وإن

كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس . وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام ، أشرف به صاحبه على الكفر ، وذلك كما يروى عن أبى حفص أنه كان يمشى يوماً، فاستقبله رجل مدهوش فقال : ما لك : قال : ضل حمارى ، ولا أملك غيره ، فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، فظهر الحمار .

وروى عن برخ العابد أنه خرج يستسقى فقال : يا رب : أنت بالبخل لا ترمى ، أنفذ ما عندك ، اسقنا الساعة .

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره . وأما الرضا بقضاء الله تعالى ، فهو من أعلى مقامات المقربين ، وهو ثمار المحبة ، وحقيقته غامضة ، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى .

ومن فضائل الرضا ما ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له » (1) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود : إنك إن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك ، ولا أحط لوزرك ، من الرضا بقضائى .

ونظر على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى عدى بن حاتم كئيباً ، فقال : يا عدى : ما لى أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : وما يمنعنى فقد قتل ابناى ، وفقئت عينى فقال : يا عدى ! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله .

ودخل أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ : على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى ، فقال أبو الدرداء : أصبت ، إن الله عزوجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

---

(1) [ضعيف] أورده السيوطى فى « جمع الجوامع » رقم [١١١٧] .

وقال علقمة في قوله عزوجل : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[التغابن : ١١] قال : هى المصيبة تصيب الرجل ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم لها ويرضى .

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[النحل : ٩٧] ، قال : الرضا والقناعة .

وفى الأخبار السالفة : أن نبياً من الأنبياء شكا إلى ربه عزوجل الجوع والفقر عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندى فى الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك ؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ، وعزتى وجلالى ، لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونّك من ديوان النبوة .

وفى « زبور داود » عليه السلام : هل تدرى من أسرع الناس مراً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى .

وقال داود عليه السلام : يا رب ! أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر ، فخرت له فلم يرض .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر .

وقيل له : ما تشتهى ؟ قال : ما يقضى الله عزوجل .

وقال الحسن : من رضى بما قسم له ، وسعه ، وبارك الله فيه ، ومن لم يرض لم يسعه ، ولم يبارك له فيه .

وقال عبد الواحد بن زيد : الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

وقال بعضهم : لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على

كل حال ، فمن وهب له الرضا ، فقد بلغ أفضل الدرجات .

وأصبح أعرابى وقد مات له أباعر كثيرة ، فقال :

لا والذى أنا عبـد فى عبادتـه لولا شـماتة أعداء ذوى إحن

ما سرنى أن إبلى فى مباركهـا وأن شيئـاً قضاه اللـه لم يكـن

فصل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى

ويتصور الرضا فيما يخالف الهوى . وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم ، فتارة يحس به ويدرك ألمه ، ولكنه يكون راضياً به ، راغباً فى زيادته بعقله ، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب . مثاله : أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد ، فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به ، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام .

وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح ، فإنه يدرك مشقة السفر ، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة ، وجعله راضياً بها ، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين ، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاته ، فيرضى بما أصابه ، ويشكر الله تعالى عليه ، ويجوز أن يغلبه الحب ، بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ، ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب ، وليس ذلك بعجيب ، فإن الرجل المحارب فى حال غضبه أو خوفه ، تصيبه الجراحات ولا يحس بها ، ولا يشعر بها فى تلك الحال ، وذلك لأن قلبه مستغرق ، وإذا كان القلب مستغرقا بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود فى المشاهدات .

قال الجنيد ـ رحمه الله ـ : سألت سَرِياً : هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا .

وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء ، أنهم كانوا يقولون : لو قطعنا إرباً إرباً ، ما ازددنا له إلا حباً .

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم ، وهو متصور فى حب الخلق ،

كما حكى بعضهم ، قال : كان فى جيراننا رجل له جارية يحبها ، فاعتلت ، فجلس يصلح لها حساء فبينما هو يحرك القدر ، قالت : أوه ، فدهش وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم .

ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام ، فإنهن قطعن الأيدى ، وما أحسسن بألم ، فقد بان بما ذكرنا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ، وإذا كان ذلك ممكناً فى حق الخلق وحظوظهم ، كان ممكنا فى حق الله سبحانه ، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى ، وإمكان ذلك فى ثلاثة أوجه :

أحدها : علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره .

وقد قال النبى ﷺ : « ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له » [(١)] .

وعن مكحول قال : سمعت ابن عمر رضى الله عنه يقول : إن الرجل يستخير الله فيختار له ، فيسخط فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة ، فإذا هو قد خير له .

وعن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظ للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ، ويحمل خباءهم ، والكلب يحرسهم ، فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم ، فنظروا فإذا قد سبى من حولهم وبقوا هم ، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة ، وليس عند أولئك شىء يجب ، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال لقمان لابنه : يا بنى : لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته ، إلا جعلت فى الضمير أن ذلك خير لك ، قال : أما هذه فلا أقدر أن

---

(١) [صحيح] رواه أحمد فى « المسند » [٣/ ١١٧] وصححه الهيثمى فى المجمع [٧/ ٢١٠] وهو عند أبى يعلى من طريق ثعلبة [٧/ ٢٢١] رقم [٤٢١٨] وابن حبان [١٨١٤] موارد وإسناده جيد ومعناه فى صحيح مسلم رقم [٢٩٩٩] .

أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت ، قال : يا بنى : فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه ، فعنده بيان ما قلت . قال : اذهب بنا إليه ، فخرج على حمار وابنه على حمار ، وتزودوا ما يصلحهما ، ثم سارا أياماً وليالى ، حتى تلقتهما مفازة ، فأخذا أهبتهما ودخلاها ، فسارا ما شاء الله ن يسيرا ، حتى تعالى النهار ، واشتد الحر ونفد الماءوالزاد ، فاستبطآ حماريهما ، فنزلا يمشيان ، فبينما هما كذلك ، إذ نظر لقمان أمامه ، فإذا هو بسواد ودخان ، فقال فى نفسه : السواد شجر ، والدخان عمران وناس ، فبينما هما كذلك يشهدان ، إذا وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق ، فدخل فى باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها ، فخر مغشياً عليه ، فحانت من لقمان التفاتة ، فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه إلى صدره ، واستخرج العظم بأسنانه ، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله ، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه ، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها ، فنظر إلى أبيه يبكى ، فقال : يا أبت : أنت تبكى وأنت تقول : هذا خير لى ، فكيف ذلك وأنت تبكى ؟! وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت فى هذا المكان ، قال : أما بكائى يا بنى ، فوددت أنى افتديتك بجميع حظى من الدنيا ، ولكنى والد ومنى رقة الوالد ، وأما قولك : كيف يكون هذا خيراً لى ؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتلبت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، فبينما هو يحاوره ، إذ نظر لقمان أمامة ، فلم ير الدخان والسواد ، فقال فى نفسه : لم أر شيئاً ، ثم قال : قد رأيت ، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربى بما رأيت شيئاً ، فبينما هو يتفكر فى ذلك ، إذا نظر فإذا بشخص قد أقبل على فرس أبلق ، عليه ثياب بيض ، يمسح الهواء مسحاً ، فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً ، فتوارى عنه ثم صاح به فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : ما قال لك ابنك السفيه ؟ قال يا عبد الله من أنت ؟ ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قال : أنا جبريل ، لا يرانى إلا ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، ولولا ذلك لرأيتنى ، فما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : أما علمت ذلك ؟ قال جبريل : ما لى بشىء من أمركما علم ، إلا أن حفظتكما

أتونى ، وقد أمرنى ربى تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها ، فأخبرونى أنكما تريدان هذه المدينة ، فدعوت ربى أن يحبسكما عنى بما شاء ، فحبسكما عنى بما ابتلى به ابنك ، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به ، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام ، فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذى كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً ، ومسح على الذى كان فيه ماء فامتلاء ماء ، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير ، فإذا هما فى الدار التى خرجا منها بعد أيام وليالى .

الوجه الثانى : الرضى بالألم ، لما يتوقع من الثواب المدخر ، كما تقدم من الرضا بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء .

الوجه الثالث : الرضى به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضا محبوبه ، ولو فى ذلك هلاك نفسه ، كما قال بعضهم : فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقد سبق أن الحب يستولى بحيث يدهش عن إدراك الألم ، ولا ينبعى أن ينكر ذلك من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه ، وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، ولعمرى إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات ، فمن فقد القلب ، فلابد أن ينكر هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب .

فصل فى أن الدعاء لا يناقض الرضا

واعلم : أن الدعاء لا يناقض الرضا ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها وأسبابها ، والسعى فى إزالتها .

أما الدعاء ، فقد تعبدنا الله تعالى به ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم .

وأما إنكار المعاصى وعدم الرضا بها ، فقد تعبدنا الله تعالى به ، وذم الراضى به وكذلك بغض الكفار والفجار ، والإنكار عليهم ، وشواهد ذلك فى القرآن والأخبار كثيرة جداً .

فإن قيل : فقد وردت الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى ، فهو محال ، وإن كانت بقضائه ، فكراهتها كراهة لقضائه ، فكيف الجمع بين هذين الحالين .

فاعلم : أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم ، حتى التبس على قوم ، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض ، بل نقول : الرضا والكراهة يتضادان ، إذا تواردا على شىء واحد ، من جهة واحدة ، على وجه واحد . فأما إذا رضيت بشىء من وجه ، وكرهته من وجه آخر ، فليس ذلك بمتضاد ، نحو أن يموت عدوك الذى هو أيضاً عدو لبعض أعدائك ، وساع فى إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه عدوك ، وكذلك للمعصية وجهان : وجه إلى الله تعالى ، ومن حيث إنها اختياره وإرادته ، فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغيضاً عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ، ولا ينكشف هذا إلا بمثال ، فنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدى محبه : إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى ، وأنصب لذلك معياراً صادقاً ، وهو أنى أقصد إلى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدواً ، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لى ، وكل من أبغضه علمت أنه محبى وصديقى ، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب العداوة ، فحق على من هو صادق فى محبته أن يقول :

أما تدبيرك فى ضرب هذا الشخص وأذاه ، فأنا محب له ، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك ، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص ، فإنه عدوان منه وتهجم عليك ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، فكذلك تسليط الله سبحانه وتعالى دواعى الشهوة والمعاصى على العبد ، وبغضه على عصيانه .

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عز وجل ، ويعادى من عاداه وأبعده عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ، والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين ، موافقة لمحبوبهم ، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله ، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم ، والمبالغة فى مقتهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى ومن حيث إنه قضاؤه ، وهذا كله يستمد فى سر القدر الذى لا رخصة فى إفشائه ، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضى به .

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، والوقوف مع ما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى ، والله تعالى أعلم .

ومما يتعلق بالمحبة .

قيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إلىّ ، وتقطعت أوصالهم من محبتى .

يا داود : هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى فى المقبلين علىّ ؟

يا داود : أحوج ما يكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى ، وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلىّ .

وكانت امرأة متعبدة تقول : والله لقد سئمت الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى ، وحباً للقائه ، فقيل لها : فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت : لا ، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به ، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه ؟

باب فى النية والإخلاص والصدق

اعلم : أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

فالناس كلهم هلكى ، إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، والإخلاص من غير تحقيق هباء .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان : ٢٣] . وليت شعرى ، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من

صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى ، أن يعلم النية أولاً ، لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة . ونحن نذكر ذلك فى ثلاثة فصول :

الفصل الأول

فى النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] والمراد بالإرادة : النية .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » [(١)] .

وعن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميّة ، ويقاتل رياء ، أىّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »

أخرجاهما فى « الصحيحين »[(٢)] .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض » أخرجه مسلم وأخرجه البخارى من حديث أنس[(٣)] .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « من همّ بحسنة فلم يعلمها كتبت له حسنة » [(٤)] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣)[متفق عليه] البخارى فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد : ٣٥ ـ باب من حبسه العذر : حديث [٢٨٣٩] ، ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة : ٤٨ ـ باب من حبسه عن الغزو مرض : حديث [١٩١١] ، وأبو داود فى : الجهاد : حديث [٢٥٠٨] ، وابن ماجة فى : الجهاد : حديث [٢٧٦٤] ، وأحمد فى « مسنده » ٣ / ١٠٣ و ١٦٠ و ١٨٢ .

(٤)[متفق عليه] البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٣١ ـ باب من همَّ بحسنة أو بسيئة : حديث [٦٤٩١] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٥٩ ـ باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت : حديث [١٣٠] والدارمى فى : الرقاق : حديث [٢٧٨٦] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٣١٠ و ٣٦٠ و ٣٦١ .

وعن أبى كبْشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً ، فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، وهو يقول : لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط فيه ، وينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته مالاً وعلماً ، فيقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الوزر سواء » (١) .

وعن أبى عمران الجونى قال : تصعد الملائكة بالأعمال ، فينادى الملك : ألق تلك الصحيفة ، قال : فتقول الملائكة : ربنا قال خيراً وحفظناه عليه ، فيقول تبارك وتعالى : إنه لم يرد به وجهى ، قال : وينادى الملك : اكتب لفلان كذا وكذا ، مرتين، فيقول : يا رب إنه لم يعمله ، فيقول عزوجل : إنه قد نواه .

وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى .

وكان بعضهم يقول : دلونى على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى ، فقيل له : انو الخير ، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل ، فالنية تعمل وإن عدم العمل ، فإنه من نوى أن يصلى بالليل فنام ، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله .

وقد جاء فى الحديث : « ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها ، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه » (٢) .

---

(١) [صحيح]ابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٢٦ ـ باب النية : حديث [٤٢٢٨] ، وأحمد فى «مسنده » [٤ / ٢٣٠ ، ٢٣١] والبيهقى فى الزكاة ، باب وجوب الصدقة [٤ / ١٨٩] .

(٢) [صحيح]النسائى فى : ٢٠ ـ كتاب قيام الليل : ٦٣ ـ باب من أتى فراشه وهو ينوى القيام فنام : حديث [١٧٧٤] ، وابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة : ١٧٧ ـ باب ماجاء فيمن نام عن حزبه من الليل : حديث [١٣٤٤] ، والحاكم فى « المستدرك » ١ / ٣١١ ، وأحمد فى المسند [٦ / ٦٣] .

وقد جاء فى الحديث : « نية المؤمن خير من عمله » (١) .

والنية ، والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد .

واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : المعاصى ، فلا تتغير عن موضعها بالنية ، مثل من يبنى مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير ، فإن النية لا تؤثر فيه ، فإن قصد الخير بالشر شر آخر ، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ، هيهات ! .

واعلم : أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، يتكالبون على الدنيا ، ويتبعون الهوى ، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم ، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم .

ومن هذا القبيل تعلم القُصَّاص القصص ، فإن مقاصد أكثرهم معروفة ، وقصدهم اجتلاب الدنيا ، وأخذ الأموال كيف اتفق ، فتعليمهم إعانة على الفساد ، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد .

وأما المعصية ، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها .

القسم الثانى : الطاعات ، وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها ، وفى تضاعف فضلها ، أما الأصل ، فهو أن ينوى عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل ، فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها .

---

(١) [ضعيف] حلية الأولياء ٣ / ٢٥٥ ، والخطيب فى « تاريخه » ٩ / ٢٣٧ ، والطبرانى فى « الكبير » ٦ / ٢٢٨ وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٥٩٧٦ ، ٥٩٧٧] .

مثال ذلك القعود فى المسجد ، فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة : منها أن ينوى بدخوله انتظار الصلاة ، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح ، فإن الاعتكاف كف ، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه ، ونحو ذلك ، فهذا طريق تكثير النيات ، فقس على ذلك سائر الطاعات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة .

القسم الثالث : المباحات ، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أونيات، تصير بها قربات ، وينال بها معالى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة .

ولا ينبغى أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه فى القيامة لم فعله ؟ وما الذى قصد به ؟

مثال ما ينوى به القربة من المباحات أن يتطيب ، وينوى بالطيب اتباع السنة ، واحترام المسجد ، ودفع الروائح الكريهة التى تؤذى مخالطيه .

وقال الشافعى ـ رحمه الله ـ: من طاب ريحه زاد عقله .

وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه ، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه .

وقال بعض السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية ، حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدنيا ، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة ، ومن النكاح تحصين دينه ، وتطييب قلب أهله ، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده ، أثيب على ذلك كله ، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك وحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله ، وانظر فى نيتك فيما تتركه أيضاً .

واعلم : أن النية هى انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها ، إما

فى الحال أو المآل ، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية ، فقال عند أكله : نويت أن آكل لله ، أو عند قراءته : نويت أن أقرأ لله ، وظن أن ذلك نية ، وليس كذلك ، إنما النية انبعاث القلب ، وتجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، وليست النية داخلة تحت الاختيار ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر ، وإنما تتيسر له فى الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا .

والناس فى النيات على أقسام :

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف .

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء ، وثمة مقام أرفع من هذين ، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، وهذه لا تتيسر لراغب فى الدنيا ، وهى أعز النيات وأعلاها ، وقليل من يفهمها ، فضلاً عن أن يتعاطاها ، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر فى جلاله حباً له

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة فى منامه ، فقال له : كل الناس يطلبون منى ، وأبو يزيد يطلبنى .

وغرضنا أن هذه النيات متفاوتة فى الدرجات ومن غلب على قلبه منها ، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها ، ومن حضرت له نية فى المباح ، ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه .

مثال ذلك أن تحضره نية فى الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته فى الحال إلى الصلاة والصوم ، فالأكل والنوم أفضل ، بل لو ملّ العبادة لكثرة مواظبته عليها ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه ، فذلك أفضل من التعبد حينئذ .

قال على ـ عليه السلام ـ : روحوا القلوب ، واطلبوا لها طُرف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان .

وقال بعضهم : روحوا القلوب تعى الذكر .

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء ، فإن الحاذق فى الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعد ذلك القاصر فى الطب ، وإنما يبتغى به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر من بين يدى قرينه حيلة منه ليستجره إلى مضيق . فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والمبصر الموفق يقف فى تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى لهم استبعاد ما خفى عليهم ، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك ، أوينالوا ذلك المقام .

الفصل الثانى
فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [البينة : ٤] ، وقال : ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ٣] وغير ذلك من الآيات .

وقال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « أخلص دينك يكفك القليل من العمل » (١) .

وفى حديث أنس رضى الله عنه أنه قال : « إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة ، فيقول الله عزوجل : القوا هذا ، واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما كتبنا إلا ما كان ، يقول : إن هذا كان لغيرى ، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لى » (٢) .

وعن النبى ﷺ قال : « إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه ، فيوحى الله تعالى إليهم : أنتم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى

(١)[ضعيف] الحاكم فى « المستدرك » ٤ / ٣٠٦ ، وأبو نعيم فى « الحلية » ١ / ٢٤٤ ، وهو فى «ضعيف الجامع » رقم [٢٤٠] .

(٢)[ضعيف جداً] رواه السيوطى فى « الدر المنثور » ٤ / ٢٥٦ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٦٦٠]

نفسه، إن عبدى لم يخلص فى عمله ، فاجعلوه فى سجين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه، فيوحى الله إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى نفسه فضاعفوه واجعلوه فى عليين » (١).

ويروى عن الحسن قال : كانت شجرة تُعبد من دون الله ، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء إليها لقطعها غضباً لله ، فلقيه الشيطان فى صورة إنسان فقال : ما تريده ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله ، قال : إذا أنت لم تعبدها ، فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها ، فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك من ذلك ، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك قال فمن لى بذلك ؟ قال : أنا لك ، فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً ، فقام غضبان ليقطعها ، فتمثل الشيطان فى صورته ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله، قال : كذبت ، ما لك إلى قطعها سبيل ، فذهب ليقطعها ، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله ، ثم قال له : أتدرى من أنا ؟ فأخبره أنه الشيطان ، وقال : جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لى عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين ، فسُلطت عليك (٢).

وكان معروف الكرخى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصى وتخلصى .

وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وحكى أن رجلاً كان يخرج فى زى النساء ، فيحضر حيث يحضرون من عرس، أو مأتم فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء ، فسرقت درة ، فصاحوا : أغلقوا الباب حتى نفتش ، ففتشوا واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى « الزهد » ص [٩٧] رقم [٤٥٢] بإسناد فيه انقطاع .
(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى [ص٣٩] ط دار الحديث القاهرة .

وإلى امرأة معه ، فدعا الله بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أطلقوا الحرة ، فقد وجدنا الدرة .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمي إخلاصاً .

والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصاً ، فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات .

فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية .

والشرك منه جلي ، ومنه خفي ، وكذلك الإخلاص ، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابه ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء ، أو غيره من حظوظ النفس .

ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو للتخلص من شر يعرض له ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام ، ونحو ذلك . فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص .

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور فلذلك قيل : من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى ،

نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب ، لأن الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى .

قيل لسهل : أى شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب .

واعلم : أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة ، بعضها جلى ، وبعضها خفى وقد ذكرنا درجات الرياء فى بابه .

ومن الرياء ما هو أخف من دبيب النمل ، فليطلب هناك ، وحاصلى أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة فى حالة من العمل ، فهو خارج عن صفو الإخلاص ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه .

وقد قيل : ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل ، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة ، وقيراط من الذهب الذى يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبى .

فصل فى حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذى لا يريد به إلا الرياء ، فهو على صاحبه لا له ، وهو سبب للعقاب كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب ، ولا إشكال فى هذين القسمين، وإنما النظر فى العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس .

وقد اختلف الناس فى ذلك ، هل يقتضى ثواباً أو عقاباً ، أو لا يقتضى شيئاً ؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض فى ذلك .

والذى يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن ننظر إلى قدر قوة البواعث ، فإن كان الباعث الدينى مساوياً للباعث النفسانى تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه . وإن كان باعث الرياء أقوى ، ضر وأوجب العقاب ، لكن عقابه دون

من تجرد للرياء ، وإن كان الباعث الدينى أقوى من الآخر ، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ﴾ [النساء : ٤٠] .

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه وأُثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس ، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلى ، لم ينفك السفر عن ثواب . وكذلك الغازى إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع ، حصل له الثواب ، ولكنه لا يساوى ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث
فى الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقا » رواه البخارى ومسلم [(١)]

وقال بشر الحافى : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس .

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل فى معانٍ :

أحدها : الصدق فى القول ، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، ولا يتكلم إلا بالصدق ، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها .

وينبغى أن يحترز عن المعاريض ، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها ، وتقتضيها المصلحة فى بعض الأحوال ، وقد كان النبى ﷺ إذا أراد غزوة ورّى

---

(١) البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ٦٩ ـ باب قول الله ـ تعالى ـ : « يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله » : حديث [٦٠٩٤] ، ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٢٩ ـ باب قبح الكذب : حديث [٢٦٠٧] ، وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٩٨٩] ، والترمذى فى : البر والصلة : حديث [١٩٧١] ، وابن ماجة فى : الدعاء : حديث [٣٨٤٩] ، وأحمد فى « المسنده » ١ / ٣٨٤ و ٤٣٢ .

بغيرها[1] لئلا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيتهيأوا لقتاله ، وقال ﷺ : « ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ، أونمى خيراً »[2] .

وينبغى أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه ، كقوله : وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض ، فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب .

الثانى : صدق فى النية والإرادة ، وذلك يرجع إلى الإخلاص ، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما فى حديث الثلاثة[3] : العالم ، والقارئ ، والمجاهد . لما قال القارئ : قرأت القرآن إلى آخره ، إنما كذبه فى إرادته ونيته ، لا فى نفس القراءة ، وكذلك صاحباه .

الثالث : الصدق فى العزم والوفاء به .

أما الأول : فنحو أن يقول : إن آتانى الله مالاً تصدقت بجميعه ، فهذه العزيمة قد تكون صادقة ، وقد يكون فيها تردد .

وأما الثانى : فنحو أن يصدق العزم وتسخو النفس بالوعد ، لأنه لا مشقة فيه إلا إذ تحققت الحقائق ، وانحلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] وقال فى آية أخرى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [التوبة : ٧٥ ، ٧٧] .

---

(١) البخارى فى الجهاد والسير ، باب من أراد غزوة فورَّى بغيرها حديث [٢٩٤٧] ومسلم فى التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك حديث [٢٧٦٩] .

(٢) البخارى فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح : ٢ ـ باب ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس : حديث [٢٦٩٢] ، ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ٢٧ ـ باب تحريم الكذب وبيان المباح منه : حديث [٢٦٠٥] وأبو داود فى : الأدب : حديث [٤٩٢٠] ، والترمذى فى البر والصلة حديث [١٩٣٨] وأحمد فى « مسنده » [٣ / ٤٠٣ و ٤٠٤] .

(٣) مسلم فى الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، حديث [١٩٠٥] والترمذى فى الزهد رقم [٢٣٨٢] والنسائى فى الجهاد [٦ / ٢٣ ، ٢٤] .

الرابع : الصدق فى الأعمال ، وهو أن تستوى سريرته وعلانيته ، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر فى باطنه ، ويكون الباطن بخلاف ذلك .

قال مطرف : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عزوجل : هذا عبدى حقاً .

الخامس : الصدق فى مقامات الدين ، وهو أعلى الدرجات ، كالصدق فى الخوف والرجاء والزهد والرضا والحب والتوكل ، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظورها ، ثم غايات وحقائق ، فالصادق المحق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقاً . قال الله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] . وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات : ١٥] .

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول : ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غير مبالغ إلى درجة الحقيقة ، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور ، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية ، ولذلك قال عامر بن عبد قيس : عجبت للجنة نام طالبها ، وعجبت للنار نام هاربها .

والتحقيق فى هذه الأمور عزيز جداً ، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقاً ، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغا له ، والصادق فى جميع المقامات عزيز ، وقد يكون للعبد صدق فى بعضها دون البعض ، ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً ، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك .

باب فى المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠]، وقال : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة ٦ ، ٨] . فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب فى الآخرة

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة ، فمن حاسب نفسه فى الدنيا ، خف فى القيامة حسابه ، وحسن منقلبه ، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته ، فلما عملوا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة ، فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ، وأصلها المحاسبة ، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، ولابد من شرح ذلك المقام .

المقام الأول : المشارطة

اعلم :أن التاجر كما يستعين بشريكه فى التجارة طلباً للربح ، ويشارطه ويحاسبه ، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس ، ويوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ثم لا يغفل عن مراقبتها ، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال ، ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها

بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثيرمن أرباح الدنيا ، فحتم على كل ذى عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبته نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها .

فإذا فرغ من فريضة الصبح ، ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس : ما لى بضاعة إلا العمر ، فإذا فنى منى رأس المال وقع اليأس من التجارة ، وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه ، وأخّر أجلى ، وأنعم علىّ به .

ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبى يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت ، فإياك أن تضيعى هذا اليوم ، واعلمى أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة ، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة ، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها ، وهى الساعة التى عصى الله تعالى فيها ، فيحصل له من الفزع والخزى ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره ، وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أواشتغل بشىء من المباح ، ويتحسر على خلوها ، ويناله مانال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته ، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ، ولا تدعيها فارغة ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك .

قال بعضهم : هب أن المسىء قد عفى عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ فهذه وصيته فى نفسه فى أوقاته ، ثم يستأنف لها وصية أخرى فى أعضائه السبع ،

وهى : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إلى النفس ، فإنها رعايا خادمة لها فى هذه التجارة المخلدة ، بها يتم أعمالها ، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء ، فتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها .

أما العين فيحفظها عن النظر إلى مالا يحل النظر إليه ، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مُستغنى عنه ، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله ﷺ ، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغى أن يقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به ، ولا سيما اللسان والبطن ، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم ، فيشغله بما خُلق له ، من الذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين ، إلى غير ذلك من الخير .

وأما البطن ، فيكلفه ترك الشره ، واجتناب الشبهات والشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشترط على نفسه أن تخالف شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها . وهكذا فى جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، وكذلك ما تخفى طاعات الأعضاء ومعاصيها .

ثم يستأنف وصيتها فى وظائف العبادات التى تكرر فى اليوم والليلة ، فى النوافل التى يقدر عليها ، وعلى الاستكثار منها . وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك ، فيستغنى عن المشارطة ، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه فى ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك ، إذ قلّ أن يخلو يوم عن **واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه**

الاستقامة فيها ، والانقياد للحق .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله »[(١)] .

وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ [الحاقة : ١٨] .

المقام الثانى : المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها . وفى الحديث الصحيح فى تفسير الإحسان ، لما سئل رسول الله ﷺ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[(٢)] أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته فى حال العبادة .

قيل : دخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو قاعد ساكن ، لا يتحرك من ظاهره شىء ، فقال له : ممن أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال : من سنّور كانت لنا ، إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة .

وينبغى أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفى العمل ، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة ؟ فإن كان الله تعالى ، أمضاه ، وإلا تركه ، وهذا هو الإخلاص .

---

(١) سبق تخريجه .

(١) البخارى فى : ٢ ـ كتاب الإيمان : ٣٨ ـ باب سؤال جبريل النبى عن الإيمان : حديث [٥٠] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ١ ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان : حديث [٨] وأبو داود فى : السنة : حديث [٤٦٩٥] ، والترمذى فى : الإيمان : حديث [٢٦١٠] ، وابن ماجة فى : المقدمة : حديث [٦٣ و ٦٤] ، وأحمد فى «مسنده» ١ / ٢٧ و ٥١ و ٥٣ .

قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

فهذه مراقبة العبد فى الطاعة ، وهو أن يكون مخلصاً فيها ، ومراقبته فى المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته فى المباح تكون بمراعاة الأدب ، و الشكر على النعم ، فإنه لا يخلو من نعمة لابد له من الشكر عليها ، ولا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة .

وقال وهب بن منبه فى حكمة آل دواد : حق على العاقل أن لايُشغل عن أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وجَمَامٌ للقوة . وهذه الساعة التى هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب ، لاينبغى أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهوالذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله ، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

المقام الثالث : المحاسبة بعد العمل

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [الحشر : ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضى العمل ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه ، وقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشهيتك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، ما لى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى

الدنيا ، يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عزوجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه ، وفى بصره ، وفى لسانه ، وفى جوارحه ، مأخوذ عليه فى ذلك كله .

واعلم : أن العبد كما ينبغى أن يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه ، كذلك ينبغى أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه فى آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم .

ومعنى المحاسبة أن ينظر فى رأس المال ، وفى الربح ، وفى الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان ، فرأس المال فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى ، وليحاسبها أولاً على الفرائض ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفى منها ما فرط .

قيل : كان توبة بن الصمة بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال يا ويلتا ! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟! كيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب !! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلاً يقول : يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى !

فهكذا ينبغى للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح فى كل ساعة ، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى وهى مثبتة ﴿ **أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ** ﴾[المجادلة : ٦] .

المقام الرابع : معاقبة النفس على تقصيرها

اعلم : أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً ، أو فعلت شيئاً من المعاصى فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها ،

بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده .

وكما روى عن عمر رضى الله عنه : أنه خرج إلى حائط له ، ثم رجع وقد صلى الناس العصر ، فقال : إنما خرجت إلى حائطى ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، حائطى صدقة على المساكين . قال الليث : إنما فاتته الجماعة ، وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان ، فلما صلاها أعتق رقبتين .

وحكى أن يميماً الدارى - رضى الله عنه - نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع .

ومرّ حسان بن سنان بغرفة فقال : متى بُنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ! لأعقابنك بصوم سنة ، فصامها .

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل ، فيحرم عليه فعله . مثال ذلك : ما حكى أن رجلاً من بنى إسرائيل ، وضع يده على فخذ امرأة ، فوضعها فى النار حتى شلت ، وأن آخر حوّل رجله لينزل إلى امرأة ، ففكر وقال : ماذا أردت أن أصنع ؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال : هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معى . فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح ، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينه ، فهذا كله محرم ، وإنما كان جائزاً فى شريعتهم . وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا ، وحملهم على ذلك الجهل بالعلم ، كما حكى عن غزوان الزاهد : أنه نظر إلى امرأة فلطم عينه حتى نفرت .

وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً ، وأنه وجد فى نفسه توقفاً عن الغسل فآلى ألا يغتسل إلا فى مرقعته ، ألا ينزعها ولا يعصرها ، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً . وهنا من الجهل بالعلم ، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف فى نفسه بمثل هذا . وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل فى كتابى المسمى بـ « تلبيس إبليس » .

وهو أنه إذ حاسب نفسه ، فينبغى إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق فإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل ، أو ورد من الأوراد ، فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، كما ورد عن ابن عمر رضى الله عنه أنه فاتته صلاة فى جماعة ، فأحيا الليل كله تلك الليلة . وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد ، فإنه يجاهدها وكرهها ما استطاع .

وقال ابن المبارك : إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً ، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً .

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين ، وما ورد فى فضلهم ، ويصحب من يقدر عليه منهم ، فيقتدى بأفعاله .

قال بعضهم : كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده ؟ فعملت على ذلك أسبوعاً . وقد كان عامر بن قيس يصلى كل يوم ألف ركعة . وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضرّ ويصفرّ ، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً . وكان داود الطائى يشرب الفتيت مكان الخبز ، ويقرأ بينهما خمسين آية .

وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات ، وكان عمر بن عبد العزيز ، وفتح الموصلى يبكيان الدم ، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة وجاور أبو محمد الحريرى سنة فلم ينم ولم يتكلم ، ولم يستند إلى حائط ، ولم يمد رجله ، فقال له أبو بكر الكتانى : بم قدرت على هذا ؟ قال : علم صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى . ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت : إنما هى أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شىء لم يدركه غداً والله يا إخوتاه ! لأصلين لله ما أقلتنى جوارحى ، ولأصومن له فى أيام حياتى ، ولأبكين ما حملت الماء عيناى .

ومن أراد أن ينظر فى سير القوم ، ويتفرج فى بساتين مجاهداتهم ، فلينظر فى كتابى المسمى بـ« صفة الصفوة » فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى ، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه سماعه .

المقام السادس : فى معاتبة النفس وتوبيخها

قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ : من مقت نفسه فى ذات الله آمنه الله من مقته .

وقال أنس ـ رضى الله عنه ـ : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودخل حائطاً فسمعته يقول وبينى وبينه جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك .

وقال البخترى بن حارثة : دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه ، فلم يزل يعاتبها حتى مات .

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون : فأف لى وتُف .

واعلم : أن أعدى عدو لك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خُلقت أمارَّة ، ميالة إلى الشر ، وقد أمرت بتقويمها وفطامها عن مواردها ، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة ، فلا تغفلن عن تذكيرها . وسبيلك أن تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول : يا نفس ، ما أعظم جهلك ، تدّعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار ؟ فكيف يلهو من لا يدرى إلى أيتهما يصير ؟! وربما اختطف فى يومه أو فى غده !

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن الموت يأتى بغتة من غير موعد ، ولا يتوقف على سن دون سن ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت

فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت ، فما لك لا تستعدين للموت وهو قريب منك ؟! يا نفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك ! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك ، فما أشد رقاعتك ، وأقل حياءك ! ألك طاقة على عذابه ؟ جربى ذلك بالقعود ساعة فى الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، يا نفس ! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات فاطلبى الشهوات الباقية الصافية عن الكدر ، ورب أكلة منعت أكلات .

وما **قولك** فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر ؟! فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال ثم يلزمه الألم أبداً ؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر ، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا ، وليت شعرى! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول ، أم النار فى الدركات ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم العذاب فى الآخرة ؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها ، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه ، هلا تركت الدنيا لخسة شركائها ، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها ؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال فى صحبة الحمقى ؟ قد ضاع أكثر البضاعة ، وقد بقيت من العمر صبابة ولو استدركت ندمت على ما ضاع ، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول ؟ اعملى فى أيام قصار لأيام طوال ، وأعدى الجواب للسؤال ، اخرجى من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار ، إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر ، تفكرى فى هذه الموعظة ، فإن عدمت تأثيرها ، فابكى على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة .

باب التفكر

قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز ، وأثنى على المتفكرين بقوله ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾[آل عمران : ١٩١] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣] .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله** » (١) .

وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، وما فهم إلا علم ، وما علم إلا عمل .

وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه .

وقال الفريابى فى قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٧] قال : أمنع قلوبهم من التفكر فى أمرى .

وكان داود الطائى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السماوات والأرض ، فوقع فى دار جار له ، فوثب عرياناً وبيده السيف ، فلما رآه قال : يا داود ما الذى ألقاك ؟ قال : ما شعرت بذلك .

وقال يوسف بن أسباط : إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها ، بل لينظر بها إلى الآخرة .

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

---

(١) [حسن] ابن عدى ٧ / ٢٥٥٦ ، والطبرانى فى الأوسط [٦٤٥٦] واللالكانى فى « السنة » والبيهقى فى « الشعب » وفى اسناده الوازع بن نافع ، قال البخارى : منكر الحديث وقال النسائى وغيره : متروك ، قال الحاكم : روى أحاديث موضوعه لكن له شواهد ذكرها الألبانى فى الصحيحة [١٧٨٨] وحكم عليه بالحسن وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٢٩٧٥] .

وقال أبو بكر الكتانى : روعة عند انتباهة من غفلة ، وانقطاعٌ عن حظ نفسانى ، وارتعاد من خوف قطيعة ، أفضل من عبادة الثقلين .

بيان مجارى الفكر وثمراته

واعلم : أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فى أمر يتعلق بغيره وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، وشرح ذلك يطول ، فلينظر الإنسان فى أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصى ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلا تغفل عن نفسك ، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله ، والمقربة إليه .

وينبغى لكل مريد أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصى والطاعات ، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة ، فإنه إن يسلم منها سلم من غيرها ، وهى البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه .

ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخُلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع .

فهذه عشرون خصلة : عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة ، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها فى جريدته ، وترك الفكر فيها ، وشكر الله تعالى على كفايته إياها ، وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ثم يقبل على التسعة الباقية ، هكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها ، كالتوبة ، والندم مثلاً ، خط عليها واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمّر .

فأما أكثر الناس من المعدودين فى الصالحين ، فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة ، كأكل الشبهات ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة ، والمراء والثناء على النفس ، والإفراط فى موالاة الأولياء ، ومعاداة الأعداء ، ، والمداهنة فى ترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه ، وما لم تطهر الجوارح من الآثام ، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره .

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور ، فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها ، مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو فى غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس ، أو بالوعظ ومن فعل ذلك ، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون ، وربما ينتهى العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء ، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات فى سر القلب التى يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها .

ومن أحس من نفسه هذه الصفات فالواجب عليه الانفراد والعزلة ، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى ، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى ، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه . وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس ، فإنهم قد يقولون : هذا سبب لاندراس العلم ، فليقل لهم : دين الإسلام مستغنى عنى ، ولو مت لم ينهدم الإسلام ، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبى ، فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا .

فصل فى أن التفكر فى ذات الله ممنوع منه

قد تقدم أن النبى ﷺ قال : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله »[1] فالتفكر فى ذاته سبحانه ممنوع منه ، وذلك أن العقول تتحير فى ذلك ، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر ، أو تتوهمه القلوب بالتصوير : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

(١) سبق تخريجه .

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

فأما التفكر فى مخلوقات الله تعالى ، فقد ورد القرآن بالبحث على ذلك كقوله تعالى : **﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾** [آل عمران : ١٩٠] وقوله : **﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾** [يونس : ١٠١] .

ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة ، فليتفكر الإنسان فى نفسه ، فإن فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ، ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك . وقد أمره الله تعالى بالتدبر فى نفسه ، فقال : **﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾** [الذاريات : ٢١] . وقد تقدم فى كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فيطلب هناك .

ومن آياته الجواهر المودعة فى الجبال ، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها ، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها ، ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، والتى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، ولو جمع المكشوف من الأرض ، من البرارى ، والجبال ، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم ، وفى البحر عجائب أضعاف ما نشاهده فى البر .

وانظر كيف خلق اللؤلؤ ، ودوَّره فى صدفة تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان فى صم الصخور تحت الماء ،وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسيرها فى البحار وتسوقها الرياح ، وأعجب من ذلك الماء ، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومُنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم إذا شربها ومنع خروجها ؛ لبذل جميع خزائن الأرض فى إخراجها ، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة .

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين ، ثم انظر إلى شدته وقوته وانظر إلى عجائب الجو ، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق ، وغير ذلك من العجائب ، وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر فى الماء ، ثم انظر إلى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها ، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة فى لونه وشكله وموضعه ، وانظر إلى إيلاج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وانظر مسير الشمس ، كيف اختلف فى الصيف والشتاء والربيع والخريف .

وقد قيل :إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، وإن أصغر كوكب فى السماء مثل الأرض ثمان مرات ، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد فانظر إلى كثرة الكواكب ،وإلى السماء التى فيها الكواكب ، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها ، والعجب منك أنك تدخل بيت غنى مزخرف مموه بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره . وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه ، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك ، ولا تتفكر فى بناء خالقك ، فلقد نسيت نفسك وربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، فما مثلك فى غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذى حفرته فى حائط قصر الملك ، فتلقى أختها فتتحدث معها فى حديث بيتها ، وكيف بنته وما جمعت فيه ، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه فهكذا أنت فى غفلتك ، فما تعرف من السماء إلاما تعرفه النملة من سقف بيتك .

فهذا بيان معاقد الجُمل التى يجول فيها فكر المتفكرين ، والأعمار تقصر والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات ، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات ، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم ، فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة فى كتاب الشكر ، فمن نظر فى هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه ، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض ، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، شقى ، نعوذ

بالله من مزلة أقدام الجهال ، ومن الركون إلى أسباب الضلال ، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن ، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه - والله أعلم .

باب فى ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم : أن المنهمك فى الدنيا المنكب فى غرورها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإن ذكره كرهه ونفر منه ، ثم الناس إما منهمك ، أو تائب مبتدئ ، أو عارف منتبه .

فأما المنهمك فلا يذكره ، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه ، ويشتغل بذمه وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعداً .

وأما التائب ، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت ، ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »[1] فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره ، فهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا .

وأما العارف ، فإنه يذكر الموت دائماً ، لأنه موعد لقاء الحبيب ، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه ، وهذا فى غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ، ويحبه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما قال بعضهم : حبيب جاء على فاقة .

(١) البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق : ٤١ - باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : حديث [٦٥٠٧]، ومسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء : ٥ - باب من أحب لقاء الله : حديث : [٢٦٨٣، ٢٦٨٤] ، والترمذى فى : الجنائز : حديث [١٠٦٦] ، والنسائى فى : الجنائز : باب فيمن أحب لقاء الله : حديث [١ ، ٣ ، ٤] ، وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤٢٦٤] ، وأحمد فى «المسند» ٢ / ٣١٣ و ٣٤٦ و ٤٢٠ .

فإذن التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حبه الموت وتمنيه ، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ، ففى ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك فى الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا ، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره .

باب ما جاء فى فضل ذكر الموت

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت** » (١) .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رجلاً ذكر النبى ﷺ فأحسنوا عليه الثناء ، فقال النبى ﷺ : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ » قالوا : ما كنا نسمعه يذكر الموت قال : « **فإن صاحبكم ليس هناك** » (٢)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ سئل : أى المؤمنين أكيس ، قال : « **أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس** » (٣) .

---

(١) [صحيح] الترمذى فى : ٣٧ - كتاب الزهد : ٤ - باب ماجاء فى ذكر الموت : حديث [٢٣٠٧] ، والنسائى فى : ٢١ - كتاب الجنائز : ٣ - باب كثرة ذكر الموت : حديث [١٨١١] ، وابن ماجة فى : ٣٧ - كتاب الزهد : ٣١ - باب ذكر الموت : حديث [٤٢٥٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٩٣ ، والحاكم [٤ / ٣٢١] وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٢١٠] .

(٢) [ضعيف] أورده فى « إتحاف السادة » ١٠ / ٢٢٩ ، والمغنى عن حمل الأسفار » للعراقى ٤ / ٤٣٥ .

(٣) [حسن] ابن ماجة فى : ٣٧ - كتاب الزهد : ٣١ - باب ذكر الموت والاستعداد له : حديث [٤٢٥٩] ، والحاكم فى « المستدرك » ٤ / ٥٤٠ قال البوصيرى فى الزوائد : فروة بن قيس مجهول وكذلك الرواى عنه وخبره باطل قاله الذهبى فى طبقات التهذيب وله شاهد رواه البيهقى فى « الزهد الكبير » [٥٢ / ٢] وإسناده ضعيف وقال الهيثمى فى المجمع [١٠ / ٣٠٩] رواه الطبرانى فى «الصغير» بإسناد حسن ، وحسنه الألبانى فى الصحيحة [١٣٨٤] بمجموع طرقه .

وقال الحسن البصرى : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذى لب فيها فرحاً ، وما ألزم عبد قلبه الموت إلا صغرت الدنيا عليه ، وهان عليه جميع ما فيها .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون ، حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وكان حامد القيصرى يقول : كلنا قد أيقن الموت وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تفرحون ؟! وما عسيتم تنتظرون ؟ ! الموت ، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير ، أو بشر ، فيا إخوتاه ! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً .

وقال شميط بن عجلان : من جعل الموت نصب عينه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

واعلم : أن الموت عظيم ، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له ، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل ، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت ، والطريق فى ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة ، أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا فى ذلك ، وأنفع طريق فى ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى .

قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : السعيد من وُعظ بغيره ، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا ذكر الموتى ، فعد نفسك كأحدهم .

وينبغى أن يكثر دخول المقابر ، ومتى سكنت نفسه إلى شىء فى الدنيا ، فليتفكر فى الحال أنه لابد من مفارقته ، ويقصر أمله .

وقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » وكان ابن عمر يقول : إذا

أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك (١) .

وفى حديث آخر : «إن أخوف ما أخاف على أمتى : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة » (٢) .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أكلكلم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ؟ قال : « قصروا الأمل ، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله عزوجل حق حيائه » (٣) .

وعن أبى زكريا التيمى قال : بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام ، إذ أتى بحجر منقوش ، فطلب من يقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم ! لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، فبان منك الولد والنسب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة .

واعلم أن السبب فى طول الأمل شيئان :

أحدهما : حب الدنيا ، والثانى : الجهل .

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على

---

(١) [صحيح] البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٣ ـ باب قول النبى « كن فى الدنيا كأنك غريب » : حديث [٦٤١٦] ، والترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٢٥ ـ باب ماجاء فى قصر الأمل : حديث [٢٣٣٣] ، وابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣ ـ باب مثل الدنيا : حديث [٤١١٤] .

(٢) [**ضعيف**] رواه ابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » عن على بن أبى طالب وأخرى عن جابر ، قال ابن الجوزى فى العلل المتناهية [٢ / ٣٢٩ ، ٣٣٠] هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ فإن علىُّ بن أبى حنظلة ليس بمعروف ، ولا أبوه واليمان قد ضعفه الدار قطنى وأشار الحافظ العراقى إلى رواية جابر وضعفها [اتحاف السادة المتقين ١٠ / ٢٣٧] وضعفه الألبانى فى مشكاة المصابيح [٥٢١٤] .

(٣) [ضعيف] رواه ابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » حديث رقم ٣١ من حديث الحسن مرسلاً .

قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدر قربه ، فإن خطر له الموت فى بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له ، سوّف بذلك ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر قال : إلى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو يرجع من هذه السفرة ، فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يحرص فى إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشتغل بشغل بعد شغل ، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته .

وأكثر صياح أهل النار من « سوف » يقولون : واحسرتاه ! من « سوف » .

وأصل هذه الأمانى كلها ، حبُّ الدنيا والأُنس بها ، والغفلةعن قول النبى ﷺ : « أحبب ما شئت فإنك مفارقه »(١) .

السبب الثانى : الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين فى أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟

وإنما قالوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبى وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدرى أن الموت يأتى فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن المرض يأتى فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن

---

(١) [صحيح] أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ٢ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، وعزاه إلى الطبرانى فى «الأوسط » من طريق زافر بن سليمان ، وقال : وثقه أحمد وابن معين وأبو داود ، وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بمالا يضر .

الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره ، لعظم ذلك عنده واستعد للموت .

فصل فى تفاوت الناس فى طول الأمل

والناس متفاوتون فى طول الأمل تفاوتاً كثيراً ، ومنهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم ، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال ، ومنهم من هو قصير الأمل ، فروى عن أبى عثمان النهدى أنه قال : بلغت ثلاثين ومائة سنة وما من شىء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملى فإنه كما هو .

وحكى فى قصز الأمل أن امرأة حبيب أبى محمد قالت : كان يقول لى - تعنى أبا محمد - إن مت اليوم فأرسلى إلى فلان يغسلنى ويفعل كذا وكذا ، واصنعى كذا وكذا ، فقيل لها : أرأى رؤيا ؟ قالت : هكذ يقول كل يوم .

وعن إبراهيم بن سبط قال : قال لى أبو زرعة : لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فحدثتنى نفسى أن أرجع إليه .

وقيل لبعضهم : ألا تغسل قميصك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وعن محمد بن أبى توبة قال : أقام معروف الصلاة ثم قال لى : تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : أنت تحدث نفسك أنك تصلى صلاة أخرى ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل .

فهذه أحوال الزهاد فى قصر الأمل ، وكلما قصر الأمل ، جد العمل ، لأنه **يقدر أن يموت اليوم ، فيستعد استعداد ميت ، فإذا أمسى شكر الله تعالى على** السلامة ، وقدر أن يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل .

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففى « صحيح البخارى » عن

ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[1] .

وعنه : أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه : « **اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك** »[2] .

وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : التؤدة فى كل شيء خير ، إلا ما كان من أمر الآخرة .

وكان الحسن يقول : عجباً لقوم أمروا بالزاد ، ونودى فيهم بالرحيل ، وحبس أولهم علي آخرهم ، وهم قعود يلعبون .

وقال سحيم مولى بنى تميم : جلست إلى عبد الله بن عبد الله ، فأوجز فى صلاته ، ثم أقبل علىّ وقال : أرحنى بحاجتك ، فإنى أبادر ، فقلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت ، وكان يصلى كل يوم ألف ركعة .

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن ، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى ، ثم يغفى إغفاء الطير ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ، ثم يغفى إغفاء الطير ، ثم يقوم يصلى ، يفعل ذلك مراراً ، وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة وقال أبو بكر بن عياش : ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٨١ـ كتاب الرقاق : ١ ـ باب ماجاء فى الصحة والفراغ : حديث [٦٤١٢] . والترمذى فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ١ ـ باب الصحة والفراغ : حديث [٢٣٠٤] ، وأحمد فى « مسنده » ١ / ٣٤٤ .

(٢) [صحيح] الحاكم ٤ / ٣٠٦ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن المبارك فى الزهد ص٢ رقم [٢] وأبو نعيم فى حلية الأولياء [٤ / ١٤٨] وقال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء [٤ / ٦٦٧] أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد حسن وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٠٧٧] .

فصل فى ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم : أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ، ولا هول سوى الموت ، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ، وتطول فيه فكرته ، والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات ، فانتظر أن يدخل عليه جندى يضربه خمس ضربات ، لكدرت عليه ولذاته ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ،وهو غافل عن ذكر ذلك ،وليس لهذا إلا الجهل والغرور .

اعلم : أن الموت أشد من ضرب السيف ، وإنما يصيح المضروب ، ويستغيث لبقاء قوته ، وأما الميت عند موته ، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه ، لأن الكرب قد بالغ فيه وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه ، وضعفت كل جارحة فيه ، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة وتجذب الروح من جميع العروق ، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجياً ، فتبرد أولاً قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، حتى يبلغ الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، قال رسول الله ﷺ: « إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر » (١) .

وقد روى أن الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت ، فإن كان صالحاً أثنيا عليه ، وقالا : جزاك الله خيراً ، وإن كان صحبهما بشر ، قالا : لا جزاك الله خيراً .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزوجل

---

(١)[حسن] الترمذى فى : ٤٩ ـ كتاب الدعوات : ٩٩ ـ باب في فضل التوبة : حديث [٣٥٣٧] ، وابن ماجة فى الزهد ، باب ذكر التوبة رقم [٤٢٥٣] ، والحاكم [٤ / ٢٥٧] وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى « الحلية »[٥ / ١٩] وأحمد في « المسند»[٢ / ١٣٢ ، ٣ / ٤٢٥] بإسناد صحيح وابن حبان [٢٤٤٩ موارد] بإسناد حسن ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [١٩٠٣] .

وكلّ بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالا : قد مات ، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء ؟ قال : فيقول الله تعالى : إن سمائى مملوءة من ملائكتى يسبحونى .

فيقولان : فتأذن لنا فنقيم فى الأرض ؟ فيقول الله تعالى : إن أرضى مملوءة من خلقى ، يسبحونى ، فيقولان : فأين نقيم؟ فيقول : قوما على قبر عبدى فسبحانى واحمدانى وكبرانى وهللانى ، واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة »[١] .

وفى « الصحيحين » من حديث عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا حضره الموت بُشرَ برضوان الله وكرامته ، فليس شىء أحبَّ إليه مما أمامه ، وأما صاحب النار الذى خُتِم له بسوء فهو يُبشر بها وهو فى تلك الأهوال »[٢] .

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الخوف ، وهو لائق بهذا المكان ، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التى وسعت كل شىء ، وأن يلطف بنا وأن يختم لنا بخير ، إنه جواد كريم .

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر ، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى ، ولسانه ينطبق بالشهادة ، والسكون من علامات اللطف ، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير ، وقد روى أن روح المومن تخرج رشحاً ، ويستحب تلقينه : لا إله إلا الله ، كما جاء فى الحديث الصحيح من رواية مسلم : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »[٣] .

---

(١) [موضوع] « الموضوعات » لابن الجوزى ٣ / ٢٢٩ من طريق عثمان بن مطر ، وقال : قال ابن حبان : يروى الموضوعات عن الأثبات .

(٢) البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٤١ ـ باب من أحب لقاء الله : حديث [٦٥٠٧] ، ومسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء : ٥ ـ باب من أحب لقاء الله : حديث [٢٦٨٤] .

(٣) [صحيح] مسلم فى : كتاب الجنائز : باب تلقين الموتى لا إله إلا الله : حديث [٩١٦ ، ٩١٧] ، وأبو داود فى : كتاب الجنائز : باب فى التلقين : حديث [٣١١٧] ، والترمذى فى : كتاب الجنائز : باب ماجاء فى تلقين المريض عند الموت : حديث [٩٧٦] ، والنسائى فى : الجنائز : باب تلقين الميت : حديث [١ ، ٢] ، وابن ماجة فى : الجنائز : حديث [١٤٤٤ و ١٤٤٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٣ / ٣ وأحمد فى «مسنده» ٣ / ٣ .

وينبغي للملقن أن يرفق به ، ولا يلح عليه ، وقد جاء في حديث آخر : «احضروا موتاكم ولقنوهم **لا إله إلا الله** ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، و إن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن . . . . » (١) . وذلك الحديث إلى آخره .

وفي الحديث الصحيح : « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله** » (٢) .

وروى أن النبي ﷺ دخل على رجل وهو يموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال : « ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمنه من الذي يخاف » (٣) .

والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سوط يساق به ، وعند الموت يقف البصر فينبغي أن يتلطف به ، ولأن الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه ، ويخوفه فيما بين يديه ، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو .

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت : يا بني ! حدثني بالرُّخص ، لعليّ ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به .

باب ذكر وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين

اعلم : أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل أحواله ، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه ، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله .

---

(١) [ضعيف]حلية الأولياء ٥ / ١٨٦ ، وهو في « ضعيف الجامع » رقم [٢٠٨] .

(٢) [صحيح] مسلم في : كتاب الجنة : باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت : حديث [٢٨٧٧] وابن ماجة في : الزهد : حديث [٤١٦٧] ، وأحمد في « مسنده » ١ / ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣/ ٢٩٣ .

(٣) [حسن]الترمذي في : كتاب الجنائز : باب حدثنا عبد الله بن أبي زياد : حديث [٩٨٣] . وابن ماجه في : كتاب الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له : حديث [٤٢٦١] ، وفي سنده سيَّار بن حاتم العنزي ، قال الحافظ في التهذيب : ذكره ابن حبان في الثقات وقال أبو أحمد الحاكم : في حديثه بعض المناكير ، وقال العقيلي : أحاديثه مناكير ضعفه ابن المديني وقال الأزدي عنده مناكير [٤٩٧] .

وقد لقى ﷺ من الموت شدة ، فروى البخارى فى « صحيحه » من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان بين يدى رسول الله ﷺ ركوة أو علبه فيها ماء ، فجعل يدخل يده فى الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : « **لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات** » (١) .

وفى « صحيح البخارى » من حديث أنس رضى الله عنه قال : لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضى الله عنها : واكرب أبتاه ! فقال لها : « **ليس على أبيك كرب بعد اليوم** » (٢) .

وروى ابن مسعود قال : اجتمعنا فى بيت أُمنا عائشة رضى الله عنها ، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فدمعت عيناه ، فنعى إلينا نفسه وقال : « مرحباً ، حياكم الله بالسلام، حفظكم الله ، رعاكم الله ، جمعكم الله ، نصركم الله ، وفقكم الله ، نفعكم الله، سلمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم » قلنا : يا رسول الله : متى أجلك ؟ قال : « **قد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله ، وإلى سدرة المنتهى وجنة المأوى ، والفردوس الأعلى** » قلنا : يا رسول الله ! ففيم نكفنك ؟ قال : « فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو يمنية ، أو بياض » فقلنا : يا رسول الله! من يصلى عليك؟ وبكينا فقال : « مهلاً ، رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتمونى وكفنتمونى ، فضعونى علىَّ سريرى هذا على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى علىْ خليلى وحبيبى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، ثم ملائكة كثيرة ، ثم ادخلوا علىّ فوجاً فوجاً ، فصلوا علىّ وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكية ، ولا برنة ، ولا بصيحة ، وليبدأ بالصلاة علىّ رجال أهل بيتى ، ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعدُ ، واقرأوا

(١) البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٤٢ ـ باب سكرات الموت : حديث [٦٥١٠] .
(٢) البخارى فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى : ٨٤ ـ باب مرض النبى ووفاته : حديث [٤٤٦٢] وأحمد فى «المسند» [٣ / ١٩٧] ، وابن ماجة فى الجنائز [١٦٢٩] .

السلام على من غاب عنى من أصحابى ، وعلى من تابعنى على دينى إلى يوم القيامة ، ألا وإنى أشهدكم أنى قد سلمت على كل من دخل فى الإسلام » [١] .

ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال : يا محمد ؟ إن الله أرسلنى إليك يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول : كيف تجدك : « أجدنى يا جبريل مغموماً ، وأجدنى مكروباً » ثم أتاه فى اليوم الثانى ، فأعاد الكلام ، وأعاد الجواب ، ثم جاءه فى اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الجواب ، فإذا ملك الموت يستأذن ، فقال جبريل : يا أحمد ! هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ولم يستأذن على آدمى قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك ، فقال : « ائذن له » فدخل ، فوقف بين يديه وقال : إن الله أرسلنى إليك : وأمرنى أن أطيعك ، فإن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتنى أن أتركها تركتها ، قال رسول الله ﷺ : « وتفعل يا ملك الموت» قال : كذلك أمرت أن أطيعك ، فقال جبريل : يا أحمد ! إن الله قد اشتاق إليك ، فقال : « فامض لما أمرت به يا ملك الموت » فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موطنى فى الأرض إنما كنت حاجتى من الدنيا [٢] .

فتوفى رسول الله ﷺ مستنداً إلى صدر عائشة رضى الله عنها فى كساء ملبدّ ، وإزار غليظ ، وقامت فاطمة رضى الله عنها تندب وتقول : يا أبتاه ! أجاب ربًا دعاه ، يا أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ! إلى جبريل ننعاه ، يا أبتاه ! من ربه ما أدناه ، فلما دُفن قالت : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ ! [٣] .

---

(١) [ضعيف] البزار رقم [٨٤٧] ، وقال العراقى فى « المغنى » : رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدى بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف .

(٢) [ضعيف جداً] الطبرانى فى « الكبير » رقم [٢٨٩٠] ، وقال الهيثمى فى « المجمع » [٩ / ٣٥] فيه عبد الله بن ميمون القداح وهو ذاهب الحديث .

(٣) سبق تخريجه ص [٤٧٩] وهو حديث أنس : « لما ثقل النبى . . . إلخ »

وقال أبو بكر رضى الله عنه :

لما رأيت نبينا متجدلا ضاقت علىّ بعرضهن الدورُ
وارتعت روعة مستهام وأله والعظم منى واهن مكسورُ
أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى وبقيتَ منفرداً وأنت حسير
يا ليتنى من قبل مهلك صاحبى غُيِّبْتُ فى جدث علىّ صخور

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

روى أبو المليح أن أبا بكررضى الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر رضى الله عنه فقال : إنى أوصيك بوصية ، إن قبلت عنى : إن لله عزوجل حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبلة بالليل ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه فى الآخرة باتباعهم الحق فى الدنيا . وثقلت ذلك عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه فى الآخرة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم فى الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

ألم ترى أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرجاء ، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقى بيديه إلى التهلكه ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، فإن أنت حفظت وصيتى هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولابد لك منه ولست تعجزه .

وقيل : لما احتضر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى :﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] . انظروا ثوبى ، فاغسلوهما ، وكفنونى فيهما فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت .

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وعن ابن عمر قال : كان رأس عمر فى حجرى بعدما طُعن ، وكان مرضه الذى توفى فيه ، فقال : ضع خدى على الأرض ، فقلت : وما عليك إن كان فى حجرى أم على الأرض ؟ وظننت أن ذلك تبرم به ، فلم أفعل ، فقال : ضع خدى على الأرض لا أم لك ، ويلى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى [(١)] .

وروى أنه لما طُعن وحُمل إلى بيته ، وجاء الناس يثنون عليه ، جاء رجل شاب فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك ، صحبة من رسول الله ﷺ ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم ولِّيت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وودت أن ذلك كان كفافاً ، لا لىّ ولا علىّ ، ثم قال : ياعبد الله بن عمر ، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل : عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن عند صاحبيه ، فمضى وسلم واستأذن عليها ، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : عمر يقرأ عليك السلام ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه فقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه اليوم على نفسى ، فلما أقبل ، قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعونى ، فأسند رجل إليه ، فقال : ما وراءك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت ، قال : الحمد لله ، ما كان شىء أحب إلى من ذلك ، فإذا أنا مت فاحملونى ، ثم سلم ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت ، فأدخلونى ، وإن ردتنى ، فردونى إلى مقابر المسلمين [(٢)] .

وفى أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة ، أن عمر قال : والله لو أن لى طلاَع الأرض ذهباً ، لافتديت به عذاب الله قبل أن أراه [(٣)] .

(١) سيرة الخلفاء للذهبى [٩٤] والخبز فى الطبقات [٣ / ٢٧٤] وإسناده صحيح .

(٢) [صحيح] البخارى فى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وفيه مقتل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حديث [٣٧٠٠]

(٣) البخارى فى فضائل أصحاب النبى : حديث [٣٦٩٢] .

وفى خبر آخر : والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لافتديت به من هول المطلع [١].

وفاة عثمان بن عفان رضى الله عنه

عن نائلة بنت الفرافصة ، امرأة عثمان رضى الله عنه ، قالت : لما كان اليوم الذى قُتل فيه عثمان ، ظل اليوم قبله صائماً ، فلما كان عنده إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيتُ جارات لى على أجاجير متصلة ، فسألتهم الماء العذب ، فأعطونى كوزاً من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت : هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر ، فقال : إنى قد أصبحت صائماً وإن رسول الله ﷺ اطلع علىّ من هذا السقف ومعه ماء عذب ، فقال : « اشرب يا عثمان » ! فشربت حتى رويت ، ثم قال : « ازدد » فشربت حتى نهلت ، ثم قال : « إن القوم سينكرون عليك ، فإن قاتلتهم ظفرت ، وإن تركتهم أفطرت عندنا » ، قالت : فدخلوا عليه من يومه فقتلوه .

وعن العلاء بن الفضيل ، عن أبيه ، قال : لما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه ، فوجدوا فيه حقه فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان ، بسم الله الرحمن الرحيم ، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى .

وفاة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه

عن الشعبى ، قال : لما ضرب علىٌّ رضى الله عنه تلك الضربة ، قال : ما فُعل بضاربى ؟ قالوا : أخذناه ، قال : أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى ، فإن أنا

---

(١) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ١ / ٤٦ .

عشت رأيت فيه رأيى ، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها ، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال : لا تغال فى الكفن ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تغالوا فى الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً »[1] وامشوا بى بين المشيتين لا تسرعوا بى ولا تبطئوا ، فإن كان خيراً عجلتمونى إليه و إن كان شراً ألقيتمونى عن أكتافكم .

وروى أنه لما كانت الليلة التى أصيب فيها على رضى الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام يمشى وهو يقول :

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت ... وإن حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه .

ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم

لما نزل الموت بالحسن بن على رضى الله عنهما قال : أخرجوا فراشى إلى صحن الدار ، فأُخرج فقال : اللهم إنى احتسبت نفسى عندك ، فإنى لم أصب بمثلها .

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم .

وروى أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال : انظروا هل أصبحنا ؟ فأُتى فقيل : لم تصبح ، حتى أتى فى بعض ذلك ، فقيل له : لقد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ، ثم قال : مرحباً بالموت زائر مغيب ،وحبيب جاء

---

(١) [ضعيف] أبو داود فى : ١٥ ـ كتب الجنائز : ٣٥ ـ باب كراهية المغالاة فى الكفن : حديث [٣١٥٤] ، والبيهقى فى « سننه » ٣ / ٤٠٣ ، والبغوى فى «شرح السنة» ٥ / ٣١٦، وهو فى «ضعيف الجامع » رقم [٦٢٤٧] .

على فاقة ، اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لطول ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

وقال أبو مسلم : جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول : ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه ؟ ثم قبض رحمه الله .

وبكى سلمان الفارسى عند موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب ، وحولى هذه الأزواد . وقيل : إنما كان حوله أجانة وجفنة ومطهرة [(١)] .

وروى المزنى قال : دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملى ملاقيا ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنئها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت الرجا منى بعفوك سلما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

قيل : كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أجلس إلى قوم يذكرونى معادى ، وإن غبت لم يغتابونى .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى « المسند » [٥ / ٤٣٨] بسند صحيح وابن ماجة فى الزهد ، باب الزهد فى الدنيا [٤١٠٤] والحاكم [٤ / ٣١٧] وأيضاً فى « الحلية » [١ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧] .

إلى القبور بكى ، ثم أقبل علىّ فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام مقيلاً فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله تعالى .

وتستحب زيارة القبور ، فإن النبى ﷺ قال : « زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة »[1] ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له ، ولتكن الزيارة يوم الجمعة .

وقد روى أنه لما مات عاصم الجحدرى رآه رجل من أهله فى المنام بعد موته بسنتين فقال له : ألست قد مُتَّ ؟ قال : بلى ، قال : أين أنت ؟ قال عاصم : أنا والله فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى ، نجتمع كل ليل جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى نتلاقى أخباركم ، قال : قلت له : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قلت : كيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لشرف يوم الجمعة وعظمه .

وحكى عثمان بن سواد الطفاوى وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت : يا ذخرى ويا ذخرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد مماتى ، لا تخذلنى عند الموت ، ولا توحشنى فى قبرى ، قال : فماتت ، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها ، وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ليلة فى منامى فقلت لها : يا أماه كيف أنت ؟ قالت : يا بنى! إن

(١) [صحيح]مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز : ٣٦ ـ باب استئذان النبى ربه فى زيارة قبر أمه : حديث [٩٧٧]، وأبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجنائز : ٨١ ـ باب فى زيارة القبور : حديث [٣٢٣٤] ، والترمذى فى : ٨ ـ كتاب الجنائز : ٦٠ ـ باب ماجاء فى الرخصة فى زيارة القبور : حديث [١٠٥٤]، والنسائى [١ / ٢٨٥] وأحمد فى « المسند » [٥ / ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦١].

الموت لكرب شديد ، وأنا بحمد الله فى برزخ محمود ، يفترش فيه الريحان ، ويتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فإنى لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، فيقال لى : يا راهبة ! هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

وعن أنس بن منصور قال : كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل حسناتكم ، ولا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال ذلك الرجل : فأمسيت ذات ليلة ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاءونى فقلت : من أنتم ؟ وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، إنك كنت عودتنا منك هدية ، فقلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قلت : فإنى أعود لذلك ، فما تركتها بعد .

وقال بشار بن غالب : رأيت رابعة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى : يا بشار ! هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير . قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم ، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، ومخمرة بمناديل الحرير ، ثم أتى به إلى الذى دعى له من الموتى فقيل له : هذه هدية فلان إليك .

فصل فى حقيقة الموت

والذى تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت ، هو مفارقة الروح للجسد ، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية ، إما معذبة منعمة ، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم ، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها ، يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى إن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح

إلى الجسد في القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث ، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده .

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها ، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به ، ويستريح إليه ، عظمت حسرته عليه بعد الموت ، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به ، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، لأن جميع شواغل الدنيا عن ذكر الله تعالى .

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذاك مسطوراً في كتاب مطوى في سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فلما انقطعت انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وكل ذلك ينكشف عند الموت ، وهذه آلام تهجم على المعاصي قبل الدفن ، نسأل الله العافية .

ومما يدل أن الروح لا تنعدم بالموت ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[آل عمران : ١٦٩] قال مسروق : سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل وذكر تمام الحديث . وجاء في قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[غافر : ٤٦] أخبر أنهم يعذبون بعد الموت .

وفى « الصحيحين » عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «إن أحدكم إذا مات ، عُرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »(١) .

وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشف له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً ، فأما المؤمن ، فقال عبد الله بن عمر : مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان فى سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح فى الأرض ، ويتقلب فيها ، وهو صحيح ، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن ، فيكون كمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف ، فيه أنواع الأشجار ، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه .

وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينيه .

فصل فى ذكر القبر

روي عن النبى ﷺ أنه قال : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »(٢) .

وروى أيضاً عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا بن آدم ! ما غرك ؟! ألم تعلم أنى بيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ؟ »(٣) .

---

(١)[متفق عليه] البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز : ٨٩ ـ باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى : حديث [١٣٧٩] ، ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : ١٧ ـ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه : حديث [٢٨٦٦] ، والترمذى فى الجنائز : حديث [١٠٧٢] ، والنسائى فى : الجنائز : باب وضع الجريد على القبر : حديث [٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥] ، وابن ماجة فى الزهد : حديث [٤٢٧٠] ، ومالك فى : الجنائز : حديث [٤٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ١٦ و ٥١ و ١١٣ و١٢٣

(٢)[ضعيف] الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٢٦ ـ باب حدثنا محمد : حديث [٢٤٦٠].

(٣)[ضعيف] حلية الأولياء ٦ / ٩٠ ، وابن عساكر ٢ / ٦٧ .

وروى الترمذى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاهً فرأى ناساً كأنهم يكشرون ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الدود فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً ، أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلىّ ، فإذا وُليتك اليوم وصرت إلىّ ، فسترى صنيعى بك ، فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا ، أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلىَّ ، فإذا وليتك اليوم ، وصرت إلىَّ فسترى صنيعى بك ، قال : فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه » وقال رسول الله بأصابعه ، فأدخل بعضها فى بعض قال : « ويقيض له سبعون تنيناً ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا ، فينهشنه ويخدشنه ، حتى يفضى به إلى الحساب ، قال رسول الله ﷺ : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » [(١)] .

و قال كعب : إذا وضع الرجل الصالح فى قبره ، احتوشته أعماله الصالحة الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، وقال : وتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام لله عزوجل ، قال : فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد طال بى الصيام ، قال : فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه ، وحج وجاهد لله عزوجل ، ولا سبيل لكم عليه ، فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت فى يد الله ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه ، قال : فيقال له : هنيئاً طبت حياً ، وطبت ميتاً ، قال : وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرشه فراشاً فى الجنة ودثاراً من الجنة ،

---

(١) سبق تخريجه ص [٤٨٩] .

فيفسح له فى قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وعن أنس بن مالك أن نبى الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذاالرجل محمد ﷺ ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقولان : انظر إلى مقعدك فى النار قد أبدلك الله عزوجل به مقعداً فى الجنة ، قال رسول الله ﷺ : فيراهما جميعاً ، وأما الفاجر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول فى هذاالرجل ، فيقول : لا أدى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غيّر الثقلين » أخرجاه فى « الصحيحين » (١) .

وفيهما من حديث أسماء بنت أبى بكر عن النبى ص أنه قال : « أوحى إلىّ أنكم تفتنون فى قبوركم مثل ـ أو قال قريباً من ـ فتنة المسيح الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . . . . » وذكر باقى الحديث (٢) .

---

(١)[متفق عليه] البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز : ٨٦ ـ باب ماجاء فى عذاب القبر : حديث [١٣٧٤] ، ومسلم فى : ٥١ كتاب الجنة : ١٧ ـ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه : حديث [٢٨٧٠] ، وأبو داود فى : السنة : حديث [٤٧٥٢] ، والنسائى فى : الجنائز : باب التسهيل فى غير السبتية : حديث [١] ، وأحمد فى « مسنده» ٣ / ١٢٦ .

(٢)[متفق عليه] البخارى فى : ٣ ـ كتاب العلم : ٢٥ ـ باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس : حديث [٨٦]، ومسلم فى: ١٠ ـ كتاب الكسوف : ٣ ـ باب ماعرض على النبى فى صلاة الكسوف: حديث [٩٠٥] والنسائى فى : الجنائز : باب التعوذ من عذاب القبر : حديث [٣] ، والدارمى فىَ : الصلاة : حديث [١٥٢٧] ، ومالك فى الكسوف : حديث [٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٦ / ٨٩ و ٢٣٨ و ٢٤٨ و ٢٧١ .

وعن ابن عباس قال : لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها ، التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : « ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة فى قبره ، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ . . . »[1] . وذكر باقى الحديث .

وعن عبد الله الصنعانى قال : رأيت يزيد بن هارون فى المنام بعد موته بأربع ليال فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : تقبل منى الحسنات ، وتجاوز عن السيئات . قلت : وما كان بعد ذلك ؟ قال : وهل يكون من الكريم إلا الكرم ، غفر لى ذنوبى وأدخلنى الجنة ، قلت : بم نلت الذى نلت ؟ قال : بمجالس الذكر ، وقولى الحق ، وصدقى فى الحديث ، وطول قيامى فى الصلاة ، وصبرى على الفقر ، قلت : منكر ونكير حق ؟ قال : أى والله الذى لا إله إلا هو ، لقد أقعدانى وسألانى : من ربك ؟ وما دينك ، ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتى البيضاء من التراب ، وقلت : مثلى يسأل ؟! أنا يزيد بن هارون الواسطى ، كنت فى دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس ؟ فقال أحدهما : صدق ، هو يزيد بن هارون ، نم نومة العروس ، فلا روعة عليك بعد اليوم .

وقال المروزى : رأيت أحمد بن حنبل فى النوم فى روضة ، وعليه حلتان خضراوان ، وعلى رأسه تاج من النور ، وإذا هو يمشى مشية لم أكن أعرفها له ، فقلت : يا أحمد ! ما هذه المشية التى لم أكن أعهدها لك ؟ فقال : هذه مشية الخدام فى دار السلام ، فقلت : وما هذا التاج الذى أراه على رأسك ؟ فقال : إن ربى عزوجل أوقفنى وحاسبنى حساباً يسيراً ، وكسانى وقربنى ، وأنا أنظر إليه ، وتوجنى بهذا التاج وقال لى : يا أحمد هذا تاج الوقار توجتك به ، كما قلت : القرآن كلامى غير مخلوق .

---

(١) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٦ / ٥٥ ، ٩٨ ، والطبرانى [١٢ / ٢٣٢] وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٣ / ٤٦] ورجال أحمد رجال الصحيح .

فصل فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار فى الجنة أو النار

قد أشرنا إلى أهوال القبر ، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط ، وهذه أهوال يجب الإيمان بها ، وينبغى تطويل الفكر فيها ، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة ، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات ، ثم قيل له : إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المتصور العاقل المتكلم ، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك ، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب ، يزيد على بعثه وإعادته ، وكيف ينكر ذلك ـ من قدرة الله تعالى وحكمته ـ من يشاهد البداية ؟ فإن كان فى إيمانك ضعف ، فقوّ الإيمان بالنظر فى النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها ، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، وليحثك ذلك على الجد والتشمير ، وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ فى ذلك الصور ، فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء ، قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته ، وأصغى بسمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فى الصور فينفخ ؟! » قال المسلمون : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وتوكلنا على الله » (١) ثم انظر كيف يُحشر الناس يوم القيامة ، فيساقون بعد البعث حفاةً عراةً إلى أرض المحشر ، وهى قاع ليس فيها ربوة يختفى الإنسان بفنائها .

---

(١) [صحيح] الترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٨ ـ باب ماجاء فى شأن الصور : حديث [٢٤٣١] ، وابن ماجة فى الزهد [٤٢٧٣] وأبو نعيم فى الحلية [٥ / ١٠٥] وأحمد فى « مسنده » ١ / ٣٢٦ ، ٤ / ٣٧٤ ، وهو فى « صحيح الجامع » رقم [٤٥٩٢] .

وفى « الصحيحين » قال النبى ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى » (١) .

ثم تفكر فى ازدحام الناس وقرب الشمس من رءُوسهم ، وشدة العرق ، مع ما فى القلوب من القلق .

وفى الحديث : « إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم » (٢) .

وتفكر يا مسكين فى سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان ، فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » (٣) .

وعن أبى برزة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد حتى يُسأل : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » (٤) .

وعن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر رضى الله عنه ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق : ٤٤ - باب يقبض الله الأرض : حديث [٦٥٢١] ، ومسلم فى : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين : ٢ - باب فى البعث والنشور : حديث [٢٧٩٠] .

(٢) [صحيح] مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها : ١٥ - باب فى صفة يوم القيامة : حديث [٢٨٦٤] والترمذى [٢٤٢١] .

(٣) [ضعيف] الترمذى : ٣٨ - كتاب صفة القيامة ، ٤ - باب ما جاء فى العرض حديث [٢٤٢٥] وقال الترمذى : ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤٢٧٧] ، وأحمد فى « مسنده » ٤ / ٤١٤ ، وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٦٤٣٢] .

(٤) [صحيح] الترمذى فى : ٣٨ - كتاب صفة القيامة : ١ - باب فى القيامة : حديث [٢٤١٧] .

أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم : قال : ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : ﴿ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] » [١] أخرجاه فى « الصحيحين » .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز »[٢] .

وفيهما أيضاً ، عن النبى قال : « يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم »قالوا : يا رسول الله ! ما الجسر ؟ قال : «مدحضة مزلة ، عليها خطاطيف وكلاليب وحسك ، يمر المؤمن عليه كالطرف ، وكالبرق الخاطف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً»[٣]

ذكر جهنم أعاذنا الله منها

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : كنا عند النبى ﷺ يوماً ، فسمعنا وجبة ، فقال النبى ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟» قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : «هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن انتهى إلى قعرها »رواه مسلم [٤] .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم »قالوا : والله إن

(١) البخارى فى : ٤٦ـ كتاب المظالم : ٢ ـ باب قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ : حديث [٢٤٤١] ، ومسلم فى : ٤٩ـ كتاب التوبة : ٨ ـ باب قبول توبة القاتل : حديث [٢٧٦٨]، وابن ماجه فى : المقدمة : حديث [١٨٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٧٤ .
(٢) [متفق عليه]البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٥٢ ـ باب الصراط جسر جهنم : حديث [٦٥٧٣]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٨١ ـ باب معرفة طريق الرؤية : حديث [١٨٣] .
(٣) [متفق عليه]البخارى فى : ٩٨ ـ كتاب التوحيد : ٢٤ ـ باب قول الله ـ تعالى ـ ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ : حديث [٧٤٣٩] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٨١ ـ باب معرفة طريق الرؤية حديث [١٨٣] .
(٤) [صحيح] مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : ١٢ ـ باب فى شدة حرّ نار جهنم : حديث [٢٨٤٤] .

كانت لكافية يا رسول الله ، قال : « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلها مثل حرها »[١] .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[٢] .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيغاثون بالحميم ، ينالونه بكلاليب من حديد ، فإذا دنا منهم شوى وجوههم ، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم ، فيطلبون إلى خزنة جهنم : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ فيجيبونهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر : ٤٩] فيقولون : سلوا مالكاً ، فيقولون : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ فيقول : ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف :٧٧] فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ فيقول عز وجل : ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٧ ، ١٠٨] فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون فى الشهيق والويل والثبور .

وتفكر فى حيَّاتها وعقاربها ، ففى الحديث : « إن حيَّاتها أمثال أعناق البخت ، وعقاربها كبالغال المَوكفة »[٣] .

---

(١) البخارى فى ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق : ١٠ ـ باب صفة النار : حديث [٣٢٦٥] ، ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : ١٢ ـ باب فى شدة حرّ نار جهنم : حديث [٢٨٤٣] وأحمد فى « مسنده» ٢ / ٣١٣ و الحاكم فى « مستدركه » ٤ / ٥٩٣ .

(٢)[صحيح] مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : ١٢ ـ باب فى شدة حرّ نار جهنم : حديث [٢٨٤٢] ، والترمذى فى صفة جهنم باب ما جاء فى صفة النار حديث [٢٥٧٣] .

(٣)[ضعيف] أحمد فى « مسنده » ٤ / ١٩١ ، قال الهيثمى فى المجمع [١٠ / ٣٩٠] : رواه أحمد والطبرانى وفيه جماعة قد وثقوا ، والحديث فى صحيح ابن حبان [٢٦١٣ موارد] وحسنه الهيثمى ، والحاكم [٤ / ٥٩٣] وصححه ووافقه الذهبى .

وعن الحسن :أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا .

واعلم :أن صفة جهنم تطول ، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفى فى التخويف ، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك ، وخف ما بين يديك ، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين ، ولسنا نعنى بالخوف رقة النساء فتبكى ساعة ثم تترك العمل ، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصى ، ويحث على الطاعة ، فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال ، وأن يقولوا : استعنا بالله ، نعوذ بالله، يا رب سلم ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح ، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن ، فيقول : أعوذ بالله من هذا ، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه .

فصل فى محبة الرسول ﷺ

وكن فى الدنيا محباً لرسول الله ﷺ حريصاً على تعظيم سنته، ولعله يشفع فيك فى الآخرة ، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم ،ويسأل الله فى أهل الكبائر من أمته فينجيهم ، واستكثر من الإخوان الصالحين ، فلكل مؤمن شفاعة، ولا تحملنك الغرة على التوانى وتسمى ذلك رجاء ، فإن من رجا شيئاً طلبه، واحترز من المظالم ، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها ، فإن غرماءه يحيطون به فى القيامة ، فهذا يقول : ظلمنى ، وهذ يقول : استهزأ بى ، وهذ يقول: أساء جوارى ، وهذا يقول : غشنى ، فلا خلاص لك من أيديهم ، فإذا توهمت الخلاص قيل : لا ظلم اليوم .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ: « يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقضى لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة » (١) .

---

(١) البخارى فى : ٨١ـ كتاب الرقاق : ٤٨ ـ باب القصاص يوم القيامة : حديث [٦٥٣٥] ، وأحمد فى « مسنده » ٣ / ٦٣ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس » ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »[(١)] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »[(٢)] .

وهذه الأحاديث كلها فى الصحاح . فانظر وفقك الله إلى بُعد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة ، فإن سلمت أخذها الخصوم ، فتيقظ لنفسك ، ولاتفرط فى أوقاتك ، فإن المسكين من آثر لذة مقطعة ، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً . نسأل الله السلامة والتوفيق .

ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ! حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر[(٣)] ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ،

---

(١) مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ١٥ ـ باب تحريم الظلم : حديث [٢٥٨١] ، والترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٢ ـ باب ماجاء فى شأن الحساب والقصاص : حديث [٢٤١٨] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٠٣ و ٣٣٤ و ٣٧٢ .

(٢) [صحيح] مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة : ١٥ ـ باب تحريم الظلم : حديث [٢٥٨٢] ، والترمذى فى : ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة : ٢ ـ باب ماجاء فى شأن الحساب والقصاص : حديث [٢٤٢٠] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٣٥ ، ٣٠١ .

(٣) ملاطها : المِلاط : الطين الذى يجعل فى البناء يملط به الحائط أى يخلط والأذفر : المراد به طيب ريحه .

ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه »[١] .

وفى حديث أسامة بن زيد ، عن النبى ﷺ أنه قال يوماً وذكر الجنة : « ألا مشمر لها ؟ هى ورب الكعبة ريحانة تهتز ، ونور يتلألأ ، ونهر مطرد ، وزوجة لاتموت ، فى حبور ونعيم ، ومقام فى أبد » فقالوا : نحن المشمورن لها يا رسول الله ، قال : «ولوا إن شاء الله »[٢] .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « إن الله عزوجل قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[٣] .

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبى ﷺ أنه قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الألوة والألنجوج ، أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء » .

وفى رواية أخرى : « لكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وارء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ،

---

(١)[صحيح] الترمذى فى : ٣٩ـ كتاب صفة الجنة : ٢ـ باب ماجاء فى صفة الجنة : حديث [٢٥٢٦] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٣٠٥ ، ٤٤٥ ، وابن حبان [٢٦٢١ موارد].

(٢)[ضعيف] ابن ماجة فى : ٣٧ـ كتاب الزهد : ٣٩ـ باب صفة الجنة : حديث [٤٣٣٢]، قال البوصيرى فى الزوائد : فى إسناده مقال ، والضحاك المعافرى الدمشقى ذكره ابن حبان فى الثقات وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول ، وسليمان بن موسى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات ، ورواه ابن حبان فى صحيحه [٢٦٤٠ موارد] وهو فى « ضعيف الجامع » رقم [٢١٨٠] .

(٣)[متفق عليه] البخارى فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق : ٨ـ باب ماجاء فى صفة الجنة : حديث [٣٢٤٤] ، ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : فى المقدمة : حديث [٢٨٢٤] ، والترمذى فى تفسير القرآن حديث [٣١٩٧] ، وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤٣٢٨] ، والدارمى فى الرقاق : حديث [٢٨١٩] ، وأحمد فى «مسنده» ٢ / ٣١٣ .

يسبحون الله بكرة وعشياً » [١] .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » . أخرجاه فى «الصحيحين » [٢].

وفيهما من حديث أبى موسى أيضاً عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة لخيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلا ، وفى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » [٣] .

واعلم :أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطاً فى مواضع من القرآن ، ثم جمعه فى آيات ، منها قوله تعالى : ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾[الزخرف : ٧١] ، وقوله : ﴿ **لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾[الكهف : ١٠٨]، ثم زاد على ذلك بقوله : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾[السجدة :١٧] .

صفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا .

وأفضل ما ينال فى الجنة رؤية الله تعالى ، وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه قيل : يا رسول الله ! هل نرى ربنا ؟ فقال : « فهل

---

(١) [صحيح]البخارى فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق : ٨ ـ باب ماجاء فى صفة الجنة : حديث [٣٢٤٥، ٣٢٤٦]

(٢) [متفق عليه]البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن : ١ ـ باب قوله « ومن دونهما جنتان » : حديث [٤٨٧٨]، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٨٠ ـ باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم : حديث [١٨٠] وابن ماجة فى : المقدمة : حديث [١٨٦] .

(٣) [متفق عليه]البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن : ٢ ـ باب « حور مقصورات فى الخيام » : حديث [٤٨٧٩]، ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة : ٩ ـ باب فى صفة خيام الجنة : حديث [٢٨٣٨]، والترمذى فى : الجنة : حديث [٢٥٢٨] ، والدارمى فى الرقاق : حديث [٢٨٣٣] ، وأحمد فى «مسنده» ٤ / ٤٠٠ و ٤١١ و ٤١٩ . .

تضامون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك »[(١)] .

باب فى ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذكر رحمة الله عز وجل ، نرجو بذلك فضله وإذا ليس لنا أعمال نرجو بها العفو ، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله عزوجل الخلق ، كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » أخرجاه فى « الصحيحين »[(٢)] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن لله عزوجل مائة رحمة ، أنزل رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على أولادها ، وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة »[(٣)] .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم تبارك وتعالى رحيم ،

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ١٠ـ كتاب الأذان : ١٢٩ ـ باب فضل السجود : حديث [٨٠٦] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٨١ ـ باب معرفة طريق الرؤية : حديث [١٨٢] .

(٢) [متفق عليه] البخارى فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق : ١ ـ باب ماجاء فى قوله الله ـ تعالى ـ : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ﴾ : حديث [٣١٩٤] ، ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة : ٤ ـ باب فى سعة رحمة الله : حديث [٢٧٥١] .

(٣) [متفق عليه] البخارى فى الأدب باب ، جعل الله فى مائة جزء حديث [٦٠٠٠] مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة : ٤ ـ باب فى سعة رحمة الله : حديث [١٩/ ٢٧٥٢] ، وابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد : ٣٥ ـ باب مايرجى من رحمة الله يوم القيامة : حديث [٤٢٩٣] ، وابن ماجة فى : الزهد : حديث [٤٢٩٣] ، والحاكم في « مستدركه » ١ / ٥٦ و ٤ / ٢٤٨ ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٥٢٦ .

من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك »[١] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « يقول الله عزوجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة ، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ، ومن اقترب إلىّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إلىّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة »[٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ «أن رجلاً أذنب ذنباً فقال : أى رب ! أذنبت ذنبساً فاغفر لى ، فقال تبارك وتعالى : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أى رب ! عملت ذنباً فاغفر لى ، فقال عزوجل : علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر قال : أى رب ! عملت ذنباً فاغفر لى ، فقال : علم عبدى أن رباً يغفر الذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى ، فليعمل ما شاء »[٣]هذه الأحاديث كلها صحاح .

وفى « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبى ، وإذا امرأة من السبى تسعى ، إذ وجدت صبياً فى السبى فأخذته ، فألصقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ »قلنا : لا والله ، قال : « لله أرحم بعباده من

---

(١) [متفق عليه] البخارى فى : ٨١ـ كتاب الرقاق : ٣١ ـ باب من هم بحسنه أو بسيئة حديث [٦٤٩١] ، ومسلم فى : ١ ـ الإيما ن : ٥٩ ـ باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب حديث [١٣٠ ، ١٣١] والدارمى فى : ٢٠ ـ كتاب الرقاق : ٧٠ ـ باب من همَّ بحسنة : حديث [٢٧٨٦] وأحمد فى « مسنده » [١ / ٢٧٩] .

(٢) مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء : ٦ ـ باب فضل الذكر والدعاء حديث [٢٦٨٧] .

(٣) البخارى فى : ٩٨ ـ كتاب التوحيد : ٣٥ ـ باب قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ : حديث [٧٥٠٧] ، وأحمد فى « مسنده » ٢ / ٢٩٦ .

هذه المرأة بولدها »(١) .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ! وإن زنى وإن سرق ! وإن زنى وإن سرق » ثم قال فى الرابعة : « على رغم أنف أبى ذر »(٢) .

وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله حرم النار على من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله »(٣) .

وفيهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : «يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير وزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرَّة »(٤) .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى بيهودى أو نصرانى حتى يدفع إليه فيقال له : هذا فكاكك من النار »(٥) .

---

(١) البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب : ١٨ ـ باب رحمة الولد : حديث [٥٩٩٩] ، ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة : ٤ ـ باب فى سعة رحمة الله : حديث [٢٧٥٤] .

(٢) البخارى فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس : ٢٤ ـ باب الثياب البيض : حديث [٥٨٢٧] ، ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ٤٠ ـ باب من مات لايشرك بالله شيئاً : حديث [٩٤] ، وأحمد فى « مسنده » ٥ / ١٦٦ .

(٣) البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق : ٦ ـ باب العمل الذى يبتغى به وجه الله : حديث [٦٤٢٣] . ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان : ١٠ ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً : حديث [٢٩] .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) [صحيح] أحمد فى « مسنده » ٤ / ٤٠٢ ، ومسلم فى التوبة ، باب قبول توبة القاتل حديث [٢٧٦٧] وابن ماجة [٤٢٩٢] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزوجل يستخلص رجلاً من أمتى على رُءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا يا رب ، فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول أحضروه ، فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل شيء مع اسم الله عزوجل » (١) .

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال : أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقاً ، أكان يردهم ؟ فقيل : لا ، قال : والله المغفرة عند الله عزوجل أهون من إجابة رجل لهم بدانق ! .

وعن إبراهيم بن أدهم قال : خلا لى الطواف فى ليلة مظلمة شديدة المطر ، فلم أزل أطوف إلى السحر ، ثم رفعت يدى إلى السماء ، فقلت : اللهم إنى أسألك أن تعصمنى عن جميع ما تكره ، فإذا قائل يقول فى الهواء : أنت تسألنى العصمة ، وكل خلقى يسألنى العصمة ، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل ؟

فهذه الأحاديث مع ماذكرناه فى كتاب الرجاء ، تبشرنا بكرم الله تعالى ورحمته وجوده .

ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو أهله .

---

(١) [حسن] أحمد فى « مسنده » ٢ / ٢١٣ ، والترمذى فى الإيمان ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله رقم [٢٦٣٩] ، وابن ماجة فى الزهد رقم [٤٣٠٠] وابن حبان [٢٥٢٤ موارد] والحاكم [١ / ٦ ، ٥٢٩] .

ونحن نستغفر الله عزوجل من أقوالنا التى تخالف أعمالنا ، ومن كل تصنع تزيَّنا به للناس ، وكل علم وعمل قصدناه ، ثم خالطه ما يكدره ، فبكرمه نستشفع إلى كرمه ، وبجوده نسأل من جوده ، إنه قريب مجيب .

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغى لكريم وجهه عزوجل .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .


فهرس الكتاب

الموضوع — الفهرست — الصفحة

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
مقدمة المحقق	٨
١ ـ الربع الأول من الكتاب : ربع العبادات	١١
كتاب العلم وفضله	١٢
طلب العلم فريضة	١٥
علم المعاملة	١٨
العلوم المحمودة	٢٠
عالم لم ينفعه علمه	٢١
باب فى آداب المعلم والمتعلم	٢٢
آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة	٢٥
كتاب الطهارة وأسرارها والصلاة وما يتعلق بها	٢٩
فضائل الصلاة	٣١
آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة	٣٥
ذكر النوافل	٣٨
النهى عن التطوع فى أوقات ثلاثة	٤٠
كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بها	٤١
دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة	٤٢

الفهرست

الموضوع | الصفحة

آداب القابض للزكاة ٤٤

صدقة التطوع وفضلها وآدابها ٤٥

كتاب الصوم ومهماته وما يتعلق به ٤٨

سنن الصوم ٤٨

بيان أسرار الصوم وآدابه ٤٩

كتاب الحج وأسراره وفضائله ٥٢

الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج ٥٣

كتاب آداب تلاوة القرآن الكريم وذكر فضله ٥٦

آداب التلاوة ٥٨

تحسين الصوت فى القراءة ٥٩

كتاب الأذكار والدعوات وغيرها ٦٢

فصل فى الأوراد وفضلها وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات ٦٤

بيان عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها ٦٤

ذكر أوراد الليل ٦٩

اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال ٧٥

باب فى قيام الليل وفضله ٧٧

الفهرست

الموضوع — الصفحة

الأسباب الميسرة لقيام الليل ٧٨

فيمن صعب عليه الطهارة بالليل ٨٠

بيان الليالى والأيام الفاضلة ٨١

٢ ـ الربع الثانى من الكتاب : ربع العادات ٨٣

باب فى آداب الأكل والاجتماع عليه والضيافة ٨٤

فصل فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل ٨٦

استحباب تقديم الطعام إلى الإخوان ٨٦

عدم الدخول على القوم وهم يأكلون قصداً ٨٧

آداب الضيافة ٨٧

آداب إحضار الطعام ٨٨

كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به ٩٠

آفات النكاح ٩١

طيب العشرة ٩٢

آداب المعاشرة ٩٤

كتاب آداب الكسب والمعاش ٩٩

فضل الكسب والحث عليه ٩٩

الفهرست

الموضوع	الصفحة

العدل واجتناب الظلم فى المعاملة ١٠٢
الإحسان بالمعاملة ١٠٣
شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته ١٠٣
كتاب الحلال والحرام ١٠٥
درجات الحلال والحرام ١٠٦
درجات الورع ١٠٦
أحوال من يخالط الأمراء والعمال والظلمة ١١٣
الدخول على الأمراء الظلمة بعذر ١١٥
كتاب آداب الصحبة والأخوة ومعاشرة الخلق ١١٧
بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته ١٢٠
بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق ١٢١
آداب المعاشرة للخلق ١٢٦
باب فى حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ١٢٧
باب فى حقوق الأقارب والرحم ١٣٢
باب العزلة ١٣٤
ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق من فضلها ١٣٥
آفات العزلة ١٣٩

الفهرست

الموضوع	الصفحة

كتاب آداب السفر ١٤٥

فى السفر المباح ١٤٦

فصل فيما لابد للمسافر منه ١٤٧

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ١٤٩

أركان مراتب الإنكار وشروط درجاته وآدابه ١٥١

صفات المحتسب وآدابه وشروطه ١٥٧

باب فى المنكرات المألوفة فى العادات ١٥٩

منكرات المساجد ١٥٩

منكرات الأسواق ١٦٠

منكرات الشوارع ١٦٠

منكرات الحمامات ١٦٠

منكرات الضيافة ١٦١

المنكرات العامة ١٦٢

بحث فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ١٦٢

حكم السماع ١٧٣

باب آداب المعيشة وأخلاق النبوة ١٧٦

محاسن أخلاقة ـ ﷺ ـ وصفته ١٧٦

الموضوع	الفهرست	الصفحة

معجزاته ـ ﷺ ـ ١٨٠

٣ ـ الربع الثالث من الكتاب : وهو ربع المهلكات ١٨٣

كتاب شرح عجائب القلوب ١٨٤

مداخل إبليس فى قلب الإنسان ١٨٤

ثبات القلوب على الخير ١٨٧

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب ١٨٩

فضيلة حسن الخلق وذم سوء الأخلاق ١٨٩

بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق ١٩١

علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه ١٩٣

فى شهوات النفوس ١٩٦

بيان علامات حسن الخلق ١٩٦

رياضة الصبيان فى أول النشوء ١٩٩

شروط الرياضة ٢٠١

كتاب كسر الشهوتين : شهوة البطن ، وشهوة الفرج ٢٠٣

كتاب آفات اللسان ٢٠٦

ذكر آفات الكلام ٢٠٧

الفهرست

الموضوع	الصفحة

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها ٢١٣
حصول الغيبة بسوء الظن ٢١٥
باب فى الأعذار المرخصة فى الغيبة وكفارة الغيبة ٢١٥
آفات العوام وسؤالهم عن صفات الله تعالى ٢٢١
كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ٢٢٢
بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب ٢٢٤
كظم الغيظ ٢٢٧
الحلم ٢٢٧
العفو والرفق ٢٢٩
باب فى الحقد والحسد ٢٣٠
كثرة الحسد بين الأقران والأمثال ٢٣٤
باب ذم الدنيا ٢٣٦
بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود ٢٤١
باب ذم البخل والطمع ، وذم المال ومدح القناعة والسخاء
ونحو ذلك ٢٤٣
بيان مدح المال ٢٤٣
فوائد المال الدينية ٢٤٥

الموضوع | الفهرست | الصفحة

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس ٢٤٧

بيان علاج الحرص والطمع والدعاء الذى تكتسب به صفة القناعة ٢٤٨

القناعة لمن فقد المال ٢٥٠

حكايات الأسخياء ٢٥١

فصل فى البخل وذمه ٢٥٣

ومن حكايات البخلاء ٢٥٤

فضل الإيثار وبيانه ٢٥٥

حد البخل والسخاء ٢٥٦

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول ونحو ذلك ٢٥٩

الجاه والمال اللذين هما ركنا الدنيا ٢٦١

بيان علاج حب الجاه ٢٦٢

عدم الاكتراث بذم الناس ٢٦٣

القسم الثانى من الكتاب فى : بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ٢٦٥

أبواب الرياء بعضها أشد من بعض ٢٦٩

بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل ٢٧٠

الموضوع | الفهرست | الصفحة

بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ٢٧٣
دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه ٢٧٣
الرخصة فى قصد إظهار الطاعات . . . إلخ ٢٧٦
من ترك الطاعات خوفاً من الرياء ٢٧٧
بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ٢٧٨
كتاب ذم الكبر والعجب ٢٨٠
درجات آفة الكبر فى العلماء والعباد ٢٨١
بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع ٢٨٥
علاج العجب ٢٨٩
كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته ٢٩٢
غرور أهل العلم ٢٩٣
غرور أرباب التعبد والعمل ٢٩٩
غرور المتصوفة ٣٠٢
غرور أرباب الأموال ٣٠٤
٤ ـ الربع الرابع من الكتاب : وهو ربع المنجيات ٣٠٧
كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها ٣٠٨
بيان أقسام الذنوب ٣٠٩

الموضوع الفهرست الصفحة

كيفية توزيع الدرجات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا ٣١٣

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب ٣١٦

شروط التوبة الصحيحة ٣١٩

شروط التوبة ٣٢١

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة ٣٢٢

فيما ينبغى للتائب فعله ٣٢٤

دواء وطريق علاج عقدة الإصرار ٣٢٤

كتاب الصبر والشكر ٣٢٩

تقسيم الصبر إلى ضربين ٣٣٠

الصبر على الطاعات والصبر على المعاصى والصبر على المصائب ٣٣٢

آداب الصبر ٣٣٥

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه ٣٣٨

الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك ٣٤٠

الشكر بالقلب واللسان والجوارح ٣٤١

فعل الشكر وترك الكفران لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى ٣٤٢

الفهرست

الموضوع | الصفحة

بيان النعم وحقيقتها وأقسامها ٣٤٦

بيان كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء ٣٤٧

نعمة صحة البدن ٣٤٨

عجائب الأغذية والأدوية ٣٥٢

بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد ٣٥٨

اختلاف الناس هل الصبر أفضل من الشكر أو بالعكس ٣٦٢

كتاب الرجاء والخوف ٣٦٥

فضيلة الرجاء ٣٦٨

دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به ٣٦٩

الخوف وحقيقته وبيان درجاته ٣٧٢

الخوف سوط الله تعالى ٣٧٤

بيان أقسام الخوف ٣٧٥

فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما ٣٧٦

بيان الدواء الذى يستجلب به الخوف ٣٧٨

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام ٣٨٣

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام ٣٨٤

ذكر خوف نبينا ـ ﷺ ـ ٣٨٥
ذكر خوف أصحابه رضى الله عنهم ٣٨٦
ذكر خوف التابعين ومن بعدهم ٣٨٧
كتاب الزهد والفقر ٣٨٩
الشطر الأول فى الفقر ٣٨٩
فضيلة الفقير على الغنى ٣٩١
آداب الفقير فى فقره ٣٩٤
بيان آدابه فى قبول العطاء ٣٩٥
بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فى السؤال ٣٩٦
بيان أحوال السائلين ٣٩٨
بيان حقيقة الزهد وفضيلته ٣٩٩
درجات الزهد وأقسامه ٤٠٠
بيان تفضيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ٤٠٤
بيان علامات الزهد ٤٠٥
كتاب التوحيد والتوكل ٤٠٧
بيان فضيلة التوكل ٤٠٧

الفهرست

الموضوع	الصفحة

بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ٤٠٨

بيان أعمال المتوكلين ٤١٠

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ٤١٥

بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ٤١٩

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس فى الحب وبيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ٤٢٣

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى ٤٢٦

بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان محبة العبد لله تعالى ٤٢٨

بيان معنى الأنس بالله والرضا بقضاء الله عزوجل ٤٣٢

فصل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى ٤٣٥

فصل فى أن الدعاء لا يناقض الرضا ٤٣٨

باب فى النية والإخلاص والصدق ٤٤١

النية وحقيقتها ٤٤٢

الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ٤٤٧

بيان حقيقة الإخلاص ٤٤٩

حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به ٤٥٠

الفهرست

الموضوع | الصفحة

الصدق وحقيقته وفضله ٤٥١

باب فى المحاسبة والمراقبة ٤٥٤

المقام الأول : المشارطة ٤٥٤

المقام الثانى : المراقبة ٤٥٧

المقام الثالث : المحاسبة بعد العمل ٤٥٨

المقام الرابع : معاقبة النفس على تقصيرها ٤٥٩

المقام الخامس : المجاهدة ٤٦١

المقام السادس : فى معاتبة النفس وتوبيخها ٤٦٢

باب التفكر ٤٦٤

باب مجارى الفكر وثمراته ٤٦٥

التفكر فى الله وآلائه ٤٦٦

ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به ٤٦٩

باب ما جاء فى فضل ذكر الموت ٤٧٠

تفاوت الناس فى طول الأمل ٤٧٤

ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده ٤٧٦

باب ذكر وفاة رسول الله - ﷺ - ٤٧٨

وفاة أبى بكر رضى الله عنه ٤٨١

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٤٨٢
وفاة عثمان بن عفان رضى الله عنه ٤٨٣
وفاة على بن أبى طالب رضى الله عنه ٤٨٣
ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم ٤٨٤
حقيقة الموت ٤٨٧
ذكر القبر ٤٨٩
أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار فى الجنة أو النار ٤٩٣
ذكر جهنم أعاذنا الله منها ٤٩٥
محبة رسول الله ـ ﷺ ـ وتعظيم سنته ٤٩٧
ذكر صفة الجنة ، نسأل الله العظيم من فضله ٤٩٨
باب فى سعة رحمة الله تعالى ٥٠١
الفهرس ٥٠٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٣١٨١ / ٩٩ م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١